دكتور
طاهر راغب حسين
كلية دار العلوم



التطور السياسي للمغرب

من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري

الناشر
دار النصر للتوزيع والنشر
بجامعة القاهرة

التطور السياسي للمغرب

من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري

دكتور

طاهر راغب حسين

كلية دار العلوم

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

الطبعـة الأولى ١٩٩٢

الطبعة الثانية ١٩٩٤

الطبعة الثالثة ٢٠٠٤

رقم الإيداع ٥٣٢٥ / ٩٥

الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد..

فهذا كتاب عن التطور السياسى للمغرب من الفتح إلى نهاية القرن العاشر الهجرى "، قصدت به أن يعطى صورة موجزة عن تاريخ المغرب خلال هذه الفترة، مع توضيح مظاهر التطور السياسى خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة. ومن أهم مظاهر التطور هذه:

١- ثبات حركة الفتح ببناء قاعدة وحاضرة للإقليم ، توجه منها الجيوش، ويقام فى مسجدها الجامع شعائر الدين ، وتدار منه سياسة البلاد.

٢ - انفصال إفريقية عن ولاية مصر، وأصبحت ولاية مستقلة تتبع الخليفة مباشرة (وإن تعرض هذا الاستقلال من حين إلى آخر للتوقف ، وعودة الإقليم إلى ولاية مصر، إلا أن التقسيم الإدارى-على أية حالة -كان قد ظهر ، وسيزداد مع تقدم الزمن ثباتاً ورسوماً ليكون المغرب ولاية قائمة بذاتها).

٣- انضمام الأندلس إلى ولاية إفريقية ، (قبل انفصاله ولاية قائمة بذاتها ، ثم انفصاله تحت حكم الأمويين منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، عن جسم الخلافة العباسية).

٤ - ظهور بوادر ولاية الاستيلاء ، ومحاولة الخلافة تحويلها إلى ولاية شرعية ، بإرسال سجل التعيين للمستولى

تمهيد جغرافى

يقصد بمصطلح المغرب،الأرض الواقعة غرب حدود مصر إلى المحيط، وقد تأخر ظهور هذا المصطلح إلى فترة من مراحل الفتح،وعرفت المنطقة أول الأمر بإفريقية،ثم ظهر تقسيم ثلاثى لهذه المنطقة فيما بعد، بحسب القرب أو البعد من الشرق، فالقسم القريب سمى بالمغرب الأدنى، والبعيد بالمغرب الأقصى،وبينهما توسط المغرب الأوسط.

التضاريس:

أما سطح هذا الإقليم، فانه ينقسم من الشرق إلى الحدود الغربية لطرابلس قسمين ، أولاهما عبارة عن منخفض مستمر، والمنطقة الثانية تبدأ بنهاية المنطقة الأولى وترتفع تدريجياً ابتداء من حدود تونس الشرقية الحالية حتى تنتهى عند المحيط الأطلسى.وتمتد من الغرب إلى الشرق سلاسل جبال أطلس موازية للبحر المتوسط وتنقسم هذه السلاسل إلى مجموعتين أساسيتين :

أولاهما المجموعة الشمالية من سلسلة أطلس التى تحصر مسافة ليست بالصغيرة بينها وبين البحر المتوسط تمثل منطقة السهل الساحلى.

والمجموعة الأخرى سلسلة جبال أطلس الكبرى وهى موازية للسلسلة الأولى ،وإن كانت أقرب إلى الصحراء منها إلى الساحل، وتنتهى هاتان السلسلتان فى تونس. وتسمى السلسة الأولى أطلس التل والثانية أطلس الصحراء. ويكثر العمران فى السهل الساحلى وكذلك فى مناطق السهول

الداخلية المحصورة بين سلسلتى جبال أطلس، وقد ربطت هذه السهول بأوديتها السهل الساحلى بداخل البلاد فى بعض المناطق، ويلاحظ على هذه السلاسل الجبلية أنها شبه متصلة، وأنها تمتد من الغرب إلى الشرق، لاتترك إلا مسافة محدودة على شاطىء الأطلس عند بدايتها، وتتلاش هذه الجبال فى وسط تونس الحالية، وهى بهذه الصوره تصعب الانتقال من شمال البلاد إلى جنوبها، أى من المنطقة الساحلية للبحر المتوسط إلى داخل البلاد. وربما كان ذلك سبباً فى وقوف المحتلين الأجانب على السهل الساحلى دون أن يتعمقوا كثيراً داخل البلاد. وترتفع بعض هذه الجبال ارتفاعات شاهقة، وهذا هو ابن خلدون يصف بعضها بأنها "شاهقة متوعرة، تتذعر منها الأبصار، ويضل فى غمرها السالك"(١). ومن أشهر الجبال التى سترد أسماؤها: جبل درن بالمغرب الأقصى، وجبل أوراس فى المغرب الأوسط وجبل نفوسة فى المغرب الأدنى وكما تلعب الجبال دوراً هاماً فى تضاريس المغرب والتأثير على أحداثه، تلعب الصحراء دوراً مشابهاً إن لم يكون أقصى أثراً.

والصحراء الجنوبية مثل مروع للصحراء، فهى من أوسع الصحارى اذ تصل مساحتها إلى سبعة ملايين كيلومتر مربع، ويمكن أن نتخيل مدى ضخامة هذه المساحة فهى تساوى ربع مساحة قارة إفريقيا(٢).

وطبيعة هذه الصحراء متنوعة بين رمال ناعمة وأرض صلبة متحجرة وقد تعرض جوتيه لتعدد طبيعة هذه الصحراء فوصفها بأنها "سهول أفقية ذات

١- العبر جـ ٦ص ١٢٨

٢- راجع د. مؤنس فى مقالته : "الطرق الصوفية وأثرها فى نشر الإسلام فى الصحراء الكبرى ص ١٠٩ (مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية - المجلد الحادى والعشرين - مدريد)

سطح نجده فى بعض الأحيان منبسطاً متجانساً، كما ترى فى صحراء الجزائر المعروفه باسم بلاد ريغ، وفى أحيان أخرى نجده مغطى بالزلط والحصى، مما يجعل السير مؤلماً أشد الألم، كما نرى فى الصحراء الليبية، وأحياناً ثالثة يكون هذا السطح قاحلاً تماماً فى أرض الموت المعروفة فى البربرية باسم تانزردقت"[٣] وهذه المنطقة الاخيرة هى التى اطلق عليها العرب منطقة الحمادة.

ولولا بعض الشطوط والواحات (التى يطلق عليها فى المصادر المغربية أحياناً الجزائر جمع جزيرة) لما أمكن لأحد اجتياز هذه الصحراء من موقع إلى موقع آخر أحياناً.

غير أن الصورة ليست بهذه الصعوبة فى مناطق أخرى مثل مناطق السهول والتلول، ففيها المياه متوفرة من عدة مصادر من الأمطار والأبار والعيون، بحيث أصبحت هذه المناطق من أخصب الأراضى الزراعية، وتنوعت محاصيلها بحيث أمكن الاكتفاء بالسكان.

التعريف بالسكان :

٣- انظر Gauter : Le Sahara P. 120 نقلا عن د. مؤنس فى مقالته : "الطرق الصوفية وأثرها فى نشر الإسلام فى الصحراء الكبرى ص ١٠٩ (مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية المجلد الحادى والعشرون)

شهد الفاتحون المسلمون بمنطقة المغرب. عدة عناصر سكانية كانت تقطن الإقليم، هى :

أ- البربر وهم أهل الأقليم. وسنعود اليهم بشىء من التفصيل.

ب- البيزنطيون المحتلون للإقليم، الذين تركزوا فى المناطق الساحلية أكثر من وجودهم داخل البلاد.

جـ- الأفارقة، وهم مجموعة من بقايا الشعوب المحتلة والأجانب ومن انضاف اليهم لخدمتهم من أهل البلاد مندمجاً فيهم، وكانت لهم لغهتم الخاصة أحياناً.

البربر:

يجدر بنا قبل ان نتحدث عن البربر. أن نشير إلى أن لفظ (البربر) لا يعنى التوحش أو الهمجية، وإنما يطلق لفظ البربر ويراد به أمة عظيمة كبيرة ذات حضارة سكنت منطقة المغرب وعاشت فيه سنين طويلة.

وقد قيلت عدة آراء فى سبب تسمية هذه المجموعة من البشر باسم البربر، ويمكن تقسيم هذه الآراء إلى قسمين: قسم يعتمد على تفسيرات لغوية، وقسم آخر يعتمد على ناحية النسب والأصل.

لم يواجه العرب فى فتحهم للبلدان الواقعة تحت الاحتلال البيزنطى، أصحاب البلاد الأصليين، إلا فى المغرب فقد تمت مواجهة ليست بالهينة بين العرب والبربر فاشتد الصراع، وتسبب هذا، مع أسباب أخرى، فى طول المدة التى استغرقها الفتح، ووجد صراع آخر فى القرن الثانى الهجرى بين

الحاكمين والمحكومين فى هذه الأرض البعيدة، كل هذا يرشح ضرورة توضيح الخطوط العريضة لشخصية البربرى.

وقد زاد صعوبة هذه المواجهة وخطورتها أنها مواجهة الند للند، بل مواجهة المرء لشبيهه، فالبربر أشبه الناس بالعرب، ودماء البربر، ثابت أنها اختلطت بدماء سامية، وهناك من العلماء المحدثين من يحاول أن يقرر أن جزءا كبيرا من مكونات هذا الشعب وفدت إليه من شبه جزيرة العرب، وطبيعة الحياة البربرية فى جملتها، فيها بعض الشبه بطبيعة الحياة العربية، فقسم منها متحضر، وقسم منها بدوى، ويهمنا هنا التركيز على القسم البدوى فى البربر، فهو القسم الذى لم يحمل فى نفسه آثارا تذكر لمؤثرات غربية عنه بعيدة من حيث الزمن أو قريبة معاصرة للفتح الإسلامى، أى تأثيرات المحتلين البيزنطيين.

وقد خص ابن خلدون السمات الخلقية للبربر بفصل من الجزء السادس من كتابة العبر، هو الفصل الثالث من الكتاب الثالث الخاص بأخبار البربر، وعنوان هذا الفصل كاف لإظهار ما فيه، وهو: (الفصل الثالث فى ذكر ما كان لهذا الجيل قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية، والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقى العز ومعارج السلطان والملك).

يصفهم ابن خلدون فيه بأنهم مرهوبو الجانب، شديدو البأس تخلقوا بالفضائل الإنسانية من خلق وعز وكرم. وأنقل من هذا الفصل جزءا يسيرا يقول ابن خلدون: "وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية، وتنافسهم فى الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومراعاة المدح والثناء من الخلق، من عز الجوار، وحماية النزيل، ورعى الأذمة، والوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره والثبات فى

الشدائد وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب، والتجافى عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة وإباية الضيم، ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصر دينه، فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعة من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، أن قادتهم إلى مراقى العز، وأوفت بهم على ثنايا الملك، حتى علت على الأيدى أيديهم، ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم"

ومفتاح شخصية هذا البدوى البربرى هو تمسكه بحريته، يدافع عنها بإصرار، وتاريخه ينبئ عن هذا، ومقاومته معروفة ضد الرومان والبيزنطيين، نجحت أحيانا فى بعض مناطق فتأسست على أساسها دويلات بربرية مستقلة، ولم يثن البربر عن ثورتهم، طول فترة الثورة، ولا التضحيات بالروح والمال.

وقد لقى الفتح الإسلامى من البربر أول الأمر مقاومة واضحة، عندما تصور البربر – خطأ– أن الفتح لايعدو أن يكون حلقة فى سلسلة الاحتلالات، لكن البربر أنفسهم، بعد أن اعتنقوا الإسلام عن حب واقتناع، تحولوا إلى أكبر دعاة له بشتى الأساليب، وفتح الأندلس على يد جند من البربر دليل طيب على هذا.

إن الاقتناع هو المفتاح الثانى لهذه الشخصية، ومن ثم لا نجد غرابة ولاتناقضا فى أن يميل البربر إلى الحضارة الإسلامية بعد تمام الفتح وبعد أن حظوا باستقلال سياسى فى القرن الثانى الهجرى، فإذا عرف هذا، أمكن الرد على ما يدعوه جوليان بالتناقض الغريب، فى قوله: "وهكذا يبدو التناقض

الغريب المتمثل فى أن البربر، فى الوقت الذى تحرروا فيه سياسيا، تأثروا عميق التأثر بالحضارة السامية، وحاولو لأول مرة منذ بدء التاريخ على ما يظهر أن يتمشرقوا"(٤)، ذلك - من وجهة نظرنا- لأن البربر اقتنعوا بالإسلام.

إن الميل إلى الحرية والاقتناع، سبب أساسى لكثرة ثورات البربر قبل الإسلام وإبان أوائله (ونرى نماذج لهذا أيضا فى العصر الحديث فيما فعله المغاربة فى المغارب الثلاثة- حسب التقسيم الذى نسير عليه- من مقاومة الاستعمار الايطالى والفرنسى والاسبانى) مما حدا بمستعمريهم أن يصفوهم "بحب الفوضى وعدم الرضوخ"

هنالك قضية مهمة نختم بها هذا القسم، ذلك أن البربر البدو، شأنهم شأن البدو فى معظم الأحوال كانوا لا يميلون إلى حكومة مركزية، وكان العامل القبلى واضحا، بحيث يصعب اختيار رئيس على مجموعة قبائل متجاورة، ومن هنا، ولسببب آخر سنذكره فى موضعه، مال بعض البربر إلى رؤساء من غير تجمعاتهم السكانية، يقول جوليان:" ويظهر اننا بإزاء أشد خاصيات تاريخ المغرب عراقة وهى معارضتهم الشديدة للأوامر الصادرة لهم من ذويهم وعزيمتهم الفولاذية فى تشديد المراقبة على كل من يتقلد الحكم منهم"(٥)

هذا هو البربرى فى مجتمعه القريب من المجتمع البدوى العربى أما المرأة البربرية، فيبدو أنها قامت بدور كبير داخل الأسرة لانشغال الرجل

٤- تاريخ افريقيا الشمالية جـ ٢ ص ٥٣ ويطلق جوليان مصطلح الحضارة السامية، والمصطلح الذى أميل إليه هو الحضارة الإسلامية التى شملت إنجازات حضارية لعدة أجناس.

٥- تاريخ افريقيا الشمالية جـ ٢ ص ٣٩٢ وسيظهر فى فصل تال مؤثر أكثر وضوحا من العامل القبلى.

بالترحال أو بالقتال بيد أن هذا الدور تضخم فى بعض التجمعات البدوية البربرية، فنالت المرأة الحظوة الكبرى، وذلك فى بعض البطون الصنهاجية ساكنة الصحراء والتى أطلق عليها قبائل الملثمين (مثل كدالة ومسوفة ولمتونة). كما كان يحدث أحيانا انتساب الولد لأمه، "ويتوارث مع أخواله لا مع أعمامه"(٦)

مكانة كبيرة تلك المكانة التى احتلتها المرأة البربرية ابان الفتح، وطبيعى أن تحظى مع الإسلام بالمكانة اللائقة وكانت فى التاريخ السابق تحظى بمثل ذلك، وهذا هو جوستاف لوبون يقول:

"والمرأة البربرية على جانب عظيم من الحمية، فهى تحارب أحيانا بجانب زوجها، فخلد هوميروس ذكراها حين قص علينا خبر تلك الملكة والنسوة المترجلات اللاتى فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى، ومن النساء البربريات من على عرش الملك"(٧)

٦- دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ١ ص ٧٥.

٧- حضارة العرب ص ٣٠٧

الباب الأول

المغرب من الفتح إلى نهاية عصر الولاة

الفصل الأول

الفتح الإسلامى

الفصل الأول

الـفـتـح

عرف الإقليم، أو أجزاء منه، العرب المسلمين الفاتحين، مدة طويلة من الزمن، بدأت حوالى سنة ٢٢هـ، وامتدت بعد ذلك إلى أن تمت آخر خطوات الفتح، أول العقد الأخير من القرن الأول الهجرى، حيث صار إقليم المغرب إقليماً إسلامياً، يمثل الجناح الغربى الإسلامى، وتعتبر هذه الفترة من أكبر الفترات التى استغرقها فتح إسلامى لمنطقة أخرى.

ويعتبر فتح المغرب، من زاوية من زواياه، امتداداً لفلسفة الفتوحات الإسلامية، أو استراتيجيتها العسكرية، فإذا كان الصراع قد بدأ فى الشام ضد القوى البيزنطية، فلا بد أن يقف هذا الصراع عند حدود فاصلة آمنة، ولأن طبيعة الأرض من الشام إلى المغرب متصلة لا يفصلها حد جغرافى مانع، ولأن العدو واحد فى هذه المنطقة الشاسعة، فكان لابد أن يواجه العرب المسلمون عدوهم البيزنطى فيها، ولم يكن بد إذاً من ضرورة فتح المغرب، لتأمين ما سبق فتحه، وللقضاء على العدو المتوثب، تحقيقاً للاستراتيجية العسكرية الإسلامية المشار إليها آنفاً.

لقد نظر المسلمون إلى ما يلى مصر غرباً، فوجدوا أن البيزنطيين سيطروا تقريباً على الساحل المغربى كله، كما سيطروا على عدة مدن أخرى داخلية، مثل سبيطلة، وبعض بلاد الجريد، فوجب على المسلمين إذاً اتقاء خطر هذه القوة، وتأمين الحد الغربى لمصر.

ويمكن تقسيم الفتح الإسلامى للمنطقة إلى عدة مراحل:

١- مرحلة ما قبل القيروان

٢- مرحلة القيروان

٣- مرحلة تمام الفتح

وفيما يلى كلمة موجزة عن كل مرحلة من المراحل الثلاثة السابقة.

أولاً: مرحلة ما قبل القيروان:

ما أن أنهى عمرو بن العاص فتح الاسكندرية، حتى نظر إلى الجانب الغربى، وواصل السير غرباً إلى أن وصل برقة وذلك أواخر سنة ٢١هـ، وكان عمرو يعلم أن برقة، داخلة فى الحد السياسى لمصر البيزنطية، فها هو ذا يجيب بأنه ليس لأهل مصر عليه من صلح سوى ما كان لأهل برقة[١]، ولذا أقدم على فتحها، لأنه يعتبرها مصرية[٢]، وبهذا يمكن إخراج فتح برقة من فتوح إفريقية واعتبار فتحها إتماماً لفتح مصر، ووقوفاً عند حدها الغربى.

وكان لا بد من تأمين الحد الغربى للفتح الجديد، ريثما يحين الأوان لمواصلة الفتح، وللقضاء على قوة البيزنطيين فى ذلك الجانب.

١- هناك اشارة إلى أن عهداً أخذه أهل برقة من عمرو بن العاص، يظهر هذا فيما نقله البلاذرى عن لهيعة، عن إبراهيم بن محمد، عن انوب بن أبى العالية، عن أبيه، قال : سمعت عمرو بن العاص يقول على المنبر : لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت، إن شئت خمست، وإن شئت بعت، إلا أهل انطابلس، فإن لهم عهداً يوفى لهم به" (ص٢٥٤).

٢- كانت برقة تابعة لمصر من أيام الاحتلال الرومانى والبيزنطى، واستمرت تحت الإدارة المصرية مدة طويلة أيام الخلفاء الراشدين، فالدولة الأموية، ومدة طويلة من الدولة العباسية.

وكانت خطة عمرو بن العاص فى هذا- على ما يبدو- تقوم على محورين: المحور الأول إقامة حاجز وقائى، والمحور الثانى هو إظهار القوة، لقوة البيزنطيين فى الغرب.

ولتحقيق المحور الأول، أمر عمرو بن العاص عقبة بن نافع أن يواصل تحركه من برقة حتى زويلة، فأصبحت هذه المنطقة تخضع للمسلمين، بصورة أو بأخرى، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين[٣]، بمثابة حاجز وقائى يمنع الهجمات ضد مصر من جهة المغرب.

وأما محور إظهار القوة ضد البيزنطيين، فقد تمثل فى تطلع عمرو بن العاص إلى داخل إفريقية، ولم يكن هنالك مدينة كبيرة أقرب إليه من مدينة طرابلس، فكان تركيز عمرو بن العاص عليها.

ويؤرخ لتوجه عمرو بن العاص لفتح طرابلس بتاريخين، أحدهما سنة اثنتين وعشرين، والآخر عن الليث بن سعد أنه تم سنة ثلاث وعشرين.[٤]

والغالب على الظن أن السنة الأولى (سنة ٢٢هـ) هى الأقرب، لأن عمراً كان عليه سرعة تأمين الحد الجغرافى لمصر فما كان هناك فائدة من الانتظار، فأسرع ناحية طرابلس بنهاية فتحه لبرقةه، وقد اختار البلاذرى هذه السنة قال:

"سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس فى سنة اثنتين وعشرين"[٥].

٣- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٠

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٠ -٢٣١

٥-البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٦٦، وهو أيضاً اختيار ابن الأثير: الكامل جـ٢ص ٤٢٨

وعسكر عمرو بالقرب من المدينة، فى مرتفع من الأرض يقع شـرقيها، يشرف منـه علـى الميناء والأسوار، حيث كـانت الأســوار تغطـى الناحيـة المواجهة لليابسة، فى حين لم يكن يدور على المدينــة سور من ناحية البحر "وكان البحر ملاصقاً لسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور".

وبقى عمرو محاصراً المدينة مـن ناحيـة البر فقط مدة شـهر، دون أن يؤثر هذا فى المدينة أثراً ذا بال، لخلو جهة البحـر من الحصـار، وبذا يسـهل إمداد المدينة، بما تحتاجه، وكان عمرو خلال هذه الفترة يرسل العيون تحـاول تحسس طريق للمسلمين إلى داخل المدينــة ونجحت إحدى سرايا الاستطلاع هذه فـى التوصل إلـى عـورة، وكـانت فرجـة بين البحـر والبر، نتجت عن تحركات البحر بين مد وجزر، وكان الوقت ظهراً والحر شديداً، ومـن بداخـل طرابلس يظن أنه آمن، فدخل سبعة النفر، أفراد سرية الاستطلاع، إلـى داخـل الأسوار، ولمحهم عمرو بن العاص من المرتفع الذى كان معسكراً فيـه، فـأمر جيشه بالهجوم، وتم تحقيق مفاجأة عسـكرية جيـدة ضـد البيزنطيين، الذيـن لـم يجدوا فرصة لتنظيم المقاومة، بل هربوا إلى سـفنهم "فلـم تفلـت الـروم الا بمـا خف لهم فى مراكبهم، وغنم عمرو ما كان فى المدينة"(٦).

وواصل عمرو- بعد نجاحه هذا- سياسة إظهار القوة، فتابع السير نحـو مدينة أخرى هى مدينة سبرت، كانت ظنت أنها بمأمن من الفتح لما اسـتعصى على عمرو فتح طرابلس، ولكن عمراً بعد نجاحـه فـى فتـح طرابلـس، أسـرع يغتنم الفرصة، مستفيداً من عامل الزمن للمفاجأة، وأرسل "خيـلاً كثيفـاً" لمدينـة سبرت، وأهلها غافلون يظنون أنهم بمأمن مـن قـوة عمـرو، فصـادف وصـول

٦- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣١

قوة الخيل إليها أن أبوابها مفتوحة لتسريح الماشية فدخلها المسلمون"، واحتوى جند عمرو على ما فيها، ورجعوا إلى عمرو"[٧].

وكما تمكن عمرو من فتح سبرت، فتح أيضاً مدينة ثالثة هي مدينة ودان، بسرية قادها بسر بن أرطاة.

وبهذا يكون عمرو قد نجح بوضوح في تأمين الحدود الغربية لمصر الإسلامية. ولكن هل يكتفي عمرو بهذا، وهو المشهور بحب الفتوح؟

لقد نظر عمرو بشغف إلى افريقية، بعد أن اختبرها بالفتوح والسرايا وجاس خلال حدودها، إبان فتوح طرابلس وما حولها، فأسرع يرسل إلى عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين، يستأذن في فتح افريقية.

وتحفظ لنا كتب التاريخ نص الرسائل المتبادلة بين عمرو وعمر، ينقل ابن عبد الحكم عن عبد الملك بن مسلمة عن أبي لهيعة عن ابن هبيرة عن أبي تميم الجيشاني نص رسالة عمرو يقول فيها:

"إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه، فعل"[٨].

٧- نفسه

٨- فتوح مصر والمغرب ص٢٣٢ . وما أدري ماذا يقصد عمرو بأن طرابلس تبعد عن إفريقية بتسعة أيام؟ فهل قصد انها خارجة عن الحد، أما أنه قصد ابتعادها عن قاعدة إفريقية (قرطاجنة) بهذا القدر من الأيام؟ وما أظن إلا أن الأمر الثاني أرجح وأقرب.

وخطاب عمرو ذا يدل على انضباط العلاقـة بين الرئيس والمرءوس، ويدل على مركزية الأوامر الخاصة بالجهاد، فما كان عمرو ليصدر عن رأيه دون الاستعانة بأمر الخليفة.

ولما وصل خطاب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر، سمعه جالسوه يقول: "افريقية.. المفرقة، المفرقة، لا أوجه إليها أحداً ما مقلت عينـى المـاء"(٩)، ورد على خطاب عمرو رافضاً فكرة الغزو بالرسالة التالية:

"إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"(١٠).

وموقف الخلافـة هنـا متسق مع إحساس الخليفـة بالمسئولية، ومتفـق ومجريات الأحـداث، فمـا زالـت مصـر حديثـة عهـد بـالفتح، وخـط الإمدادات سيطول جداً، وربما تعرض فى فترة أو أخرى لخطر القطع أو التأخر.

وقد أثبتت الأحداث أن الوقت لم يحن بعد، فقد وصل إلى علم عمرو مـا يدور فى مصر، من محاولة بعض البيزنطيين نكث العهد،وأنه من الضرورى أن يعود إلى مصر، فاكتفت سياسة الفتح فى تلك الفترة بإرسال البعوث الخفيفة السريعة، للتذكير بين حين وحين بقوة المسلمين.(١١)

وباكتمال هذا المحور الثانى، أعنى محور إظهار القوة، عاد عمرو إلى مصر، وقد حقق هدفين مهمين:

٩- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٢

١٠- نفسه.

١١- يشير ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٢ إلى ذلك بقوله: "وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل، فيصيبون الغنائم، ثم يرجعون".

أولهما تأمين الحد الغربى لمصر من القوى البيزنطية بالغرب، وثانيهما عرك أمر الإقليم واختباره، وإشعار أهله أنهم ليسوا مطلوبين، وأن الغرض الرئيسى إنما هو العدو، أعنى البيزنطيين.(١٢)

ويبدو أنه نجح جيداً فى تحقيق هذين الهدفين، والدليل على ذلك هو عدم وجود إشارة ذات بال إلى مقاومة بربرية لهذه التحركات العسكرية، ويبدو أن معظم البربر مالوا إلى الانتظار والمراقبة إلى أن تتضح لهم كل الأمور.(١٣)

وعاد عمرو إلى مصر، وتوقفت أعمال الغزو إلا من عدة سرايا صغيرة- كما مر- من هذا الوقت إلى سنة ٢٧هـ، حيث كان عمر - رضى الله عنه- قد توفى سنة ٢٣هـ وكان على المسلمين انتظار أوامر الخليفة الجديد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وحتى يتحقق ذلك واصل عبد الله بن سعد بن أبى سرح، والى مصر الجديد، سياسة عمرو بن العاص فيما يمس الناحية الغربية، فاستمرت السرايا أيضاً، وإلى ذلك يشير ابن عبد الحكم بقوله: فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح، كان يبعث المسلمين

١٢- بيد أن هناك إشارة إلى أن الروم (البيزنطيين) بعد أن فتح عمرو بن العاص برقة، استعانوا بقبائل نفوسة من البربر الذين يصفهم بأنهم "كانوا قد دخلوا فى دين النصارى" مما يشير الى تحالف بيزنطى بربرى مبكر جداً، وإلى تدخل بربرى، لكنه محدود. (انظر المرجع السابق)

١٣- فمن هذا المقام، يمكن أن ندرج الصراع العربى الإسلامى ضد البيزنطيين، فى منطقة برقة وطرابلس، إبان فتح عمرو بن العاص لها، ضمن الصراع الإسلامى البيزنطى على مصر.

في جرائد الخيل، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون.[١٤]

وواضح أن من بين أغراض هذه السرايا، أو الجرائد، التأكد من أحواز مصر الغربية، ورصد المتغيرات على الحدود، ومراقبة القوى البيزنطية المعادية.

فتوح افريقية

أ- مرحلة عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

كانت الخطوة السابقة من عمليات عسكرية في طرابلس، وأحوازها، وأحواز برقة -كما سبق أن قررنا- إظهاراً لقوة المسلمين وتأكيداً وتأميناً لفتح مصر وحدها الغربي.

ويمكن للباحث أن يلحظ في الفترة التي وقعت بين عودة عمرو من طرابلس، والتفكير في إعادة غزوها ثم التفكير في غزو إفريقيةعلى عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح- يمكن ملاحظة ان البيزنطيين قد جمعوا أمرهم وبدأوا في الغزو المضاد، أو محاولة أخذ ما فتحه المسلمون، ويمكن أن نلحظ كذلك استمرار هذا الأمر إلى ما بعد الزمن المشار إليه بوقت غير قصير، بل يمكن التأريخ لبدء هذه الفترة بمحاولة البيزنطيين أخذ الاسكندرية.[١٥]

١٤- فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٦

١٥- راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٢٣٥ - ٢٣٨ ، ولاحظ إصرار البيزنطيين على الهجوم في معركة ذات الصواري وغيرها.

إن مواجهة جديدة بين المسلمين والبيزنطيين لا بد أن تستأنف، يكون ميدانها الجناح الغربي، وستطول مدتها عدداً من السنين، إلى أن يتمكن المسلمون في نهايتها من تخضيد خطر هؤلاء البيزنطيين فترة من الزمن.

وطبعي أن يكون أول من يحس بخطر البيزنطيين هي ولاية مصر الإسلامية، ممثلة في واليها الجديد المعين بعد عزل عمرو عنها، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

ونقل عبد الله بن سعد إلى مركز الخلافة ما أحس به من خطر في رسالة غاية في الأهمية، أشار إلى بعضها المالكي إذ يورد شكوى ابن أبي سرح من البيزنطيين ، وغلبهم وقرب جندهم من المسلمين(١٦)

ويزيد ابن عبد الحكم على هذا إشارته إلى استئذان عبد الله بن سعد الخلافة في ضرورة غزو هذه الناحية من المغرب: "فكتب في ذلك عبد الله بن سعد إلى عثمان، فأخبره بقربهم من حوز المسلمين، ويستأذن في غزوها.(١٧)

في حين يزيد ابن الأثير طلب ابن أبي سرح الاستكثار من الجموع عليها.(١٨)

١٦- رياض النفوس صـ ٨-٩.

١٧- فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٦

١٨- انظر الكامل جـ ٣ ص ٨٩

اذن فالشكوى واضحة فى المصادر الثلاثة من قرب البيزنطيين، وخطرهم، وضرورة الاستكثار من الجند المسلمين، وضرورة القيام بضربة وقائية، تدفع عن المسلمين هذا الخطر البيزنطى بإفريقية.

وأمام مشكلة كهذه لجأ عثمان إلى الشورى، ويوجز ابن عبد الحكم الأمر بقوله: "فندب عثمان الناس لغزوها، بعد المشورة منه فى ذلك"(١٩) فى حين يفصل النويرى الأمر موضحاً من الذى استشاره عثمان، ومن الموافق، ومن المخالف، وما سر معارضته، لقد استشار عثمان معظم الصحابة من أهل الحل والعقد، وجلهم وافق، إلا أن أبا الأعور سعيد بن زيد كره ذلك، ويعتمد فى رفضه هذا على سبق رفض هذا الأمر أيام خلافة عمر بن الخطاب، ووجه أبو الأعور كلمة جامعة لعثمان. قائلا: "ولا أرى لك خلاف عمر"(٢٠).

١٩- فتوح مصر ص ٢٤٦

٢٠- نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق د. حسين نصار، جـ ٢٤ ص ٨، ويصور أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم فى كتاب طبقات علماء افريقيه ص ١١-١٢ ما أصاب عثمان عندما بلغه كتاب عبد الله فى أمر غزو إفريقية، وكيف أنه انفرد فى المسجد بليل يتعبد، ويتفكر، ويفكر، وكيف أنه استشار علياً، وطلحة، والزبير، والعباس، وسعيد بن زيد أبا الأعور فجمعوا له رجلاً رجلاً، "فلم يزل جالساً يشاورهم حتى متسع النهار، ثم قام إلى بيته فتفرقوا" ثم استدعى أبا الأعور وحده ليعرف سبب اعتراضه، ثم شاور بعد ذلك زيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة، ثم قال عثمان بعد هذا كله: " قد نهج لى رأيى، فندب الناس إلى غزو إفريقية".

إن عثمان - رضى الله عنه - فى هذا نموذج ومثال للحاكم المسلم فى خوفه على المسلمين، وحرصه على صالحهم، وفى سيره على منهج الشورى، وفى بذل غاية الجهد فى كل مسألة، حتى يتضح له الرأى.

اعتمد أبو الأعور، الممثل للمعارضة هنا، على مبدأ دستورى هـو عدم مخالفـة أمـر للخليفـة السـابق، فـى حيـن نظـرت الأغلبيـة، وراعـت المصلحـة العامة، وهو أمر مقدم، فأشاروا بإنفاذ الجيش.

وحرص عثمان على كمال الحشد(٢١)، وقد أطلق على هذا الجيـش اسم جيش العبادلة(٢٢)، لكثرة من خرج فيه من الصحابـة والتـابعين، ممـن تسـموا باسم عبد الله أو عبد الرحمن.(٢٣)

وواصل عثمان مسئولياته أميراً للمؤمنين، ومسئولاً عن الجنـد، فـأخرج للجند أعطياتهم، وفرق فيهم السلاح، وأمدهم بالخيل كما قام بدور شخصى فى الجهاد، بأن جاهد بأمواله، مثلما كان يفعل لجند غزوات رسول الله صلى اللـه

٢١- وقد خرج فى هذا الجيش عدد كبير من بنى هاشم وبنى تميم وبنى عدى، وبنى أسد بن عبد العزى، وبنى سهم، وجماعة من بنى أمية، وعدة من بنى زهرة، وعدد من بنى هذيل، وخرج من جهينة ٦٠٠ رجل، ومن أسلم ٣٠٠ رجل، ومن مزينة ٨٠٠ رجل، ومن بنى سليم ٤٠٠ رجل، ومن بنى الدليل وضمرة وغفار ٥٠٠ رجل، ومن غطفان وأشجع وفزارة ٧٠٠ رجل، ومن كعب بن عمرو ٤٠٠ رجل. انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص ٨-١٠

٢٢- انظر : النويرى، نفسه ص ٧-٨

٢٣- مثل عبد الله بن عباس و عبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبيد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعبد الله بن أنس، وعبد الرحمن بن صخر (انظر النويرى ص ٨-٩)

وقد شك الأستاذ الدكتور حسين مؤنس فى سرد هذه الأسماء وأوعز وجودها إلى حرص مؤرخى المغرب على الاكثار منها لما فى كثرتها من تعظيم لشأن إفريقية (انظر كتاب فتح العرب للمغرب ص ٨١). نعم ربما كانت هناك مبالغة من قبل مؤرخى المغرب، ولكن يلاحظ الباحث أن كتب المشرق شاركت هى الأخرى فى سرد هذه الأسماء.

عليه وسلم، إذ "أعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله، فحمل عليها ضعفاء الناس " رضى الله عنه، وخطب فيهم، وحثهم، ورغبهم فى الجهاد، وكان ذلك فى المحرم سنة سبع وعشرين[٢٤]، وكان قائد هذا الجيش إلى أن يصل إلى مصر هو الحارث بن الحكم.

وبوصول هذا الجيش إلى مصر، وبانضمام جند مصر إليه أصبح تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح جيش كثيف، وصل إلى عشرين ألفاً[٢٥]، ثم زاد أثناء العمليات العسكرية بجند قوامه اثنا عشر ألفاً أرسلهم عثمان مدداً.[٢٦]

وكان المتوقع أن يخرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى غزوة فاتحة تضم إفريقية إلى مصر، وتكون انطلاقة لمزيد من الفتوح تجاه الغرب، ولكن يبدو أن خطة الجهاد فى هذه الفترة وظروف القتال جعلت غاية هذه الغزوة تتركز على ضرب القوات البيزنطية، التى تجمعت وقوى أمرها فى هذه المنطقة، على حساب بعض ما حققه المسلمون من سابق نصر، وخاصة فى طرابلس.[٢٧]

أما مجريات الأمور، وخريطة الأحداث، فيمكن تلخيصها فى أن البيزنطيين كانوا قد مدوا سلطانهم على مناطق كبيرة، منها طرابلس، وقابس،

٢٤- النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٠

٢٥-ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٤٧

٢٦- النويرى : المرجع السابق ص ١٢

٢٧- وجد المسلمون أن طرابلس قد استولى عليها البيزنطيون وتحصنوا بها، انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١١

وغيرهما، وأنهم ركزوا قوتهم فى منطقة داخلية فى سبيطلة، اتخذوها مقراً وقاعدة لهم بدل قرطاجنة وكان رئيسهم يدعى جريجريوس(٢٨)

وعلى الرغم مما قيل من أن جريجريوس هذا قد استقل عن حكم البيزنطيين، إلا أن الأمر والواقع لا يمنعان الدولة البيزنطية من معاونة عاملها السابق ضد من يعتبرونهم عدوهم الأول، أعنى المسلمين، ومن هنا يمكن تصور الأعداد التى يضمها جيش جريجريوس(٢٩)، ولكن ضخامة جند جريجريوس، ربما ترجع إلى أنه بميله عن قرطاجنة، قاعدة الإقليم ،إلى سبيطلة، فى الداخل، أراد أن يستألف عدداً من البربر ليعاونوه ضد القوات الإسلامية.

وكان البيزنطيين أرادوا تعطيل القوات الإسلامية وشغلها بعمليات جزئية ضد حصن أو آخر، ولكن الواقع أن ابن أبى سرح لم يقع فيما أراده البيزنطيون، من صده وتعطيله عن زحفه تجاه مركز تجمع قواتهم فى سبيطلة، حتى ولو كان هذا فى سبيل أخذ مدينة مثل طرابلس، وقد نصح عبد الله بن سعد مستشاروه، فاستمع إليهم، وتوجه إلى حيث التجمع البيزنطى، إلى القوة التى يريد القضاء عليها، أو تخضيد شوكتها، وفل قوتها، فزحف ابن أبى سرح إلى سبيطلة.

٢٨- ورد اسمه فى معظم المصادر الإسلامية على أنه جرجير، كما أورده اليعقوبى فى تاريخه جـ ٢ ص ١٦٥ على أنه جرجيس.

٢٩- أوصله ابن عذارى فى البيان المغرب جـ ١ ص ٩ إلى مائتى ألف، وذكر النويرى فى المرجع السابق نفسه أن جيش جريجريوس وصل إلى عشرين ومائة ألف، وواضح أن على القارئ أن يأخذ هذه الارقام ببعض التمحيص، لظهور عامل المبالغة فيها.

وفى فحص قريب من سبيطلة دار القتال عدة أيام ووصل المدد الإسلامى، وكان القتال يدور يومياً إلى وقت الظهر ثم يرجع الفريقان إلى معسكر كل، ثم فجأة غير المسلمون خطتهم، بأن حجزوا عدداً من الأبطال دون قتال ليواصلوا هم القتال عندما يتوقف الفريقان عن العمليات العسكرية ويعودان إلى معسكريهما، وحينذاك يخرج هذا الفريق المستريح ليهجم على القوات البيزنطية التى بدأت فى الراحة، فكان النصر للمسلمين، وانهزم البيزنطيون، وقتل رئيسهم، وفقدوا عدداً كبيراً من القتلى، وخسروا مالاً جماً، وانهزم فلهم إلى مدينة سبيطلة، غير أن المسلمين واصلوا مهاجمة القوات البيزنطية، فحاصروها، وفتحوا سبيطلة، فأصابوا غنائم كثيرة، ولم يكتف ابن أبى سرح بهذا، بل بث سراياه هنا وهناك،" فأذلت تلك الوقعة من بقى من الروم.(٣٠)

وانتهت هذه الغزوة بإقامة صلح على شروط مالية بالغ فيها المؤرخون المسلمون.(٣١)

واستغرقت هذه الغزوة وقتاً طويلاً، بدأ بالتجهيز لها أول سنة ٢٧هـ وانتهى سنة ٢٩هـ، عندما عاد عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى مصر، دون أن يستثمر نتائج انتصاره الفائق فى سبيطلة وما حولها، ولو فعل لأمكنه

٣٠- انظر تفاصيل هذه الموقعة فى النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١١ - ١٦.

٣١- قيل إن الصلح تم على ثلاثمائة قنطار من الذهب، وقيل على ألفى ألف وخمسائه ألف (أنظر النويرى: نفسه ص ١٦- ١٧) وقيل على مائة ألف رطل ذهب (انظر المالكى: رياض النفوس جـ ١ ص ١١) غير ما غنم المسلمون من أموال ضخمة.

ضرب المغرب الأدنى ببعض يسر، ولكن عودته إلى مصر يمكن أن تفسر بعدة أسباب:

أ- طول مدة غيابه عن مصر، وطول المدة التى أقامها جنده فى الإقليم (حوالى سنة وبعض السنة)(٣٢).

ب- عدم تأمين خطوط الإمداد لو طالت عن هذا الحد.

جـ- عدم اتخاذ قاعدة للمسلمين فى افريقية(٣٣).

د- تجمع بعض القوى البيزنطية على الساحل والنواحى الشمالية لمحاولة ضرب القوة الإسلامية (٣٤).

تبقى نقطة جديرة بالتفصيل: من هم الذين صالحهم ابن أبى سرح؟ هل هم البربر أو البيزنطيون؟

٣٢- قدرها المالكى فى رياض النفوس جـ ١ ص ١٧ بسنة وشهرين، فى حين قدرها النويرى فى نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٨ بخمسة عشر شهراً.

٣٣- أشار البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٦٨ الى أنه " لما صالح عبد الله بن سعد بطريق إفريقية، رجع إلى مصر، ولم يول إفريقية أحداً، ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع" كما أشار ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ص ٢٤٦- ٢٤٧ إلى أنه "رجع إلى مصر، ولم يول عليهم أحداً ولم يتخذ قيرواناً".

٣٤- إن استجابة ابن أبى سرح لطلب الصلح، لن تكون مستغربة، إذا علم أن البيزنطيين استعدوا لإرسال أسطول إلى المنطقة، بعد أن بلغهم نبأ هزيمة جريجريوس، فى موقعة سبيطلة هذه (انظر المالكى: رياض النفوس جـ ١ ص ١٧) إن رد الفعل البيزنطى السريع هذا، لابد أن تكون أنباؤه وصلت إلى ابن أبى سرح، فاتخذ قراره السريع والصحيح بقبول طلبهم الصلح والعودةإلى مصر مؤثراً السلامة، وعدم التعرض لحملة بيزنطية قادمة إليه، وهى مستريحة، وجنده قد أمضوا مدة طويلة فى ميادين القتال.

إن هنالك إشارة عابرة فى نص البلاذرى المنقول فى الهامش السابق، تنص على أن عبد الله بن سعد، صالح (بطريق إفريقية) يعنى بذلك رئيس البيزنطيين.[٣٥]

وينبغى التركيز هنا على أن هذه الغزوة كانت تستهدف البيزنطيين وأن معظم تعاملها كان معهم، بعكس الحملات الأولى التى قام بها عمرو بن العاص على برقة وطرابلس، كما ينبغى تذكر أن قبضة البيزنطيين على طرابلس قد ضعفت، وأن المسلمين عادت اليهم سيطرة ما على هذه المدينة من غير أن نزعم أنهم أتموا فتحها، أو جعلوها مصراً إسلامياً .

ويلاحظ فى مقام الصراع البيزنطى الإسلامى أن من أهم نتائج معركة سبيطلة هذه:

١- فزع البيزنطيين، والتجاء أكثرهم إلى الحصون.[٣٦]

٢- طلب البيزنطيين الصلح مع ابن أبى سرح، وعرضوا فى سبيل هذا الصلح كمية ضخمة من الذهب على أن يعود جيش المسلمين إلى حدود مصر.[٣٧]

٣٥- يشير المؤرخون إلى أن اسمه جناحة (انظر النويرى المرجع السابق ص ١٩) أو صاحبة (انظر ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١١)

٣٦- يقول ابن أبى دينار فى المونس ٢٧ص : "ذلت الروم بإفريقية، والتجأ أكثرهم إلى الحصون، وداخلهم الرعب"

٣٧- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٨٥.

ب- مرحلة معاوية بن حديج

بعد غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكبرى، يلحظ القارئ ركوداً أو توقفاً فى حركة الجهاد والفتح، ويرجع كثير من الدارسين هذا التوقف إلى ما أصاب العالم الإسلامى من أزمات أواخر خلافة عثمان، والفتنة التى انتهت بمقتل الخليفة، وتولى خليفة جديد، وما صادفه على بن أبى طالب أمير المؤمنين من خلافات وأزمات، وصراع عسكرى.

نعم تلك ظروف غاية فى القسوة، والصعوبة، ولكن الجهاد فوق هذا جميعاً، وصالح المسلمين، وحدود الدولة الإسلامية، فوق تلك الظروف أيضاً.

ومن هنا يمكن للدارس تصور- حتى فى غيبة النصوص التاريخية- أن حركة الجهاد ما كانت لتتوقف والثغور تنادى، والعدو يتوثب.

يمكن- إذاً- أن نتصور أن عمليات عسكرية- محدودة أو كبيرة- كانت تتم بين وقت وآخر، تمشياً مع المقولة التى بدأتها قبل، وهى ضرورة حماية الحد الغربى لمصر التى ثبت فتحها من جهة، وحماية المكاسب التى حققها المسلمون غربى مصر من قبل، من جهة أخرى.

ومع تأكيدى على أننا لسنا الآن فى مجال الفرضية النظرية، فإنه يمكن التأكد من الافتراض السابق بنصوص تاريخية.

فأما تصور عدم معقولية التوقف عن الجهاد، فيرد عليه نص أورده ابن الأثير، فى معرض مشاورة عثمان سنة ٣٤هـ لعدد من نصحائه (معاوية وعبد الله بن سعد، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر)

فاشار عليه الأخير: " أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد"[٣٨]، ثم يقول ابن الأثير بعد تمام المشاورة: "فرد عثمان عماله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناس فى البعوث"[٣٩].

فالجهاد إذاً نصب أعين الناس، وهو وسيلة- كما فى النص- إلى درء الخطر، بالإضافة إلى جلب المصلحة للمسلمين.

فإذا عدنا إلى كتب المغاربة، وجدنا نصاً مهماً أورده أبو العرب فى كتابه طبقات علماء إفريقية وأنقله كالتالى:

"قال: وحدثنى فرات، عن عيسى بن محمد، عن ابن وهب عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين فى خلافة عثمان، قال وتلك الغزاة لا يعرفها كثير من الناس....."[٤٠]

ونص آخر من كتب الفتوح، أنقله عن ابن عبد الحكم، وهو قريب من النص السابق بالسنة نفسها، مختصراً قال:

"... قال: غزا معاوية بن حديج إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين قبل مقتل عثمان، وأعطى عثمان مروان الخمس فى تلك الغزوة، وهى غزوة لا يعرفها كثير من الناس..."[٤١] .

٣٨- الكامل جـ ٣ ص ٤١

٣٩- نفسه ص ٤٢

٤٠- ص ١٥

٤١- فتوح مصر والمغرب ص ٢٦١

وأركز هنا على مافى النصين من إجماع على أن غزوة قام بها معاوية ابن حديج سنة ٣٤هـ، وأن كثيراً من الناس لا يعرفونها، وعلى أنها فى خلافة عثمان، يضم هذا إلى استشارة عثمان عماله ومستشاريه سنة أربع وثلاثين، والوصول إلى نتيجة حاسمة وهى ضرورة مواصلة الجهاد.

بهذين النصين، مع نص ابن الأثير، ومع إضافة الفرضية العقلية- لا بأس-يمكن التأكد من أن غزوة ما، قام بها معاوية بن حديج، فى هذا التاريخ (سنة ٣٤هـ)، ولعلها هى نفسها التى أشار إليها ابن الاثير نفسه فى أحداث سنة ثلاث وثلاثين بقوله: "وفيها كانت غزوة عبد الله بن سعد إفريقية الثانية، حين نقض أهلها العهد"(٤٢).

فلعل عبد الله أمر بهذه الغزوة، أو كاد أن يبدأها ثم انشغل باستدعاء عثمان له، ونفذها من بعد ذلك معاوية بن حديج".

وقد أشارت كتب التاريخ إلى غزوة أخرى لمعاوية بن حديج سنة ٤٥، وسكتت عن الغزوة الثالثة التى أشار إليها النصان السابقان، فهل دخلت الثالثة هذه ضمن ما كان يؤمر به معاوية من بث سرايا وغزوات صغيرة بإفريقية، مثل تلك الغزوات التى جرت سنوات أربعين، وإحدى وأربعين، وثلاث وأربعين، وغيرها، قبل وبعد، مما يمكن أن يكون المؤرخون قد سكتوا عنها، لسبب أو لآخر، لصغر، أو غيره؟!

٤٢- الكامل جـ ٣ ص ٣٠

لقد أشارت كتب التاريخ إلى غزوة شريك بن سمى سنة ٤٠هـ، كان عمرو بن العاص أمره أن يغزو لواتة فغزاهم.[٤٣]

ولكنهم انتقضوا بعد الصلح فأرسل اليهم عمرو، عقبة بن نافع سنة إحدى وأربعين "فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم من سنته، وقتل وسبى".[٤٤]

وفى هذه السنة -إحدى وأربعين- كانت الغزوة الثانية لمعاوية بن حديج، كما أشار ابن أبى دينار[٤٥]، ولعلها هى التى أشارت إليها النصوص السابقة بأنها غزوة سنة أربعين، والتاريخان يتقاربان والتحقيق صعب فى غزوات معاوية بن حديج خاصة[٤٦].

وقد شهدت سنة ثنتين وأربعين غزوة أخرى، قام بها عقبة، ففتح غدامس، وودان، وغيرهما.[٤٧]

كما شهدت هذه الفترة كذلك وفى سنة ثلاث وأربعين، غزوة عقبة لهوارة، وغزوة شريك لبلادة لبدة.[٤٨]

٤٣- يقول المقريزى فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٨٣ عنها "وعقد عمرو لشريك بن سمى على غزو لواتة من البربر، فغزاهم فى سنة أربعين وصالحهم ثم انتقضوا".

٤٤- الكامل جـ ٣ ص ٢٨٢ وانظر المرجع السابق نفسه.

٤٥- انظر المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٢٨.

٤٦- يشير إلى هذه الحقيقة الدكتور إحسان عباس. انظر: تاريخ ليبيا منذ الفتح...... ص ٢٧

٤٧- انظر ابن الأثير: الكامل جـ ٣ ص ٢٨٢ وكذا ابن أبى دينار: المؤنس ص ٣٠.

٤٨- انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٨٣

فهذا نشاط جهادى لا بأس به، وإن لم يكن كبير الأثر، أو ذا نتائج فعالة فى عملية الفتح، لكنه -مع هذا- ذو أهمية بالغة من ناحيتين: الأولى: الاشعار بأن عملية الفتح لم تتوقف، على الرغم مما أصاب الدولة الإسلامية من مشاكل وفتن، والثانية مواصلة- ما أشرت إليه من قبل- من تأمين الحد الغربى لولاية مصر الإسلامية .

إذاً، فقد ثبت بالأدلة النصية- على اختلاف قليل- أن حركة الجهاد لم تتوقف، بصورة، كلية، فى فترة الخلافات التى شهدتها الدولة، أواخر عهد عثمان، وفى عهد على بن أبى طالب، رضى الله عنهما.

يبقى، بعد هذا، إيجاز الدور الذى قام به معاوية بن حديج استمراراً لحركة الجهاد فى المنطقة، استمراراً لعهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح، أو واسطة بين عهد ابن أبى سرح[٤٩] وعهد عقبة بن نافع.

وسنركز هنا على غزوة كبيرة من غزواته الثلاث قام بها سنة ٤٥هـ، ويمكن أن نفهم من كلام النويرى- مثلاً، وإن كنا لن نأخذه على علاته - أن خطرا بيزنطياً جديداً هدد المنطقة[٥٠]، فأرسل معاوية بن أبى سفيان معاوية ابن حديج إلى إفريقية ومعه جيش قوامه عشرة آلاف فيه" عدة أشراف من قريش"[٥١].

وتمكن معاوية بن حديج، فى غزوته تلك، من ضرب عدة مدن مثل: سوسة، وجلولاء، وانتصر، وغنم، ولكن الأهم من ذلك، فى رأيى، هو

٤٩- وإلى ذلك يشير ابن خلدون فى العبر جـ ٤ ص ٢٩٤ بقوله: "ثم كان من بعد ذلك يبعث معاوية بن حديج، فيفتح ويثخن، إلى أن استملك فتح إفريقية".

٥٠- انظر: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٨

٥١- ابن أبى دينار: المونس ص ٢٨

تعرضه للجيش البيزنطى المحمول بحراً، وبلغ عدده ثلاثين ألف مقاتل، "فبعث ابن حديج إليه خيلاً فقاتلوه، فانهزم، وأقلع فى البحر"[٥٢].

ويشير ابن أبى دينار إلى إرسال معاوية بن حديج لعبد الله بن الزبير- وكان فى غزوة افريقية- إلى سوسة لفتحها ومقاتلة من بها من النصارى البيزنطيين، يقول: "وقاتل النصارى الذين بها وظهرت منه شجاعة قوية"[٥٣]، كما فتحت جزيرة جربة فى الوقت الذى تولى فيه معاوية أمور الجهاد.[٥٤]

ولم يكتف ابن حديج بمقاومة البيزنطيين وجهادهم بإفريقية، بل نراه يتخذ خطوة إيجابية طيبة بإخراجه أسطولاً إلى صقلية ليهاجم تجمعاً بيزنطياً وجد بها، وحقق نصراً عسكرياً، وغنم جنده غنائم كثيرة، ثم عاد الجند إلى إفريقية بعد إقامة شهر، وعن هذا يقول ابن أبى دينار: "وأرسل معاوية بن حديج جيشاً فى البحر فى مائتى مركب إلى صقلية، ففتحوها، وسبوا، وغنموا، وأقاموا شهرا، وانصرفوا بغنائم كثيرة"[٥٥].

كما يكتب لمعاوية بن حديج أنه أول من عمل على إقامة معسكر، أو مصر، أو قاعدة دائمة، فى افريقية، واختار لذلك منطقة القرن لتحقيق هذا الأمر، وإن كان رجوعه المبكر إلى مصر سنة ٤٦هـ تقريباً، قد حرمه فرصة

٥٢- النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٠

٥٣- المونس ص ٢٨

٥٤ - انظر نفسه

٥٥- نفسه، ونظرة معاوية بن حديج إلى صقلية من الأمور التى تحسب له، وتدل على فطانة، وسعة رؤية لميدان الجهاد، إذ إن صقلية كانت تمثل قاعدة هجوم على إفريقية، ومن أهميتها فكر البيزنطيون نقل عاصمتهم إليها فى عهد قنسطانز الثانى، الذى اغتيل سنة ٦٦٨م (انظر الدكتور إبراهيم العدوى: البيزنطيون والدولة الاسلامية ص ٢٣٣).

توطيد هذه النبتة ورعايتها، بما يفيد حركة الفتوح، وهذا ما سوف يتحقق فيما بعد ذلك بسنوات قليلة، بإقامة مدينة القيروان، على يد عقبة بن نافع.

وبهذا تمكن معاوية بن حديج فيالفترة التى قضاها بإفريقية من أن يفرض سلطاناً إسلامياً على أجزاء منها، وأن يذكر البيزنطيين بما عليه المسلمون من قوة.

ومن أهم ما يلاحظ على هذه الفترة السابقة التى بدأت سنة ٢٧هـ، وانتهت سنة ٤٩هـ:

١- أن المعارك كانت تنتهى بالصلح، أو بانتصار غير حاسم، كان الجيش الإسلامى يترك المنطقة بعده إلى قواعده فى الشرق، دون أن يترك وراءه قوة مناسبة تحافظ على المنطقة، وتثبت المكاسب، التى من أهمها إسلام بعض البربر.

٢- إقامة بعض المسلمين فى برقة، ومنهم عقبة بن نافع كمحطة يلتقى فيها الجند، ومن الجدير بالذكر أن وجود العرب فى هذه المنطقة أدى إلى دخول بعض البربر فى الإسلام.

٣- محاولة معاوية بن حديج تأسيس معسكر إسلامى فى منطقة القرن بالقرب من موقع القيروان، ويبدو أنه كان معسكراً مؤقتاً".

ثانياً: مرحلة القيروان

على الرغم من الجهد الذى بذله المجاهدون المسلمون فى الجناح الغربى، أو بالأدق الجناح الإفريقى، إلا أن النتائج لم تكن على القدر المأمول الوصول إليه.

وقد وجهت الخلافة اهتمامها بهذا الجناح، فبدأت باختيار قائد كفء لقيادة المرحلة التى بدأت بعد معاوية بن حديج، والتى نحن بصدد الحديث عنها، قائد شهد فتوح القارة الإفريقية منذ بدايتها، فشارك فى فتح مصر صحبة عمرو بن العاص، وشهد فتوح طرابلس، واكتسب خبرة واسعة بهذه المنطقة بسبب استقراره فى برقة، وكثرة تحركاته العسكرية حولها، إنه عقبة ابن نافع الفهرى وحول صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف، لكنه يعد من التابعين الذين ورد ذكرهم ضمن قوائم التابعين الذين دخلوا إفريقية.(٥٦)

لقد توجت الخلافة(٥٧) – أخيراً- جهود عقبة بن نافع بأن وجهته إلى إفريقية أواخر النصف الأول من القرن الهجرى الأول، وكانت الخلافة الأموية قد وجهت إليه فى مستقره ببرقة عشرة آلاف فارس، فجمع إليه عدداً آخر ممن كانوا معه.

وسيشغل عقبة صفحات مشرقة فى تاريخ هذه المنطقة مرتين اثنتين، تنتهى الفترة الأولى منها بعزله، وتنتهى الفترة الثانية باستشهاده.

وبدأ عقبة فى تنظيم جنده، وهنا تظهر نقطة محورية فى حركة الجهاد، فلأول مرة، وبصورة واضحة وعملية، يجند عقبة بن نافع عدداً من بربر برقة وزويلة وما حولهما ممن أسلموا، ويضيفهم إلى جنده الوارد من

---

٥٦ – أبو العرب: طبقات علماء إفريقية ص١٨

٥٧- أحسن معاوية هذا الاختيار، إذ اعتمد فيه لا على القرابات ولكن اختياره اعتمد على ما كسبه عقبة من خبرات، وعلى حاجة الإقليم له.

الشرق[٥٨]، مما يدل على أن بعض الأهلين أحسوا حلاوة الإسلام، وعرفوا ضرورة الجهاد.

لقد أدخل عقبة إلى الجهاد، عنصراً جديداً قوى أمر الفتح، ذلك أنه وجد أن الإقليم تنقصه قاعدة، تُغنى جند الفتح عن الانطلاق من المشرق، وتقصر خطوط الإمداد، ويساعد وجودها على تثبيت ما تحققه جند الفتح من نصر، ويرعى شئون من أسلم من البربر ويحميهم، ويساعد على الحفاظ على المواثيق التى يكثر البربر من نقضها لغياب من يحافظ عليها، ففكر عقبة بن نافع فى ضرورة إنشاء قاعدة إسلامية بإفريقية، يتخذها معسكراً للجند، وقاعدة للانطلاق إلى الجهاد.

وتخير عقبة الموقع المناسب لبناء قاعدة الإقليم، مواجهة لجبل أوراس، تلك المنطقة التى كثرت فيها حركات المقاومة والخروج ليطل عليها ويراقبها ويعمل على تخضيد شوكتها. وموقع هذه المدينة، بالإضافة لتوسطه إقليم إفريقية، تقع على الطريق المؤدية إلى المغرب الأوسط لمواصلة الجهاد، وهو بعيد عن كل من الجبل والساحل بمسيرة يوم وهى مدة كافية للابتعاد عن خطر المفاجأة من غزو بيزنطى بحرى، ومن كمائن بربرية تأتى من الجبل.

هذا بالإضافة إلى تمتع الموقع بوفرة الماء والمرعى والأرض الصالحة للزراعة، وبموضع يؤخذ منه الملح النقى، مما يمكن معه أن نصف هذا الموقع بأنه يتمتع بالاكتفاء الذاتى. واستمر بناء هذه القاعدة مدة أربع سنوات

٥٨-وإلى هذا يشير النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص ٢٢ بقوله : "فجمع من أسلم من البربر، وضمه إلى جيشه الوارد عليه".

بدأت سنة ٥٠هـ، وعند اكتمالها دعا التابعى الجليل عقبة، أن تكون هذه المدينة عزاً للإسلام، وموئلاً للعلم والعلماء، وأطلق عليها اسم القيروان (٥٩).

ويلاحظ أن عقبة أوضح سبب بنائه لقيروانه فى قوله:"إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الكفر، لا أرى لكم يا معشر المسلمين إلا أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر(٦٠).

وقد دعا عقبة لمدينته قائلاً: اللهم املأها فقهاً وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً على من كفر بك، وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض (٦١).

وقد أفادت هذه المدينة حركة الفتوح إفادة كبرى من الناحية العسكرية، ومن ناحية نشر الإسلام وهو الغرض الأساسى لحركة الفتوح، لقد أفادت المدينة فى أنها أوجدت فرصة للإتصال السلمى بين البربر والعرب المقيمين بالمدينة، فى الفترات التى كانت تتوقف فيها الحروب، الأمر الذى ساعد على

٥٩- من بين معانى كلمة قيروان (ذات الأصل الفارسى): القافلة، و الجيش ومكان اجتماع الجند فى الحرب، ويصف البكرى مدينة القيروان بقوله: "ومدينة القيروان فى بساط من الأرض مديد، فى الجوف منها بحر تونس، وفى الشرق بحر سوسة والمهدية، وفى القبلة بحر صفاقس وقابس، وأقربها منها البحر الشرقى بينها وبينه مسيرة يوم، وبينها وبين الجبل مسيرة يوم، وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة وأحسنها الجانب الغربى، وهو المعروف بفحص الدوارة، يصيب فيها السنة الخصيبة للحبة مائة، وهواء هذا الجانب طيب صحيح".

٦٠- ابن عذارى: البيان جـ١ ص١٩ .

٦١- أبو العرب: الطبقات ص٨

تقبل بعض البربر للدين الجديد باقتناع دون أى شبهة اضطرار، هذا بالإضافة إلى أن بناء المدينة، فى حد ذاته، كان بداية للعمران الإسلامى فى ذلك الجناح الغربى للدولة الإسلامية.

والجدير بالذكر هنا، أن عقبة أفاد من خبراته، ومن خبرات من سبقه من القادة، ومن تفكير معاوية بن حديج فى إقامة معسكر القرن، وكان فى موقع قريب من الموقع الذى اختاره عقبة بعد ذلك، ونحب أن نشير كذلك إلى براعة عقبة فى اختيار موقع المدينة ذات المواصفات الاستراتيجية والمناخية الجيدة.

البيزنطيون وبناء القيروان

وعلى الرغم من أن بناء القيروان استغرق حوالى خمس سنوات، إلا أن المصادر لاتشير إلى محاولات مضادة من البيزنطيين المقيمين فى إفريقية، ولا من الدولة البيزنطية نفسها، ولعل تفسير الأمر الأول يمكن إرجاعه إلى قوة المسلمين، وحرص البيزنطيين فى أفريقية على عدم إثارتهم، أو أنهم، حسب رأى الدكتور العدوى،"كأنهم لم يدركوا خطورة ظهور المعقل الإسلامى بالقرب منهم".

وأما عدم تدخل الدولة البيزنطية، فلعله يرجع إلى انشغالها بالحرب ضد المسلمين فى المشرق وذلك إبان حصار معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية، والتى سماها المؤرخون الغربيون المحدثون بحرب "السنوات السبع" (٦٢).

٦٢- الأمويون والبيزنطيون ص ٢٣٨

جهود عقبة العسكرية والسياسية فى ولايته الأولى

وأما عن جهود عقبة العسكرية فى هذه الفترة، فقد أشار المورخون إشارة سريعة إلى أن عقبة جاس خلال إفريقية، وأنه افتتحها[٦٣]، ويبدو أن تركيزه فى ولايته الأولى هذه، انصب على تأسيس القيروان وحمايتها.

كما أن هناك إشارة إلى حسن سياسة عقبة إفريقية، إذ ينقل أبو العرب [٦٤] عن يزيد بن أبى حبيب أن رجلاً من جند مصر قال:" قدمنا مع عقبة بن نافع، وهو أول الناس اختط القيراون، وقطعها للناس مساكن ودوراً، وبنى مسجدها، وهو خير وال وخير أمير، كما ورد فى نهاية الأرب:" ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير[٦٥]

نهاية ولاية عقبة الأولى

عندما ولى معاوية بن أبى سفيان مسلمة بن مخلد على مصر، نرى الخلافة الأموية تزيد فى إكرامه، فتعيد جمع إفريقية إلى ولاية مصر، ليصير عمل مسلمة بذلك جامعاً للمصريين: مصر وإفريقية.معاً.

وربما مالت نفس مسلمة إلى أن يعين من قبله هو، رجالاً من أعوانه على الجهات والأحواز، فنراه بعد حين، يعزل عقبة بن نافع، ويعين رجلاً ممن يثق فيهم اسمه أبو المهاجر دينار، وقد جاء العزل بعد تمام بناء مدينة القيروان.

٦٣- النظر : اللوبدى: نهاية الأرب جـ٢٤ـ ص٢٢

٦٤- طبقات علماء افريقية ص٨.

٦٥- اللوبرى: المرجع السابق

ولنا هنا ثلاث وقفات أمام ثلاث قضايا فرعية هي:

سبب عزل عقبة، وسوء طريقة عزله، وهجر القيروان، وفيما يلي كلمه موجزة عن كل قضية من هذه القضايا.

أ- سبب عزل عقبة:

من أهم الأمور التي يمكن ملاحظتها في هذه الفترة مسألة عزل عقبة، وقد جاء هذا العزل، بعد تمام بنائه وعمارته مدينة القيروان، وقد اختلف الدارسون في سبب هذا العزل المفاجئ إلى عدة آراء:

فالأستاذ الدكتور حسين مؤنس (٦٦) يرى سبب العزل هو اشتغال عقبة ببناء مدينة القيروان، وحرمان الدولة الأموية من الغنائم، مما أعطى للسعايات المدبرة ضده ثقلاً خاصاً، فنتج عنها عزله عن القيادة وضم إفريقية إلى والي مصر مسلمة بن مخلد.

ويرى تيراس في الجزء الأول من كتابه تاريخ المغرب، أن معاوية عزل عقبة لخوفه من أن يستقل عقبة بالمغرب، ولا يستبعد الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هذا الرأي، ويشير إلى بعض القرائن التي تقويه، منها أن عقبة كان أحد أقارب عمرو بن العاص، وأحد قواده المرافقين له في فتح

٦٦- في كتابه فتح العرب للمغرب ص ١٤٧

مصر، وأن له شعبية فى بلاد برقة وإفريقية، وأن معاوية كان يخشى من قبل مطامع عمرو بن العاص(٦٧).

وربط الأستاذ الدكتور إبراهيم العدوى بين تقوى البيزنطيين وسعيهم للتحالف مع البربر ضد المسلمين وبين عزل عقبة، مشيراً إلى تغير الأوضاع البيزنطية، بسعى قسطنطين الرابع لمنع التعصب المذهبى وما يستتبعه من اضطهاد لنصارى البربر، وبعض البربر، وكان نتيجة هذا بروز تحالف بيزنطى بربرى محدود، ولم تكن سياسة عقبة بن نافع وقتها مناسبة للتعامل مع هذه التطورات الجديدة فى الموقف (٦٨).

ويضيف جوليان سبباً أخر بقوله" ولعل القوم كانوا يعيبون على مؤسس القيروان، منحاه العسكرى البحت، وموقفه الجاد تجاه قواد البربر، وما كان يأذن به من مجازر فى غير هوادة، وشنه غارات بالغة الخطورة، بقدر ما هى عديمة الجدوى (٦٩).

ولعل تفسير جوليان هذا خلط بين أحداث الولاية الأولى والثانية لعقبة، فإن ما يشير إليه من شدة وتوغل وجرأة فى الأعمال العسكرية-مع عدم موافقتنا على آرائه الخاصة جداً فيها- لم تكن إلا فى الفترة الثانية وأن الفترة

٦٧- انظر كتاب الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير (الجزء الثانى من موسوعة تاريخ المغرب الكبير) ص ١٢٣

٦٨- انظر: د. إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص ٢٣٩-٢٤٠ وكذا بلاد الجزائر ص ٩١-٩٢

٦٩- تاريخ إفريقيا الشمالية ص٢٠.

الأولى كانت من الناحية العسكرية فترة هدوء نسبى وانشغال بالبناء والإسكان (٧٠).

أما بقية الآراء، فان معظمها مقبول، ونضيف هنا سبباً آخر يكمن فى سياسة الأمويين المالية، وسياستهم فى تعيين الولاة، إذ ان المغرب لم يقدم لبيت المال الأموى الأموال المطلوبة، أو التى يتوقع وصولها منه، ليعتمد عليها فى مصارف الدولة المتعددة التى زادت على المصارف الشرعية وقد تأخرت هذه الأموال بسبب مصاريف إنشاء المدينة، وقلة موارد الغنيمة والفيء، بسبب قلة العمليات العسكرية، وعدم إمعان عقبة فى الغزو.

ثم ها هو ذا والى مصر مسلمة بن مخلد، صاحب المكانة الكبيرة فى دولة معاوية بن أبى سفيان، بسبب ما قام به من دور فى المطالبة بدم عثمان، أو على حد قول معاوية نفسه فى حديثه لعقبة:" لقد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه اياه، وقيامه بدمه، وبذل مهجته"[٧١]. مع ملاحظة ان سياسة الدولة الأموية فى اختيار رجالها يعتمد على ذوى الإخلاص قبل أن يعتمد على ذوى المواهب والكفايات، أى أهل الثقة أكثر من أهل الكفاية. هذا إذا أعوزتها الحيلة فى اجتذاب هذه الكفايات فى صفوف المناوئين إلى صفوفها.

٧٠- مع ملاحظة أن جوليان سيعود بعد قليل، بعد سطور قليلة، للشك فى بعض (غارات) عقبة تلك، حيث يصف إحدى (غارات) عقبة الكبرى بأنها "من الطراز العالى"، وأنه" قديكون من المجازفة الإطمئنان إلى وقوعها "(انظر المرجع نفسه).

٧١- ابن عبد الحكم -فتوح مصر- ص ٧٠.

فمن ثم، يمكن ان نستنتج أن معاوية عزل عقبة لسبب مالى وضحناه، وآخر إدارى هو مكافأة والى مصر، مسلمة بن مخلد، بضم إفريقية إليه ليكون بذلك أول من جمعت له ولاية مصر والمغرب، كما أشار ابن عبد الحكم.

وأما خوف معاوية من أن يستقل عقبة بإفريقية، فهو أمر سابق لأوانه، ويمكن الرد عليه بأن فتح إفريقية لما يستقر، فكيف يستقل بها مستقل فيتعرض لألوان من المضايقات من الدولة الأموية ومن البربر المناوئين أيضاً، ثم هذا هو معاوية يعد عقبة بإعادته إلى ولايته وقام يزيد ابنه بتنفيذ هذا، فلو كان الأمويون يخافونه، لما وعدوه، ولما نفذوا وعدهم.

ب- طريقة العزل:

هناك إشارة للمالكى، أن أول من عين بعد عقبة من قبل مسلمة بن مخلد هو أحد التابعين: خالد بن ثابت الفهمى بيد أنه أشار إلى سنة ٥٤هـ، وعين بدلاً منه مولاه أبا المهاجر ديناراً، الذى وصل إفريقية سنة ٥٥هـ. ومن هذا يتبين أن عزل عقبة، وتعيين خالد بدله، كان أواخر سنة ٥٤هـ على وجه التقريب.

وتجمع المصادر على أن أبا المهاجر ديناراً أساء عزل عقبة بن نافع، وهذا أمر غريب، فإن الذى عزل عقبة، بناء على رواية المالكى، إنما هو خالد بن ثابت الفهمى أحد التابعين، فإن صح هذا الخبر فإنه يمكن تصور أن خالداً لما تولى إفريقية لم يسئ إلى عقبة، فما كان من مسلمة إلا أن عزله وعين مولاه أبا المهاجر، الذى أراد أن يتقرب إلى سيده إذا أخرج عقبة من

إفريقية، حتى لا يكون مركز ثقل وحتى تصبح الحلبة خالية يجرى فيها جواد واحد دون خوف من الجند أو ممن أسلم من البربر.

ومن شكوى عقبة لمعاوية بن أبى سفيان، يمكن أن نلمح بعض الحيف الذى ألم به، ولم ترض نفسه السكوت عليه، وينقل النويرى على لسان عقبة، شكواه لمعاوية فيقول: "إنى فتحت البلاد، ودانت لى، وبنيت المساجد، واتخذت المنازل وأسكنت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلى"[٧٢].

ويبدو أن معاوية لم يكن يميل كثيراً إلى إحراج عماله، فاكتفى بتطييب خاطر عقبة، ووعده خيراً [٧٣].

جـ- مصير القيروان على عهد أبى المهاجر دينار

تولى أبو المهاجر دينار إفريقية، من قبل مولاه مسلمة بن مخلد مكافأة له على صبره معه وخدمته له [٧٤]. ويلحظ قلة الأخبار الواردة عن إفريقية فى عهد أبى المهاجر دينار، على الرغم من طول الفترة التى تولاها، فى حين كان التركيز على سوء عزل عقبة، وعلى هجر القيروان، وقد سبق أن أشرنا إلى القضية الأولى، ونناقش الأن قضية القيروان.

٧٢- نهاية الأرب جـ٢٤ ص ٢٢ وإلى طريقة عزل أبى المهاجر (انظر ابن الأثير: الكامل جـ٣ ص٣٢١)

٧٣- انظر ابن الإثير : المرجع السابق نفسه.

٧٤- ينقل ابن عبد الحكم ما قيل لمسلمة حول تثبيت عقبة :"وقد كان قيل لمسلمة لو أقررت عقبة، فإن له جزالة وفضلاً، فقال مسلمة: إن أبا المهاجر صبر علينا فى غير ولاية ولا كبير ميل، فنحب نحب ان نكافئه" (فتوح مصر والمغرب ص٢٦٦).

والمصادر التى رجعنا إليها تتفق على صحة هذا الهجر، فابن عبد الحكم يقول : "فلما قدم أبو المهاجر إفريقية ،كره أن ينزل فى الموضع الذى اختطه عقبة بن نافع، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى، ونزل"(٧٥) مختاراً بذلك موقعاً جديداً لقاعدة جديدة أطلق عليها اسمه تيكيروان."(٧٦)

وإلى هذا الحد، لا نرى كثيراً من التجاوز من القائد الجديد، فهو يريد أن يبنى لنفسه قاعدة جديدة، لسبب أو لآخر، وهذا الأمر يمكن أن نطبقه على عقبة نفسه عندما مال عن "القرن "، معسكر معاوية بن حديج، الذى فكر فى إنشائه، وبدأ خطواته الأولى فيه، لقد مال عقبه عن هذا الموقع إلى موقع مدينته القيروان، مثلما مال أبو المهاجر بعد هذا عن موقع القيروان إلى موقع جديد (٧٧).

ولكن الذى نراه غريباً بعد ذلك هو تلك الإشارة التى أوردها بعض المورخين أن أبا المهاجر ديناراً :

"أمر الناس أن يخربوا القيروان، ويعمروا مدينتة"(٧٨).

أو أنه " أخلى القيروان، وأمر الناس بعمارة بلدة اسمها تيكروان"(٧٩).

٧٥- المرجع السابق نفسه.

٧٦- ورد هذا الإسم بعدة صور لكلها متقاربة مثل تكروان، وتيكروان وغيرهما.

٧٧- انظرا بن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ص٢٦٤ يقول عن عقبة "ثم انصرف الى القيروان (لعلها إفريقية) فلم يعجب بالقيروان الذى كان معاوية بن حديج بناه قبله......"

٧٨- النويرى: نهاية الأرب: جـ٢٤ ص ٢٥.

٧٩- ابن ابى دينار: المونس ص ٢٩.

إن الباحث يدرك مدى ما يمكن أن تفعله المنافسة، أو حتى الإحن الشخصية، في الأحداث، ولكن من المستبعد أن يصل الأمر بالوالي الجديد إلى التخريب أو الإخلاء، ولعل هذه النقول -كما يرى الدكتور حسين مؤنس- تعتبر من مبالغات المؤرخين(٨٠).

ويمكن أن نتصور ميل القائد الجديد، أبي المهاجر دينار، إلى عمارة جديدة تعتبر قاعدة للإقليم، ترتبط باسمه أو باسم مولاه مسلمة ابن مخلد، عن طريق جذب الناس إغراءً، أو دفعاً، إلى المدينة الجديدة، ولكن لا يمكن تصور أمره بتخريب مدينة إسلامية، كانت قائمة قبل وصوله، واستمر وجودها عند وصوله، وبقيت بعده.

لقد صور بعض المؤرخين القضية على أنها انتقام شخصي، ولم يكتفوا باتهام أبي المهاجر بهذا، بل سحبوا هذا الاتهام، بعدُ ،على عقبة نفسه عند عودته إلى الولاية، فهم يقررون أنه أمر بخراب مدينة تيكروان، وأنه رد الناس إلى القيروان(٨١).

ولسنا نوافق على هذا القول، لأن عقبة إنما عاد إلى إفريقية بائعاً لنفسه مشترياً الشهادة، ونفس كهذه تترفع عن هذه الأشياء الصغيرة، والمسألة أبسط من هذه، فإنها قضية اتخاذ قاعدة جديدة، وإنها قضية ميل الناس لسكنى القواعد والاقتراب من مراكز الإدارة.

٨٠- انظر فتح العرب للمغرب ص ١٧٠.

٨١- انظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية ص٨ في نقطة تخريب عقبة لتيكروان يقول: "..... وخرب تيكروان التي كان اتخذها أبو المهاجر قيرواناً وانظر كذلك النويري: نهاية الأرب جـ٢٤ ص٢٦.

بعداً جديداً لجهاد أبى المهاجر، إذ حرص على الاقتراب من التجمعات البيزنطية فى إفريقية، كما حرص على مجابهتها فى المغرب الأوسط، كما أشرنا من قبل.

ونأتى الآن إلى النقطة الثانية فى جهود أبى المهاجر وسياسته فى المغرب، وهى نقطة جديرة بالتنويه والإشادة، أعنى بها سياسة حسن معاملة البربر، واستئلاف الغلاظ منهم، والإحسان إليهم، وهى بالتأكيد لب الدعوة الإسلامية وأصل أصلها، نفذها أبو المهاجر فأحسن تنفيذها، وزاد فى إكرام رؤساء القوم خاصة، وصار بينه وبين بعضهم صحبة (٩٢).

كما يمكن اعتبار بناء قيروان أبى المهاجر الجديد، نقطة طيبة كذلك، فهو يبنى قيرواناً خديدا، كأن فى هذا إشارة إلى سياسة جديدة، أضف إلى هذا، قرب القيروان من مجموعة جديدة أراد أبو المهاجر الاحتكاك بها.

وهكذا نجد أن أبا المهاجر ديناراً غير السياسة التى اتبعها عقبة فى ولايته الأولى والمعتمد على العمل العسكرى، ليتلافى خطراً، تصوره ضخماً يكمن فى تحالف بيزنطى بربرى برنسى، فعمل على ضرب هذا التحالف، بسياسة أكثر تقرباً من البربر البرانس، بترك القيروان إلى قرية بربرية، وقد يكون هذا لإشعار البربر ان العرب ليسوا فئة ذات امتيازات خاصة، هذا من جهة ولتقديم الدليل على حسن النية ومزيد من الاندماج، فالعرب يعايشون البربر فى قراهم ومضاربهم، ولجأ أبو المهاجر إلى قبيلة أوربة، فحسن

٩٢- وقد فطن جوليان إلى ظاهر هذا الأمر فقال: "ويظهر أن أبا المهاجر، خلافاً لسلفه، فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين "تاريخ إفريقيا الشمالية ص

علاقته بهم، واستألف منها رؤساهم، وأسلم منهم عدد ليس بالقليل، فضرب بذلك التحالف البيزنطي البرنسي، وقد أفاده هذا، في مد سلطانه العسكري، إلى أماكن لم يصل إليها جند الفتح من قبل، في المغرب الأوسط.

ولاية عقبة الثانية (أو الاستشهاد):

استمر أبو المهاجر دينار على إفريقية سبع سنوات، حقق فيها عدة نتائج طيبة، كما رأينا، ثم ان الخلافة تصدر سنة ٦٢هـ أمراً بعزل أبى المهاجر عن افريقية، وتعيين عقبة بن نافع للمرة الثانية عليها.

وقد سكتت معظم المصادر عن سبب العزل، ولكن يمكن أن نتصور أن السياسة المالية للدولة الأموية، ربما كانت سبباً من أسباب هذا العزل، هذا إذا كانت سياسة أبى المهاجر المهادنة المستألفة لم تحقق لبيت المال الأموى، ما كانت الدولة ترجوه، وتراه ضرورياً لنفقات الفتح.

وربما تكون شكوى عقبة لمعاوية –رغم التأخيرات قد أثمرت[٩٣].

وربما كان أحد أسباب عزل أبى المهاجر، مع ما أشرنا إليه، ما وصفه ابن خلدون بنشأة الردة فى البربر[٩٤] ويزداد هذا السبب وضوحاً إذا أضفنا

٩٣– يشير النويرى الى قبول معاوية شكوى عقبة وأنه وعده برده على عمله، ويعلق بقوله "وتراخى الأمر، حتى توفى معاوية، وولى يزيد"، (وإنه لتراخ مديد) نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٥.

٩٤– يقول فى العبر جـ ٤ ص ١٨٦ متحدثاً عن عقبة: "فدخل إفريقية وقد نشأت الردة فى البرابرة".

إلى هذا الخبر، ما نقله النويرى، من أن يزيد لما علم حال إفريقية ،وقال: "ادركها قبل أن تهلك وتفسد"(٩٥)، ورده إلى إفريقية والياً.

وربما كان سبب عزل أبى المهاجر- أو قل سبب إعادة عقبة للولاية مرة ثانية- هو جماع هذه الأقوال معاً.

وعاد عقبة لإفريقية التى قضى فيها زمناً طويلاً، منذ دخولها مع عمرو بن العاص إلى سنة ٥٥هـ، سنة عزله، وتشير المصادر إلى أن من أوائل أعمال عقبة بإفريقية القبض على أبى المهاجر وإساءة عزله وتقييده بالحديد.(٩٦)

كما تشير المصادر أيضاً إلى تخريب عقبة مدينة أبى المهاجر أو قيروانه، المسمى تيكيروان، وأنه أعاد الناس إلى مدينته القيروان، وقد سبق أن استبعدنا خطوات التخريب هذه، وشككنا فى وقوعها من كل من عقبة وأبى المهاجر معاً.

وعندما استتب الأمر لعقبة فى القيروان، جهز قوة عسكرية ترابط فيها، وجعل قيادتها لزهير بن قيس البلوى(٩٧).

ويتضح من الأخبار التى أوردتها المصادر عن عقبة أنه دخل إفريقية بهمة عالية، وعزيمة لا تفتر، آملاً الانتهاء من فتوحات المغرب التى طالت، وبقصد إلى الجهاد، وبتوق إلى الاستشهاد، يظهر هذا جلياً من قول عقبة

٩٥-نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٥ وهى عبارة تشير إلى عدم رضاء الدولة بسياسة أبى المهاجر، وتدل على خطورة الموقف هنالك.

٩٦- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٧.

٩٧- اكتفى النويرى فى نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٦ بزهير، فى حين ضم إليه ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٧ عمر بن على القرشى.

لأبنائه إذ استدعاهم مودعا: "إنى بعت نفسى من الله تعالى بيعاً مربحاً، أن أجاهد من كفر حتى الحق بالله، ولست أدرى أترونى بعدها أو أراكم، لأن أملى الموت فى سبيل الله"(٩٨).

وبسياسة تعتمد على أقصر الطرق -وإن لم تخل من الاندفاع- توجه عقبة تجاه الغرب، فى غزوة مندفعة طموح، كان المأمول ان تأتى بنتائج طيبة لحركة الفتح، لكن عقبة فى غزوته هذه لم يلتفت لعدة أمور:

- منها أنه لم يحافظ على المكاسب التى حققتها سياسة أبى المهاجر قبله.

-وأنه كان شديد الاندفاع، بحيث لم يلتفت للجيوب التى خلفها وراءه(٩٩).

-ومنها أنه لم يلتفت إلى إحن شخصية، تمثلت فى حنق القائد الأوربى كسيلة وتمرده، لأنه عومل معاملة لاتليق برئيس مثله(١٠٠)، وفى هذا المجال لم يستمع عقبة لتحذير أبى المهاجر المتكرر من كسيلة وقومه(١٠١).

-ومنها انه لم ينتبه إلى طول خط الهجوم، وإلى أن هناك من كان يتتبعه ليغور الآبار(١٠٢)، ليحرم جيش عقبة من موارد الماء عند عودته، كأن أمراً يدبر، ومؤامرة تحاك ضد عقبة، دون أن يدرى(١٠٣).

٩٨- النويرى: المرجع السابق ص ٢٦

٩٩- انظر المرجع السابق نفسه يقول: "ودخل الروم حصنهم فكره عقبة أن يقيم عليه "ومثل" وتبعهم إلى باب الحصن".

١٠٠- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٨٦.

١٠١- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٣٠.

١٠٢- انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب ص٢٦٨ يقول: "وخرج ابن الكاهنة البربرى على إثر عقبة، كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة، فلم يزل

ويبدو -كذلك- أن اتصالاً بيزنطياً بربرياً قد تم، وإليه يشير النويرى بقوله "فلما بلغ الروم خبره، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم"[(١٠٤)].

خط سير عقبة فى غزوته الكبرى:

يتضح من نقول المؤرخين أن عقبة لم يوجه عنايته فى حملته أو حملاته الجهادية هذه، ضد عدو واحد، بل نراه يقاتل البيزنطيين، ويقاتل البربر، ويقاتل تحالفاً ضم الفريقين[(١٠٥)]، كما لم يكتف عقبة بمغرب من المغارب الثلاثة بل نراه ينتشر، أو يضرب فى جبهات متعددة[(١٠٦)]، حيث بدأ بالمغرب الأدنى، فقاتل ممس والزاب، وتاهرت، وطنجة وبلاد السوس حتى السوس الأقصى.

وتعتبر هذه الحملة من كبريات الحملات العسكرية فى تاريخ هذا الإقليم، شملت المغارب الثلاثة، وأدخلت المسلمين إلى مناطق لم يكونوا دخلوها من قبل، وحققت عدة انتصارات عسكرية، وعرّفت البربر فى مناطق

كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس، ولايشعر بما صنع البربرى ... وانصرف راجعاً والمياه قد غورت".

١٠٣- يشير ابن عبد الحكم فى المرجع السابق نفسه إلى تحالف القبائل البربرية ضد عقبة، يقول:"وتعاونت عليه البربر".

١٠٤- نهاية الأرب: جـ٢٤ ص ٢٧.

١٠٥- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص١٨٦، وكذا ابن أبى دينار المونس ص٣٠-٣٢.

١٠٦- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٧-٢٨. وابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب ص٢٦٧-٢٦٨ وكذا المرجعين السابقين نفسيهما.

ثانية بالاسلام، وتكفى هذه النتائج لهذه الحملة رداً على من قلل من أهمية هذه الحملة، أو شكك فى وجودها(١٠٧).

وهكذا وجدنا أنه عندما عاد عقبة فى ولايته الثانية، وجد أن هذه السياسة بطيئة الخطو، وأن الحل الحاسم هو الحل الأمثل، معتمداً فى ذلك على علاقة الفتوحات الإسلامية السابقة بالبيزنطيين، فهم كانوا محتلى المنطقة من الشام إلى المحيط قبيل الفتح، وهم الذين طردهم المسلمون من مناطق شاسعة من قبل، وهم الذين حاولوا، دون أن ينجحوا، استعادة ما كانوا يحتلونه، وها هى بعض القوى البيزنطية ما زالت متركزة فى المغرب، تزيد قوتها بالاستعانة ببعض العناصر السكانية وتمكن عقبة، بهذا، من ضرب قوات متركزة فى عدة مناطق مثل وادى الحسيلة وتاهرت، بدأه بضربات قاصمة، مكملاً محاولات أبى المهاجر دينار فى السيطرة على المغرب الأوسط.

وربما كان الأفضل لعقبة، بعد هذه الحملة الطموح الطويلة، أن يتوقف، أو يتريث بعض الشىء، عند حدود المغرب الأوسط، وربما كان الأجدى اتخاذ قيروان آخر فى هذه المنطقة، ثم الوثوب منه بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، بعد أن يضم صفوفه ويحاول نشر الإسلام فى ربوعه ويضمد جراح من أصيب من سكانه الأصليين بالمعاملة الطيبة.

لكنه مال إلى السرعة، وعمد إلى التوغل حتى أقصى موضع يمكن أن يصل إليه، فى الوقت الذى لم يلتفت فى توغله هذا إلى عدة جيوب للمقاومه البربرية، ولم يلتفت لانصراف بعض قبائل البرانس عنه، واتصالهم بقوى

١٠٧- انظر رأى جوليان فى هذه الحملة: فى تاريخ إفريقيا الشمالية ص٢١.

بيزنطية، يضاف إلي ذلك طول فترة الغزوة، وضجر الجند من القتال، فأدت هذه العوامل إلى وقوعه فى كمين أعده بعض البربر واستشهد فيه هذا البطل العظيم.

عودة عقبة واستشهاده

لم يفصل المورخون طريق عودة عقبة، وهل تأكد أثناء عودته من ثبات فتوحاته، ولم يشيروا إلا إلى مواضع قليلة، منها الموضع الذى سمى فيما بعد بماء الفرس، ثم طبنة قبل القيروان بمسيرة ثمانية أيام، وعندها، أمر عقبة بتسريح جيشه، على أن يعود إلى القيروان أفواجا، " ثقة منه بما دوخ من البلاد، وأنه لم يبق أحد يخشاه "،[١٠٨] ثم توجه بعد إلى تهودة وبادس، ليقدر لهما ما يحتاجان إليه من فرسان يتركهم فيهما.

وفى هذه المنطقة بدأت الأخطار تطل على عقبة ومن بقى معه من عدد قليل من الفرسان، وأول ما جبههم، هو قلة اكتراث من كان فى الحصون من البيزنطين بعقبة وصحبه، كما لم يستمعوا إلى دعوته إياهم إلى الله عزوجل.

ثم اغتنم البيزنطيون هذه الفرصة واتصلوا بكسيلة[١٠٩] وحرضوه على عقبة، فتسلل من معسكره وبدأ يجمع قوات مضادة، ولم يستمع إلى نصح أبى المهاجر بضرورة معاجلة الأمر بالهجوم على كسيلة[١١٠] قبل ان يقوى أمره،

١٠٨-النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٨-٢٩ وكذا ابن أبى دينار : المونس ص٣١.

١٠٩- النويرى: المرجع السابق ص٣٠.

١١٠- ابن أبى دينار : المونس ص٣٠.

وكسيلة فى هذا يتربص ويتقوى بمرور الوقت، ويقول لمن يطلب إليه الهجوم : " إنكم كل يوم فى زيادة، وهو فى نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه" (١١١).

وتم اللقاء ، وتروى المصادر مدى شجاعة الجند الإسلامى القليل، واشتراءهم الشهادة جميعاً، سوى نفر قليل وقعوا فى الأسر، منهم محمد بن أوس الأنصارى، وقد خلصوا من الأسر بعد ذلك، وأعيدوا إلى القيروان(١١٢)

وهكذا نال عقبة ما كان يبتغيه، حاز الشهادة فى ميادين، الجهاد ، وإن كان جهده هذا لم يضع - رغم الانتكاسة - وخطوات جهاده لم تذهب سدى، بل واصل المسلمون جهاده حتى اكتمل الفتح(١١٣).

واجتمع عدد كبير من البربر مع كسيلة وقصدوا القيروان، رمز الوجود الإسلامى، ودخلوها، فطلب من تبقى من المسلمين الأمان من كسيلة، فأعطاهم كسيلة الأمان(١١٤)، وأبقاهم فيها، فى وقت كان يمكن تصور أنه سيلجأ إلى تقتيلهم واجتثاث جذورهم،فلماذا؟

هل ذكر سابق يد المسلمين عليه بإنقاذه واستخلاصه والإحسان إليه، فأراد أن يرد هذه اليد بيد مثلها ؟ أم أنه رأى ضرورة عدم مبادرة المسلمين،

١١١- النويرى: المرجع السابق ص٣١.

١١٢- ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٠٩

١١٣- يعلق جوليان على ماحدث بعد إستشهاد عقبة تعليقاً غريباً بقوله:
"معلوم أن جثمان عقبة مدفون فى مسجد الواحة التى تحمل اسمه "سيدى عقبة" على بعد خمسة كيلو مترات من جنوب تهودة، تحت قبة متواضعة البناء، يحج إليها أحفاد الذين ساهموا فى مقتله" تاريخ إفريقيا الشمالية ص٢٢.

١١٤- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٣٢.

فى هذا الوقت، بفعل يجعلهم يعودون تجاه الغرب، بدل مواصلة طريقهم للشرق ؟ أو ربما يكون قد خشى من بقية المسلمين من البربر، الذين لا يدخلون تحت رئاسته ولاينضوون مع تجمعه الأوراسى؟.

وهكذا عادت القيروان إلى سلطان البربر من البرانس، وبخاصة قبيلة اوربة، أو التجمع الأوراسى، وهكذا أيضاً، غادر مرابطو الفتح، وأساسه، مدينة القيروان وافريقية، إلى برقة أو مصر، لتصاب حركة الفتح بانتكاسة مؤثرة .

لقد كانت نهاية هذه الفترة من الجهاد، التى قادها عقبة، غير متفقة مع النجاح الذى صاحب بدايتها، فقد تمكن المرتدون، والحانقون، من أن يستثمروا مقتل عقبة،وما أصاب المسلمين من جزع، وتمكنوا من الاستيلاء على القيروان فى محرم سنة ٦٤ هـ وظلوا مسيطرين عليها، وتقلصت بذلك المكاسب التى حققها المجاهدون فى الخطوات السابقة من حيث السيطرة، وإن بقيت بعض المكاسب المهمة مثل إسلام بعض البربر، ومعايشة العرب الذين لم يستطيعوا الرحيل شرقاً للبربر فى القيروان، وظهور بعض المقاومة البربرية لهذا الاتجاه المضاد للمسلمين، الذى قاده كسيلة الأوربى .

وبخلوّ الساحة – مؤقتاً – من الجند الإسلامى، استغل البيزنطيون هذه الفرصة، وانزلوا أسطولاً لشواطئ إفريقية هبط منه عدد من فرسانهم، بقصد قطع الطريق الساحلى من برقة إلى المغرب(١١٥).

١١٥- انظر أوليفر، وفيج، موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق ص٧٩.

واجتمعت قبائل الأوراس، ووجد نوع من التحالف البيزنطي مع بعض البربر[١١٦]، وإن كانت بعض القبائل البترية خارجة عن هذا التحالف.

ولكن هذا الانتصار الذى وصفه جوليان بأنه حاسم[١١٧]، كان فى الواقع انتصاراً ظاهرياً مؤقتاً، فما كان المسلمون ليتركوا مصراً إسلامياً فى هذه الفترة المبكرة فى تاريخهم دون محاولة استرداده.

القيروان بعد استشهاد عقبة

استثمر مقاومو الفتح الإسلامى ،من بربر أوربة، ومن انضاف إليهم، استشهاد عقبة، وما تلاه من هزة فى نفوس المجاهدين هناك، استثمار كبيراً، فاسرع كسيلة يتقدم إلى القيروان[١١٨] فى الوقت الذى اختلف فيه المسلمون هناك فريقين، إذ عزم زهير بن قيس على القتال، فى حين مال حنش بن عبد الله الصنعانى إلى غير ذلك[١١٩] وكان لكل فريق وجهة نظره من ضرورة المجابهة والمبادرة، أو ضرورة التريث وأخذ الحذر ومعرفة ما يدور فى الساحة قبل اتخاذ الخطوات الإيجابية، وكان لابد من الاتفاق، فتم الرحيل، وتبقى فى القيروان المخلفون والذرارى الضعاف.

١١٦- نفسه ص٧٩-٨٠

١١٧- انظر تاريخ إفريقيا الشمالية ص٢٢.

١١٨- هناك إشارة إلى ان زحف كسيلة تجاه القيروان، سبقه زحف آخر قام به ابن الكاهنة، الذى نقلنا من قبل تتبعه عقبة وردمه الآبار، فى الحلة السيراء ج٢ ص٣٣٠: "ولما قتل عقبة زحف بن الكاهنة يريد عمرا وزهيراً، فقاتلاه، فهزم ابن الكاهنة و أصحابه، ثم خرجا إلى مصر بالجيش "،وبهذا تظهر بوادر منافسة بين الكاهنة وكسيلة على الأوراس، المضاد للمسلمين، حتى قبل أخذ القيروان.

١١٩- ابن خلدون: العبرجـ ٤ ص ١٨٦.

زهير بن قيس فى إفريقية

قارنت الأحداث السابقة، من فقد القيروان، وسيطرة البربر، أو البربر والبيزنطيين، على ما كان بيد المسلمين فى إفريقية- قارن ذلك عدة أحداث معوقة فى الدولة الإسلامية لخصها ابن خلدون بقوله[١٢٠] "وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية، وفتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط، وحروب آل الزبير"، يضاف إلى هذا ما كانت تعانيه الدولة الإسلامية على الحدود الإسلامية البيزنطية، كل هذا أدى إلى أن "اضطرب أمر الخلافة بعض الشيء ، واضطرم المغرب ناراً، وفشت الردة فى زناتة والبرانس"

وما كاد عبد الملك بن مروان يلتقط أنفاسه حتى نظر إلى المغرب ونظر فيمن يوليه، فلم يجد أفضل من زهير بن قيس البلوى، فولاه إفريقية[١٢١]، وتجهز سنة ٦٩هـ بجيش كبير، انطلق به صوب القيروان[١٢٢].

ولما عرف كسيلة خبر مقدم زهير، رأى أن يميل بقواته عن القيروان إلى ممس (أو لميس) ليكون فى الجبل وراءه، إن هزم، منجى ومهرب، وان انتصر طارد المهزومين خارج إفريقية. ولكن زهيراً يقود معركة حاسمة وصعبة، ينتصر فيها المسلمون، وينهزم البربر، ويقتل كسيلة وعدد من أشراف البربر معه.

١٢٠- العبر جـ٦ ص ١٤٧.

١٢١- انظر ابن الاثير: الكامل جـ٣ ص ٤٠٣.

ويعلل اختيار زهير بما نقله النويرى من انه"هو صاحب عقبة، وأعرف الناس بسيرته، وأولاهم بثأره" نهاية الأرب جـ٢٤ ص٣٢.

١٢٢- ابن الأثير، المرجع السابق نفسه.

ولم يرض زهير الإقامة فى القيروان، وآثر بعد عودته إليها أن يعود إلى مصر، فهو إنما جاء مجاهداً لا أميراً[١٢٣]، ولكن البيزنطيين كانوا يترصدون الموقف ويرقبون النتيجة، فى حيدة ماكرة[١٢٤]، فلما رأوا انتصار المسلمين، وعلموا عودة زهير تجاه المشرق، خرجوا إليه فى مراكب كثيرة، وأغاروا على برقة، وقتلوا ونهبوا، وأخذوا معهم فى عودتهم، لمراكبهم عدداً من الأسرى، رآهم زهير، وعدد من صحبه، فى طريق عودتهم بعد أن سمح لجيشه بسرعة الرجوع وتريث هو، فصمم زهير ومن معه على ضرورة إنقاذ الأسرى، ويمكن تصور ما آلت إليه نتيجة الاشتباك، إنها قريبة من نتيجة معركة تهودة.[١٢٥] وأصبحت نهاية زهير قريبة الشبه من نهاية قائده عقبة[١٢٦].

١٢٣- انظر ابن الإثير: الكامل جـ٣ ص ٤٠٣، ٥٠٥.

١٢٤- انظر الدكتور العدوي: الأمويون والبيزنطيون ص٢٤٧، ٢٤٨.

١٢٥- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ٢ ص٢١.

١٢٦- يختلف المؤرخون فى تصوير ظروف لقاء زهير والمدد البيزنطى، بحيث يظهر عند بعضهم على شكل المصادفة، إذ يشير ابن أبى دينار إلى أن زهيراً إلتقى بهذا المدد البحرى على الساحل أثناء قفوله إلى المشرق، عقب إنتصاراته فى افريقية، فرأى هذا الأسطول على سواحل برقة، ورأى البيزنطيين يصحبون معهم جملة من المسلمين أسارى، فحاول إنقاذهم.

فى حين يوضح نص ابن خلدون أن الأمر لم يكن مصادفة، وأن أسطول صاحب القسطنطينية القادم كان لقتال زهير، "واعتراضه" بسواحل برقة ويقول: "واعترضه (يعنى زهيراً) بسواحل برقة، وأسطول صاحب قسطنطينية، جاهز لقتاله، فقاتلهم واستشهد، رحمه الله تعالى."

والذى يؤكد التعمد وعدم المصادفة، إشارة سبقت لابن عذارى أوضح فيها ان الروم بلغهم خروج زهير من إفريقية إلى برقة، وأنهم خرجوا إليها فى مراكب كثيرة.

ووصل خبر استشهاد زهير وصحبه إلى عبد الملك بن مروان فتأثر به، لكن كان عليه أن يتريث حتى ينهى صراعاً طويلاً وأساسياً مع عبد الله بن الزبير[١٢٧] ليكون الرد الشافى، وتكون الجولات الفاصلة.

حسان بن النعمان (أو استقرار فتح إفريقية)

يحسن أن نقدم لجولات حسان بن النعمان فى إفريقية بظروف كل من الدولة الإسلامية وإفريقية عقب استشهاد زهير بن قيس البلوى، بإيجاز.

فأما ظروف الدولة الإسلامية، فان الصراع الذى كان دائراً بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، لما انتهى واجتمع المسلمون على خلافة عبد الملك، نظر بجد شديد لهذا الجناح الغربى البعيد فعين حسان بن النعمان (الملقب بالشيخ الأمين) على إفريقية سنة ٧٤هـ وأعد له جيشاً "لم يدخل إفريقية قط جيش مثله" حسب تعبير ابن الأثير[١٢٨].

وأما أحوال إفريقية، فقد عادت بعض السيطرة البيزنطية على أجزاء من الساحل الإفريقى، كما بدأت قبيلة أوربة نفسها فى التقهقر عن مركز الصدارة فى الأوراس، موسعة المجال لقبيلة أوراسية شديدة المراس تدعى

وناتج هذا ظهور مؤشر مهم، إذ التفتت الدولة البيزنطية إلى برقة مركزاً إسلامياً مهماً، وقاعدة عسكرية تستغل فى حركة الجهاد غربا، فأصدرت القسطنطينية أوامرها إلى صقلية بخروج أسطول كبير لضرب هذه القاعدة الإسلامية (برقة) ويمكن ان يلحظ أن دور الأسطول الإسلامى فى هذه المنطقة لم يستغل حتى الآن فى مراقبة الأسطول البيزنطى فى صقلية لاتقاء هجماته على سواحل إفريقية الممتدة.

١٢٧- انظر ابن الأثير: الكامل جـ٤ص١٣٥. وكذا النويرى: نهاية الارب جـ ٢٤ ص ٣٣.

١٢٨- الكامل جـ٤ص١٣٥.

جراوة تقودها امرأة تلقب بالكاهنة، تمكنت من أن تجمع قبائل الأوراس تحت إمرتها، "والبربر والنصارى لها مطيعون، ومنها خائفون"(١٢٩).

جولة حسان الأولى فى المنطقة:

دخل حسان افريقية، بجيش قوامه أربعون ألفا، وكان عبد الملك قد أعطى حسان إذناً مفتوحاً، بأن ينفق على الفتح ما يحتاج إليه من بيت المال فى مصر(١٣٠).

وكان أمام هذا الجيش عدد من العمليات:

أولها: التصدى للجماعات البيزنطية، ومحاولات ضرب قاعدتهم قرطاجنة.

ثانيها: التصدى للتحالف البيزنطى البربرى، الذى استجد بعد هزيمة البيزنطيين فى قرطاجنة.

ثالثها: التصدى للتجمع البربرى الخطير فى الأوراس بقيادة الكاهنة.

وقد نجح حسان فى تحقيق انتصار واضح ضد البيزنطيين فى قرطاجنة، ودخلها، وظفر بكثير مما فيها وممن فيها، وفر من بقى من

١٢٩- جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ٢٥

الوزير الحلل السندسية فى الأخبار التونسية حـ١ قسم ٢ ص٥٣٣، وعن الكاهنة يقول ابن عبد الحكم:"وهى إذ ذاك ملكة البربر، وقدغلبت على جبل إفريقية":فتوح مصر والمغرب ص٢٧٠.

١٣٠- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٣٤

البيزنطيين عن طريق البحر(١٣١).

وأما المهمة الثانية، فكانت التصدى لتحالف بيزنطى بربرى جديد بعد هزيمة القرطاجنيين، وكان موقع هذا اللقاء فى صطفورة، ويبدو من وصف ابن الأثير للمعركة أن أعداد المتحالفين كانت كبيرة، وأن همتهم فى القتال كانت عالية، كأنهم يحاولون تعويض ما خسروه فى قرطاجنة، ولكن النصر كان حليف المسلمين، بعد قتال عنيف، تمخض عن عدد كبير من قتلى التحالف البيزنطى البربرى، كما نتج عن هذه المعركة بسط يد حسان فى البلاد(١٣٢).

وتراجع البيزنطيون إثر هذه الهزيمة إلى مدينة باجة وتراجع البربر إلى بونة، فى حين اضطر حسان إلى التوقف فى القيروان بسبب كثرة ما لحق بجيشه من الإصابات بعد هذه المعارك العنيفة، طلباً للشفاء والراحة.

أما الخطوة الثالثة، فكانت التصدى للتجمع البربرى الضخم والشرس فى منطقة الأوراس، بقيادة الكاهنة من قبيلة جراوة، وهى التى تمكنت من تجميع هذه القوى ورئاستها بعد مقتل كسيلة الأوربى. وكان حسان قد أدرك أن هذا التجمع له خطورة قصوى، وأن لزاماً عليه أن يتصدى له، وأنه إن تمكن من الانتصار عليه، فلن تخالفه البربر بعد ذلك(١٣٣).

١٣١- ابن الأثير:الكامل جـ٤ ص١٣٥.

١٣٢- وعن جولة حسان هذه يقول ابن الاثير فى الكامل جـ٤ ص ١٣٥ "ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له فى صطفورة وبنزرت، وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم، ولقى منهم شدة وقوة، فصبر لهم المسلمون، فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم، واستولوا على بلادهم، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطئه"

١٣٣- نفسه

والتقى المسلمون والتجمع الأوراسى على نهر تينسى (أطلق عليه فيما بعد نهر البلاء) وكان اقتراب المسلمين من قوات البربر قد صادف آخر النهار، وقرر حسان عدم المبادرة بالقتال ليلاً، لكراهيته القتال فى ذلك الوقت، وللاستعداد وأخذ قسط من الراحة، ولكن يبدو أن المسلمين أصابهم التوتر والتعب بسبب هذا الانتظار ولصعوبة الاستراحة وأخذ قسط من النوم "فبات الناس على سروجهم حتى أصبح"(١٣٤) فانهزم المسلمون بعد أشد قتال، وأصيب وقتل منهم عدد كبير، وأسر ثمانون رجلاً، وحرصت الكاهنة على مطاردة حسان حتى خرج من إفريقية، إلى حيث استقر فى برقة هو وجيشه(١٣٥).

الجولة الثانية لحسان:

بقى حسان بن النعمان مقيماً على الأطراف الشرقية الإفريقية حيث أمره الخليفة، محتفظاً فى الوقت نفسه بعدة مدن إفريقية كطرابلس والقيروان حتى سنة ٨١هـ، بانياً عدة قصور محارس للشواطئ سميت بقصور حسان(١٣٦) إلى أن جاءه المدد، من رجال ومال، من قبل الخلافة التى لا بد أن يكون قد أهمها وأزعجها نبأ تلك الهزيمة، وصدر الأمر بقتال الكاهنة.

وقد عمل حسان- هذه المرة- على الأخذ بأسباب الحيطة وتمام الاستعداد، وتلمس الطريق لمعرفة أحوال البربر(١٣٧)، فعرف أن التجمع

١٣٤- الوزير: الحلل السندسية جـ١ قسم٢ ص ٥٣٣.

١٣٥- ابن ابى دينار: المونس ص ٣٤.

١٣٦- نفسه.

١٣٧- -هناك قصة أوردتها المصادر عن أسير مسلم احتفظت به الكاهنة بعد انتصارها على حسان ،وتبنته ، وهو خالد بن يزيد، وأنه كان عيناً للمسلمين. استعان

الأوراسى أصابه الوهن وأن التفكك بدأ يدب فى أوصاله، والقبائل البربرية- خاصة البدوية منها- لا تصبر عادة على رئاسة قبيلة أخرى مدة طويلة، وخاصة أن أسباب هذه التجمع، أو هذا الخضوع لرئاسة قبيلة، ظهر لهم أنها تلاشت برجوع المسلمين تجاه الشرق عند هزيمة حسان من الكاهنة.

زاد على هذا أن الكاهنة لم تحسن التفكير، فهى حين أرادت أن تقلل من فرص استخدام المسلمين للحصون البيزنطية المتناثرة فى أنحاء الإقليم أو الإفادة منها، هدمتها، ففقدت بذلك تعاطف البيزنطيين، كما لم تكسب من وراء ذلك أمراً مؤثراً فى العرب، فهم لا يميلون فى ذلك الوقت للأسوار، فاعتمادهم على الكر والفر فى المقام الأول.

ولما أرادت الكاهنة أن تحصل على مزيد من الأموال أرسلت جندها ينهبون القرى والمدن بحجة ألا تقع الأموال فى أيدى المسلمين، أو بحجة أنها تفقد المسلمين بذلك غرضاً رئيسياً لهم، وهى فى هذا أيضاً مخطئة، لأن الجهاد والدعوة كانا هدف المسلمين الأول لا الغنائم ولا الأموال.

وخطأ آخر وقعت فيه الكاهنة، لما أرادت أن توجد منطقة عازلة قاحلة بينها وبين المسلمين، فأحرقت مساحات واسعة من الأرض الخصبة الخضراء، مما أفقدها تعاطف البربر، وبهذا تكون الكاهنة قد فقدت تعاطف كل من البيزنطيين والبربر كما فقدت سلطانها على التجمع الأوراسى[١٣٨].

به فى معرفة أحوال البربر الداخلية. انظر فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٠ والكامل جـ٤ ص١٣٦، والنويرى جـ٢٤ ص٣٦.

١٣٨- وإلى هذا يشير ابن الأثير فى الكامل جـ٤ ص٧٤ ناقلاً عن الكاهنة قولها "إن العرب يريدون البلاد، والذهب و الفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى، ولا

وزاد استياء البيزنطيين والبربر بإفريقية من أفعال الكاهنة، فهي قد "عملت بأهلها الأفاعيل القبيحة، وظلمتهم الظلم الشنيع"(١٣٩)، وأدى هذا الأستياء والشعور بالظلم إلى استغاثتهم بحسان من الكاهنة، وإلى حسن معاملتهم لحسان ومساعدته(١٤٠).

ويمكن من هذا تصور سهولة عودة حسان إلى إفريقية، ولم يبق لإكمال سيطرته عليها إلا القضاء على الكاهنة والسيطرة على بربر الأوراس، ويمكن تصور صعوبة القتال، وأنه اشتد حتى ظن الناس أنه الفناء(١٤١). ثم انتهى الأمر بانتصار المسلمين انتصارا حاسما، استثمره حسان في فرض سلطانه على إفريقية كلها، "وأقام حسان بموضعه حتى استقامت البلاد "(١٤٢)، وأمن سكانها، كما كتب عليهم الخراج، ونظم أمور البلاد(١٤٣).

أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال، وهذا هو الخراب الأول لإفريقية".

ولعل التخريب الثاني ما نقله الوزير في الحلل السندسية جـ١ص ٥٣٥ بقوله على لسان الكاهنة كذلك".... ولا نرى لكم خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقل طمعهم فيها، فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر و الزيتون.

١٣٩- ابن الاثير: الكامل جـ٤ ص ١٣٧.

١٤٠- نفسه ص ١٣٦، وأيضا النويري: نهاية الارب جـ ٢٤ ص٣٧ وفيه"فلما قرب حسان من البلاد، لقيه جماعة من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة، فسره ذلك، وسار إلى قابس، فلقيه أهلها بالأموال، و الطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء".

١٤١- انظر المرجعين السابقين

١٤٢- ابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب ص ٢٧١.

١٤٣- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٨٧.

وكان البيزنطيون قد أفادوا من عدم ثبات نصر حسان ثم انهزامه من الكاهنة، ثم انشغاله بجولته الثانية ضد الكاهنة فأعد الامبراطور ليونتيوس سنة ٧٨هـ (٦٩٧م) حملة ضد المغرب، قادها البطريق يوحنا، وسهل له مهمته هذه أن من كان بها من المسلمين تركوها له، ولم يجد البيزنطيون أحداً يصبون عليه جام غضبهم سوى أهل قرطاجنة أنفسهم.

وبعد أن انتهى حسان من مشكلة الكاهنة وقتلها، قدم المسلمون مرة أخرى إلى قرطاجنة، واستعمل المسلمون هذه المرة القوة البحرية، وبها تمكن حسان من الانتصار على البيزنطيين فى موقعة بحرية، آثرت بعدها البحرية البيزنطية بقيادة أشهر قادتها الإنسحاب إلى قواعدها فى بيزنطة[١٤٤].

وبهذا يكون أوان انتهاء الصراع البيزنطى الإسلامى فى هذه المنطقة قد كاد يقترب. لقد كان حسان بن النعمان هو القائد الذى على يديه تم الانتصار على البيزنطيين، إذ حدد أهدافه بدقة، وركز جهده أولاً على التجمعات البيزنطية وخاصة فى قرطاجنة، ثم على من تحالف منهم مع البربر فى أوراس، وصار ت له سيطرة على إفريقية وامتدت إلى المغرب الأوسط كذلك.

وكان على حسان بن النعمان أن يؤمن سواحل إفريقية من خطر الهجوم البيزنطى البحرى من قاعدتهم الخطيرة، القريبة: صقلية. وهذا هو صاحب الحلل السندسية يشير إلى اشتداد غارات الروم (البيزنطيين) على المدن الساحلية، ولجوء المسلمين إلى حل مضاد، دون أن يحدد تاريخ هذاالحل،إلا اشارة غامضة، مفادها أن هذا الحل بدأ بعد بناء مدينة القيروان. والأقرب أن

١٤٤- انظر فى هذا الدكتور العدوى: الأمويون و البيزنطيون ص ١٥٨.

يكون ما فكر فيه المسلمون هو إقامة قصور تمثل حصوناً على الساحل يرابط فيها قوم يراقبون الساحل، ويدافعون عنه، وذلك مثل قصور سوسة، والقصور التى بناها حسان ونسبت إليه. وأغلب الظن أن حسان بن النعمان هو الذى وجه الأنظار إلى هذا الحل(١٤٥).

وفى هذا الطور من الجهاد، يبرز دور الأسطول الإسلامى، حيث استعان حسان بن النعمان به فى معركة ضد البيزنطيين إبان استعادته قرطاجنة(١٤٦).

وبهذه الانتصارات، يمكن القول بأن الخطر البيزنطى قد خضد، ولم يعد له تأثير يذكر(١٤٧)، وأن على من يأتى بعد حسان بن النعمان أن يعمل على تثبيت نتائج الفتح، ويوجهه إلى المغرب الأقصى ويزيده توطيداً.

وأخيرا أصبحت إفريقية- تماماً- إقليماً إسلامياً استقر فيه الحكم الإسلامى منذ ذلك الوقت، وحرص حسان على تأكيد هذا الأمر، فبدأ فى

١٤٥- يقول الوزير فى الحلل السندسية جـ١ ص ٣٠٣ مشيراً إلى فكرة هذه القصور:"وذلك انه لما افتتحت إفريقية إشتدت غارة الروم على مدن البحر، فابتنت القصور على السواحل، كقصور سوسة وغيرها، وجعل بها من عبيد أهل القيروان ومن أنتدب معهم، قوم للرباط فكثروا هنالك".

١٤٦- كان يقود الأسطول البيزنطى الذى قابله أسطول حسان، البطريق يوحنا، و انتهى الصراع بانسحابه إلى القسطنطينية. كما مر.

١٤٧-تمكن حسان بن النعمان من بث الأمن فى الإقليم، وتوطيد سلطان المسلمين، يقول ابن خلدون عنه"وأمن البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج..."العبر ٤ ١٨٧

تنظيم الإقليم إدارياً، مثل تدوين الدواوين، وتعيين العمال[١٤٨]، كما حرص على تقوية الناحية العسكرية ببناء قوة بحرية إسلامية ترابط في الإقليم وتكون مسئولة عن حماية شواطئه، فمال إلى مدينة قديمة تسمى ترشيش (أو ترسيس بالمهملتين) واستعان بنجارين من أقباط مصر، فوصل إليه منهم ألف، عاونوا في إنشاء أسطول إسلامي إفريقي، ببناء دار صناعة في هذا الموضع[١٤٩] الذي سيطلق عليه فيما بعد اسم تونس.

كما لم ينس حسان الناحية الاجتماعية كذلك، فحرص على أن يقرب العرب من البربر، وأن يكثر ويعمق التفاهم والاندماج بينهما وأن يشجع البربر على المشاركة في حركة الجهاد، فضم اثنى عشر ألفاً منهم إلى قوامة المجاهدين، وتعتبر هذه الخطوه لبنة بالغة الأهمية في صرح البناء الاجتماعي المغربي، وفي التغيرات السياسية التي ستنتهجها المنطقة أيضاً، سنرى قمتها عند أول فتح الأندلس، حيث مثل عدد المجاهدين(١٥٠) الفاتحين البربر تفوقاً عددياً واضحاً.

وهكذا رأينا جهاد حسان بجولتيه في إفريقية وما يليها غرباً. وكيف أنه بدأ بهذا عهداً جديداً لحركة الفتح، وأنه حقق عدة انتصارات ومنجزات

١٤٨- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٣٨، و المالكي: رياض النفوس جـ١ ص ٣٧

١٤٩- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص٣٨، و الوزير: الحلل السندسية جـ١ قسم٣ ص ٥٦٥، وذكر أن سبب بناء الأسطول حماية إفريقية والإغارة على سواحل الروم".

١٥٠- انظر ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٨٧

عسكرية فـى البر والبحر، وعدة انجازات اجتماعية وإدارية مهمة، كفلت الهدوء والاستقرار للمنطقة.

وبقى أن يستمر هذا الجهاد حثيثاً تجاه الغـرب، وهذا ما لـم نـر حسان يعمله، وخاصة فى منطقة المغرب الأقصى.

موسى بن نصير و اكتمال الفتح

رأينا من قبل، كيف عزل عقبة فجأة عن ولايته الأولى، ثم كيف عزل أبو المهاجر فجأة أيضاً، ثم هذا هو حسان بن النعمان يعزل فجأة كذلك.

والناظر إلى مرات العزل المتكررة هذه، ربما ظن أن الدولة الأموية لـم يكن لها سياسة ثابتة فى تعيين الولاة، ولكن إن صح هذا الظن، ظاهريا، وفـى بعض الحالات، إلا أننا نرى أن السياسة المالية والإداريه للدولة الأموية ربما كانت القاسم المشترك لمرات العزل هذه.

ويهمنا هنا أن نركز على عزل حسان، ذلك أنها صحبت بإرسال مجموعة تفتيشية لحسان، (من أربعين من رجال والى مصر، الذى "امرهم أن يحتفظوا بجميع ما معه"[١٥١]، كما أن هنـاك إشارة عن جوليان إلـى أن من أسباب عزله، إقراره نظاماً ضريبياً ثابتاً فى بلاد المغـرب، وأنـه بذلك أصبح فى عينى الخليفة مشبوهاً فاستقدمه"[١٥٢].

وعينت الخلافة الأموية قائداً جديداً، هو موسى بن نصـير، وقد اختلف فيمن عينه وفى تاريخ تعيينه. فهناك من يشـير إلـى أنـه عين من قبل والـى مصر عبد العزيز بن مروان مباشرة، أى دون الرجوع إلـى الخليفـة، ومعنـى

١٥١- النوبرى نهاية الإرب جـ٢٤ ص ٣٨.

١٥٢- تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٣٢.

هذا أنه عين فى خلافة عبد الملك بن مروان، ولا عجب فى تعيين والى مصر للوالى الجديد- إن كان حدث هذا - لأنه كان ولى العهد وقتذاك، وعليه أيضاً يكون تعيينه قبل منتصف سنة ٨٥هـ، لأن عبد العزيز بن مروان توفى فى ١٣من جمادى الأولى منها.

وأما من أشار إلى أن ولايته جاءت من عبد الملك نفسه أو الوليد فان تاريخ تعيين موسى يتأخر سنة أو اكثر، إذ توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦هـ[١٥٣]، أو يتأخر تعيينه إلى سنة ٨٨هـ، حسب رواية المقرى[١٥٤]، أو ٨٩هـ حسب رواية النويرى[١٥٥].

ولكن الأقرب هو تاريخ ٨٥هـ لأنه التاريخ الذى يتحقق فيه تعيين عبد العزيز بن مروان له، وربما يمكن التوفيق بين هذا التاريخ وربط ولاية موسى بعهد الوليد، أنه صدر أمر التعيين فى نهاية عهد عبد العزيز، وأن وصول موسى، وبداية ظهور أثر العلميات العسكرية التى قام بها، لم تظهر إلا أول عهد الوليد، فربط به.

أما عن خطة موسى بن نصير فى إكمال الفتح، فيمكن تصور ضرورة إفادته من تجارب الفاتحين قبله، كما يمكن تصور السهولة النسبية فى عملياته، لأن الإقليم كان قد عرف من قبل جهاد المسلمين وبأسهم، وحرصهم على تمام الفتح، كما أن عدداً من البربر لا يستهان به دخل الإسلام، وعرفه، وأن عددا

١٥٣- انظر تحقيق تواريخ وفاة عبد العزيز وعبد الملك ابنى مروان فى ابن الأثير: الكامل جـ٤ ص ٢٣٧.

١٥٤- انظر نفح الطيب جـ١ ص ١٤١.

١٥٥- نهاية الارب جـ٢٤ ص ٣٩.

منهم شارك فى الجهاد من أيام حسان، كما رأينا، بالإضافة إلى ما عرف من مهارة موسى، وحنكته، وحبه للجهاد.

إن خطة موسى تظهر فى خطبة له أوردها ابن قتيبة، ننقل منها "...... فإن كل من كان قبلى كان يعمد إلى الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة"(١٥٦).

اذاً فخطته (تمشيط) المغرب، حسب المصطلح العسكرى المعاصر، وهذا يتطلب منه البدء بإفريقية وتأكيد تمهيدها وتحويلها إلى ولاية إسلامية، ثم الدخول إلى المغرب الأوسط وتوطيد أقدام الفتح فيه إكمالاً لما قام به حسان بن النعمان، ثم ينطلق بعد ذلك إلى المغرب الأوسط، ليفتحه، ويبسط نفوذ المسلمين عليه، ويكمل به فتوحات المغرب التى طال مداها جداً.

وكان عودة حسان قد أعطى الفرصة لبعض العناصر فى المغرب الأوسط فى التحرك، فإن موسى "رأى البربر قد طمعوا فى البلاد"(١٥٧) ومن هنا ضرورة التركيز على قبائل زناتة وهوارة وكتامة من قاطنى المغرب الأوسط والمهيمنين على ذلك الإقليم،وكان يقودهم رجل يدعى طامون، وكان على موسى، لكى يتهيأ له السيطرة التامة على الإقليم، أن يقضى على قوة هذا الرجل ، مثلما سبق لحسان أن قضى على الكاهنة من قبل، وتمكن موسى من القضاء عليه، وأرسله إلى مصر حيث قتل هنالك(١٥٨).

١٥٦- الإمامة و السياسة جـ٢ ص ٦٣.

١٥٧- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٨٧.

١٥٨-انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٤١.

وظهر أثر هذا النصر سريعاً، فبدأت القبائل، وعلى رأسها كتامة، فى طلب الأمان، وإرسال الرهائن، دليلاً على الدخول فى الطاعة وصدق النوايا[١٥٩].

واستمر موسى فى توطيد الفتح بالمغرب الأوسط منطلقاً إلى سحوما، ثم إلى نهر ملوية، متابعاً مراكز المقاومة، مخضداً خطرها[١٦٠] فتم له بذلك السيطرة على المغرب الأوسط.

وكان على موسى بن نصير أن يؤمن شواطئ المغرب الممتدة، ولا يتأتى ذلك إلا بإنشاء أسطول إسلامى قوى، وهنا نرى بعض المصادر تنسب إلى موسى أنه أول من بنى دار صناعة تونس، فى حين أننا قدمنا أن حسان بن النعمان أول من أنشأها بترشيش، موضع تونس الحالية، ولا تضاد فى ذلك، فإن كان حسان أول من بنى دار الصناعة، فإن موسى توسع فى هذا، وزاد عليه بتهيئة الميناء، إذ قيل "إن الذى خرق البحر إلى تونس هو موسى بن نصير[١٦١] فنعمت تونس بمرفأ هادئ.

وتمكن موسى بن نصير فى المغرب الأوسط من إنهاء الخطر البيزنطى. وبسط يد المسلمين فيه وأحكم قبضته عليه ومن هنا يمكن الحكم عليه، بأنه صار ولاية إسلامية مثل جاره المغرب الأدنى.

وأما فى ميدان المغرب الأقصى، وهو ميدان لم يوطد المسلمون فيه أقدامهم من قبل، فيبدو أن أخبار موسى فى المغربين قبله كانت قد وصلت

١٥٩- نفسه.

١٦٠- انظر الدكتور العدوى: موسى بن نصير ٤٠.

١٦١- الوزير: الحلل السندسية جـ١ قسم ٣ ص ٥٦٥.

أهله، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بموسى، فسهل هذا عليه فتح الإقليم بسرعة واضحة، فمال إلى المدن الكبرى ومواطن التجمعات البربرية وحرص على فتح طنجة[١٦٢] وسبتة، وهما قاعدتا الإقليم فنجح فى الأولى، فى حين أخفق فى الثانية، وتركها لحملة قادمة تكون فيها سبتة أكثر نفعاً.

ولم توقف سبتة موسى، بل انتشر فى الإقليم فافتتح درعة وصحراء تافيلالت، والسوس، وسيطر على بلاد صنهاجة والمصامدة، وأخذ رهائن منها، وذلك حوالى سنة ٨٨هـ[١٦٣].

واتخذ موسى بن نصير منطقة متوسطة فى المغرب، يرقب منها أحوال الإقليم، لتكون قريبة من إفريقية والمغرب الأوسط الممهدين، وقريبة فى الوقت نفسه من فتوح المغرب الأقصى الجديدة مراقبة وتثبيتاً، وجعل هذا المركز فى تلمسان[١٦٤].

ولم يكتف موسى بفرض السيطرة الإسلامية على الإقليم، بل رأى ضرورة تأمين هذا الفتح عن طريق دق باب صقلية، التى كان من الممكن أن يتخذها البيزنطيون قاعدة لضرب المغرب، فغزا صقلية[١٦٥].

١٦٢- يقول ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ص ٧٦ عن فتح موسى لطنجة"وهو أول من نزل طنجة من الولاة" وكان يقطنها عدد من قبائل البربر البتر و البرانس وكانوا خارج الطاعة، فتمكن منها وولى عليها والياً ثم عزله بطارق بن زياد.

١٦٣- كانت سبتة "قدماً" لاسبانيا على الشاطئ الإفريقى، فلعل موسى أخر الإصطدام بها لحين البدء فى غزو الجانب الأوربى عبر المضيق.

١٦٤- انظر البلاذرى: فتوح البلدان ص

١٦٥- ابن أبى دينار: المونس ص ٣٦.

كما لم يكتف بالنواحى العسكرية، فحرص على إعادة توطين بعض الجماعات المخوف منها، فنقل عدداً من " الأقاصى إلى الأدانى"[١٦٦] ليكونوا قريبين من يده، بعيدين عن التآمر، أو الانحراف عن الطاعة.

كما حرص موسى على حسن معاملة البربر، وخاصة بعد ما مالوا إلى الطاعة، وأمر أعيان العرب ان يعلموا البربر القرآن وان يفقهوا هذه الجماعة أمور دينهم الجديد[١٦٧].

تبقى نقطة فرعية، وهى ما يلحظه الدارس بفتوح موسى من كثرة ما نقل عن أعداد السبى، حتى فى إقليم المغرب الأدنى المنتهى من فتحه من قبل ولاية موسى بن نصير، كما يلحظ اختلاف الناقلين فى تعداد السبى، ففى حين يذكر ابن عبد الحكم[١٦٨] أن الخمس كان عشرين ألفاً، ذكر النويرى[١٦٩] أن الخمس كان ستين ألفاً، فى حين وصل عدد الخمس عند ابن خلدون[١٧٠] إلى سبعين ألفا، وهى أرقام مذهلة، لايتصور قبولها، والوجه أن هناك مبالغة فائقة فى هذه الأرقام، ولعل رقم عشرة آلاف التى ذكرها ابن أبى دينار[١٧١] يكون مفتاحاً للحل.

١٦٦- الوزير الحلل السندسية جـ١ قسم ٣ ص ٥٦٦.

١٦٧- نفسه.

١٦٨- فتوح مصر و المغرب ص ٢٧٥.

١٦٩- نهاية الارب جـ٢٤ ص ٣٩.

١٧٠- العبر جـ٤ ص ١٨٧.

١٧١- المونس ٣٥.

إن كثرة هذه الأعداد تتنافى مع ما ذكر من سياسة الاستئلاف وحسن المعاملة، وتتنافى مع طبيعة الأمور وهدوء الأحوال، وبدء ميل البربر للطاعة.

وأياً ما كان الأمر فقد أثرت هذه الأعداد فى البربر، وستكون إحدى أسباب شكواهم للخلافة الأموية فى القرن الثانى الهجرى كما سنرى.

وبنهاية فتوح موسى بن نصير للمغرب يئول المغرب للحكم الإسلامى، ويصير ولاية مستقلة، ستتخذ بعد فترة قصيرة قاعدة تغذى حركة الجهاد فى القارة الثالثة التى دعا المسلمون فيها للإسلام، بدأت أولاها فى آسيا، ثم فى افريقيا، والثالثة هذه فى أوروبا، حيث بلاد الأندلس.

إطلالة على القرن الأول الهجرى

الإسلام والعربية:

سبق أن أشرت إلى طول المدة التى تعرض فيها العرب لإقليم المغرب أو أقاموا فيه حتى اكتمل الفتح، وبدأ البربر يعرفون طريقهم إلى الإسلام والعربية وسنتعرض باختصار لطول مدة الفتح وأسبابه، وتطور وانتشار اللغة العربية.

فأما التعامل العربى البربرى، فجدير، قبل أن نعرض لمراحله، أن نشير إلى أن العرب لم يجابهوا شعباً فى فتوحاتهم من قبل مثل مجابهتهم للشعب البربرى، فأما مصر والشام فكانت المجابهة غالباً ضد المحتلين. وأما معظم الفتوحات قبل ذلك فكانت ضد الدولة، ممثلة فى رئيسها وجندها أكثر من كونها ممثلة فى شعبها. ويمكن القول إنه بسبب هذه المجابهة، وبسبب تدخل قوى أخرى مساعدة، كانت المجابهة على الجناح الغربى طويلة وصعبة.

وربما زاد فى صعوبة هذه المواجهة طول خطوط الإمداد، وعدم استقرار الجند الإسلامى فى قاعدة داخل الإقليم إلا بعد مدة ليست بالقليلة، وعدم معرفة العرب المعرفة المطلوبة للغة البربرية، مما يمثل حاجزاً لغوياً له تأثير ضخم فى عدم إمكان التفاهم السلمى، أضف إلى ذلك عدة صعوبات خاصة بقوة أجنبية هى قوة البيزنطيين، وعدة مشاكل إسلامية تدور معظمها حول منصب الخلافة أواخر عهد عثمان، وعهد على بن أبى طالب ثم فى عهود متفرقة زمن الدولة الأموية.

ويلاحظ أن قادة الفتح قد اختلفوا فى طريقة معاملتهم للبربر، أو فى الأسلوب المتبع فى الفتح، من بين متخذ أسلوب القتال الحاسم، أو سياسة الاستئلاف والتجميع، أو أسلوباً مزدوجاً. بيد أن هذه السياسة أو تلك، لم تكن تمليها أهواء القادة، بل كانت تتدخل فيها، فى مواقف كثيرة، سياسة البربر أنفسهم، وتدخل القوة البيزنطية.

وقد استمرت سياسة القادة الفاتحين تتجه إلى هذا الأسلوب أو ذاك، حتى هيأ الله قلوب عدد من البربر فدخلوا الإسلام طواعية واقتناعاً، فبرز الإسلام عاملاً مميزا وأساسياً لإتمام الفتح، وما أن اقتنع بعض البربر بالدين الجديد حتى تمسكوا به، ودافعوا عنه، وحاولوا جهدهم أن ينشروه داخل الإقليم وخارجه، وكان لهم دور محمود فى هذا الشأن.

الإسلام فى المغرب

استمرت الفتوحات الإسلامية فى منطقة المغرب الكبير، مدة أطول مما استغرقتها الفتوحات التى سبقتها، وربما كان بدء الانتشار الواسع للإسلام بعد إنشاء القيروان، لأن الفترة التى سبقت إنشاء هذه المدينة كانت مليئة بالنشاط العسكرى، ولم يكن المسلمون وقتها مستقرين فى مكان بعينه، وبعد إنشاء القيروان تمكن المسلمون من الاتصال السلمى مع أهل المغرب، وهنا تبرز سماحة الإسلام، وحضارته، كأدوات جلب طيبة وناجعة لنفوس البربر، أضف إلى هذا بساطة العقيدة الإسلامية وسهولة تقبلها.

وظل البربر يقبلون على الإسلام فى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول، وقامت الدولة الأموية بجهد كبير فى سبيل دعوة أهل المغرب إلى الإسلام، ويحفظ التاريخ للخليفة عمر بن عبد العزيز مكانة كبيرة فى هذا المجال، وحرص عمر بن عبد العزيز على أن يرسل العديد من الفقهاء ومن التابعين إلى هذه المنطقة ليدعوا الناس إلى الدين ويعلموهم مبادئه[١٧٢]، انطلاقاً من سياسته التى تعتمد على الدعوة.

وقد أشارت المصادر إلى أن رأس المائة الأولى شهدت تحول الكثيرين من أهل المغرب إلى الاسلام[١٧٣]، فى حين بقى قليل منهم على ديانته الأولى

١٧٢- انظر جهود عمر بن عبد العزيز لنشر الإسلام فى المنطقة د. أحمد شلبى الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامى ص ١٦٧-١٦٩.

١٧٣- انظر على سبيل المثال: ابن خلدون العبر جـ٦ ص ١٠٣، وابن ابى دينار المونس ص٨ ابن عذارى البيان المغرب جـ١ ص ٣٧، ٤٥.

وفى الحديث عن الارتدادات، نهتم بها - من منظور التطور السياسى - دون التركيز على أسباب هذه الارتدادات القليلة، وهل هى أسباب مالية أو اجتماعية أو دينية، وطبيعى أن تكون الجماعات المرتدة من داخل البلاد، وأن تكون من الجماعات التى لم يستقر الإسلام فى قلوبهم استقراراً تاماً، وهى فئة قليلة(١٧٥).

وبينما كان الإسلام مستقراً على الساحل، وتقوم به دراسات إسلامية عالية المستوى، كانت الحال بالداخل تختلف، فقد تجمعت بعض القوى المناهضة للإسلام وراحت تدفع بعض الطامعين إلى ادعاء النبوة، وأيدهم آخرون بدافع الجهل أو العصبية. ومن أوائل هؤلاء المتنبئة الكذابين صالح بن طريف، أوائل القرن الثانى الهجرى، فقد ادعى النبوة، وزعم أنه نزل عليه كلام موحى به، واستمر ادعاء النبوة فى أسرة هذا الرجل إلى نهايات القرن الرابع الهجرى(١٧٦). وقد ظهر غير هؤلاء من المتنبئة أيضاً، واستغل هؤلاء جميعاً جهل بعض الأهلين فى المناطق الداخلية، أو سذاجتهم، وحاولوا تضليلهم(١٧٧).

١٧٥- يلاحظ تضخيم كاتب مقالة بربر فى دائرة المعارف الإسلامية لمسألة الارتداد هذه، وتحريفه كلاماً نقله ابن خلدون فى العبر، وهو تضخيم، لم يأت بالدليل، والصحيح أن بعض جماعات من البربر ارتدت عن الإسلام، لكنها عادت إليه من جهة، وكانت قليلة من جهة أخرى، غير قبائل برغواطة، التى انحرفت عن الدين، مدة طويلة.

١٧٦- يرجع صالح بن طريف هذا إلى أصول يهودية، انظر أخبار صالح بن طريف وأسرته فى ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٦٠ - ٦١.

١٧٧- من هؤلاء المتنبئة رجل سمى نفسه (حاميم بن من الله) واعتمد على جهل قبيلته ليدعى النبوة. وقد ذكرت المصادر أخباراً عن نحل هؤلاء المتنبئة، وهى

ومن مظاهر الانحراف عن الدين الإسلامي، والذى وجد فى بعض المناطق الداخلية بالمغرب الأقصى، ما قامت به قبائل برغواطة وهى ظاهرة غريبة فى تاريخ الإسلام فى المغرب الأقصى، فقد استجابت هذه القبائل لصالح بن طريف، الذى أشرنا إليه من قبل، ثم لأبنائه، وأفراد أسرته من بعد ذلك، وكانت استجابتهم قوية واستمرارهم طويلاً، استمر عدة قرون. وكانت هذه القبائل كثيرة متعددة، شملت جراوة وزواغة، وبنى أبى ناصر، ومنجصة، وبنى واغمر، وبنى بورغ، وبنى دمر، ومطماطة، وبنى وزكسينت[178]، واستمر موقف هذه القبائل إلى أن انتهى أمرها فى منتصف القرن الخامس الهجرى.

ومن غريب شرعتهم- وذكر بعضها ابن عذارى، وذكرها بتفصيل أكثر البكرى- أنهم يؤمنون بالأنبياء، لكنهم يؤمنون أيضاً بنبوة صالح بن طريف ومن تولى بعده، ويؤمنون كذلك بالكتاب الذى ألفه لهم ويعتبرونه من الكلام الموحى به. ولهم شرائع تخالف الشريعة الإسلامية فى العبادات من صلاة وصوم، وفى الزكاة وفى الأحوال الشخصية، وفىّ الديات، أما كتابهم الذى وضعه صالح بن طريف لهم، فتكون من ثمانين سورة منسوبة إلى أسماء النبيين كيونس، وبعض الشخصيات الأخرى كقارون وفرعون، وبعض الحيوانات كالجراد والحنش، وفيها أيضاً سورة غرائب الدنيا، وقد ذكر البكرى كل هذا بتفصيل كبير، كما ذكر بعض أجزاء من كتابهم المزعوم هذا[179].

أخبار غريبة ويمكن الرجوع إلى السلاوى: الاستقصاء جـ١ ص ١٦١، ١٧٥. وابن عذارى البيان المغرب جـ١ ص ٢٧١.

١٧٨-انظر البكرى: المغرب ص ١٤٠-١٤١.

١٧٩- انظر عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٣٢٢-٣٢٣. و إلى البكرى فى المرجع السابق ص ٣٨-١٤١ ففيهما الغناء الكثير.

ولم يستطع الأدارسة، على الرغم من جهودهم الواضحة والمحمودة فى نشر الاسلام، وعلى الرغم من إحرازهم عدة انتصارات ضد هذه النحلة الغريبة، أن يقضوا عليها القضاء المبرم[١٨٠] ذلك أن سنة ٣٥٢هـ شهدت استمرار بعض القبائل على هذه المذاهب الغريبة[١٨١].

وقد قابل المرابطون هذه الظاهرة وهم بصدد إقامة دولتهم، فقام عبد الله بن ياسين بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم، لأنهم أهل ضلالة وكفر، ولأنهم ذوو عدد، وكثرة، ودار بين قوة المرابطين الناشئة الفتية وقوة قبائل برغواطة صراع عنيف استمر مدة طويلة، بدأه عبد الله بن ياسين واستشهد فى إحدى معاركه، وأكمله بعده أبو بكر بن عمر وكان أول أعماله الزحف إلى برغواطة، وتمكن أبو بكر من الانتصار عليهم، وقتل منهم عدداً "وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب[١٨٢].

١٨٠- يقول السلاوى: إن ادريس بن عبد الله خرج سنة ١٧٣هـ للقضاء على القبائل التى اتبعت نحلاً غريبة، وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال و الحصون المنيعة، انظر الاستقصا جـ١ص١٤١.

١٨١- ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٣٢٤.

١٨٢-السلاوى: الاستقصا جـ٢ ص١٧-١٨.

اللغة العربية

ودار صراع لغوى بين العربية والبربريـة، واتخـذ هـذا الصـراع شكلاً مخالفاً لما كان بين العربية والقبطية فى مصر، ففى حين تغلبت العربيـة على القبطية تماماً فى مصر بعد عدة قرون، نرى العربية فـى المغرب تتمكن فى عدة مناطق، وتنسحب البربرية إلى أماكن أخرى. وْيقرر الدكتور أحمد مختار أن العربية تمكنت من الانتشار الكبـير فـى ليبيا بسـبب جعلهـا لغـة الدواوين، وبسبب هجرة العرب المستمرة إليهـا، وغـير ذلـك، وإن ظـل للبربريـة وجود جزئى صغير فى ليبيا(١٨٣).فإن كانت العربية فى القرون الأولى بعد الفتح لم تتمكن من القضاء التام على البربرية فـى المغرب الأدنـى، المجـاور لمصر، والنقطة التى يلتقى عندها معظـم القبـائل العربيـة الوافدة، فمـا بـالك بـالمغرب الأوسط، يليه المغرب الأقصى.

١٨٣- د. أحمد مختار النشاط الثقافى فى ليبيا ص ٦٤.

وقد مر الصراع اللغوى بين العربية والبربرية بمراحل ثلاثة[١٨٤]، أولها مرحلة التعادل، والثانية المرحلة التى مال الميزان فيها لصالح العربية، والثالثة الانتصار المستقر للغة العربية.

وقد استمر التعادل إلى نهاية القرن الأول الهجرى، وفيها حول العرب الفاتحون لغة الدواوين إلى العربية، وامتدت المرحلة الثانية لتغطى القرون: الثانى والثالث والرابع من الهجرة[١٨٥].

ويرجع الفضل فى ميل الميزان تجاه لغة العرب إلى الإسلام، الذى به وبحضارته، تمكنت دول مثل الرستمية والأغلبية من زيادة نشر العربية أما لماذا لم تكمل اللغة العربية. انتصارها فى هذه المرحلة؟ فذلك يرجع إلى عدم اختلاط العرب بالأهلين الاختلاط الكافى، ويرجع ذلك إلى وجود عدة عوامل مضادة، منها الشعور القومى عند بعض البربر، ووجود مناطق يصعب على العرب الوصول إليها مثل المناطق النائية والجبلية، وقد استمرت هذه الحالة إلى بداية القرن الخامس الهجرى.

١٨٤- المرجع السابق ص ٧١. وما بعدها.

١٨٥- وفى البيان المغرب لابن عذارى ج١ ص ٣١٨ إشارة إلى جهل بعض البربر بالعربية فى وقت متأخر، فعندما وفد أبو صالح زمور البرغواطى على الحكم المستنصر الأموى بالأندلس سنة ٣٥٢هـ "كان المترجم باللسان العربى عيسى بن داود، وانظر كذلك البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص١٣٤-١٣٥.

وما زالت البربرية تمثل بعض المشكلات فى منطقة المغرب الكبير حديثاً، إذ أطلت برأسها مرات عدة، مرة بسبب حرص الاستعمار الفرنسى على إحيائها، ومرة أخرى لعوامل اجتماعية أو عنصرية .

الفصل الثانى

عصر الولاة

الفصل الثانى

عصر الولاة

أصبحت إفريقية (المغرب) ولاية قائمة بنفسها منفصلة عن مصر بعد تمام فتحها، ويشير النويرى إلى ذلك بقوله: "وأفرد إفريقية عن مصر"، وبهذا يصبح الجناح الغربى كياناً خاصاً يتبع الخلافة مباشرة[1] ويمكن التأريخ- عملياً- لهذا العصر الجديد الذى أطلق عليه (عصر الولاة) بنهاية عهد موسى ابن نصير.

ويمتد عصر الولاة من منتصف العقد الأخير للقرن الأول الهجرى إلى منتصف العقد التاسع من القرن الثانى الهجرى،ويمكن وصف هذا العصر بأنه كان عصر اضطرب وقلاقل، وأن عدداً من المتوثبين على الولاية قد تغلبوا عليها عدة مرات.

وواقع الأمر أن تاريخ المغرب فى القرن الثانى الهجرى، قد تطور جداً عنه فى نهاية القرن الأول من حيث علاقة العرب والبربر، القرن الأول أن يستمر الهدوء، ويزداد انتشار الإسلام ، وتتدفع فقد ظهرت الفتن، والاضطرابات، والتجرؤ على منصب الولاية، فيعيَن بعض الجند والياً

---

[1] -وعندما فتح إقليم الأندلس أضيفت ولايته إلى المغرب ، انظر النويرى نهاية الأرب جـ٢٤ ص٥٦

ارتضوه هم دون الرجوع للخليفة، ودون رضاء العامة، أو أن يستعفى الوالى لخطورة الأحداث وكثرة الشكاية. وقد أشار المؤرخون إلى اضطراب إفريقية وسوء طاعة أهلها أكثر من مرة، وكيف أنها تداعت على بعض الولاة "بأسرها مسلمها وكافرها"(٢)

كما بدأت بعض المذاهب الوافدة إلى الإقليم فى الظهور والتأثير على مجريات الأحداث، وكان الخوارج على رأس هذا الأمر- كما سنرى.

ويهمنا- قبل أن نوجز أحداث هذه الفترة- أن نوضح أسباب هذا الاضطراب أو عنف رد الفعل من قبل الإقليم.

إن مفتاح حل هذه القضية يكمن فى معرفة شخصية البربر، فالبربرى البدوى معتد بنفسه غاية الاعتداد، محب للحرية، يأبى الضيم، ويغضب لما يمس حريته، أو لما يظن أنه يمسها، وقد أثر هذا فى طول مقاومة البربر للفتح الإسلامى، وظهرت هذه المقاومة أكثر وضوحاً فى المنطقة التى تلى طرابلس غرباً لكثرة القبائل البدوية، ولوجود عوامل إضافية هى قوة البيزنطيين المتمركزة فى قرطاجنة الممثلة هى وصقلية وغيرهما لسيطرة الحكم البيزنطى فى الجزء الغربى من البحر المتوسط، وكذا مساندة بعض القبائل البربرية المتحضرة للقوات البيزنطية ضد المسلمين.

كانت بداية العلاقة بين العرب المسلمين والبربر بداية غير حسنة، بدأها البربر بالتشكك فى نوايا العرب، وعدم فهم المغزى الحقيقى لحركة الفتوحات الإسلامية، وهو شىء لم يتمكن المسلمون فى هذه الظروف من إظهار جانب

٢- ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٤١٦

الحق فيه، إلا بعد مرور سنوات طويلة من الصدام، وكان إنشاء القيروان عاملاً مساعداً فى سبيل توضيح الأمور.

وعندما تمكن بعض البربر من إدراك هذا المغزى الحقيقى، بدأت المقاومة تقل، غير أنها لم تكن مطردة فى ذلك، لأن بعض القادة العرب المسلمين لم يحسنوا فهم طبيعة هذه الجماعات البربرية، وأنها جماعات تقتنع، ولا تقهر بسهولة، وأنها تحس أنها صاحبة الأرض، فوقع هؤلاء القادة بذلك فى خطأ جسيم، هو عدم الاستمرار فى حسن معاملة هؤلاء القوم.

وكما تردد معاملة القادة العرب لهذه الجماعات البربرية بين الإحسان وعدم الفهم، تردد هؤلاء البربر بين حسن الطاعة، والارتداد عن هذه الطاعة.

فوجد القادة الفاتحون، نتيجة لهذا كله، معاونة بربرية، أو مقاومة.

ومع انتهاء العمليات العسكرية يكون المغرب قد صار جزءاً من الدولة الأموية، لكن هل يمكن القول أن الفتح الإسلامى قد اكتمل؟

لا استطيع القول بهذا، ذلك الفتح فتحان:

أولهما: فتح عسكرى المظهر (وإن لم يخل من النتائج الإسلامية المطلوبة).

وثانيهما: فتح دينى وهو الغرض النهائى من وراء الحركات العسكرية.

وكان هذا الفتح قد بدأ يؤتى ثماره أثناء العمليات العسكرية المشار إليها، لكنه لم يبد تام الوضوح إلا منذ نهاية المائة الأولى، وفى عهد عمر بن عبد العزيز خاصة، وذلك:

١-بفضل اهتمام هذا الخليفة الأموى بالجانب الأهم فى حركة الفتوحات الإسلامية، أعنى جانب الدعوة، فقام بارسال الفقهاء يقرئون الناس القرآن، ويعلمونهم شرائع الإسلام، ويدعون إلى الدين الجديد.

٢- وبفضل عامل آخر ظهر أثره بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، أقصد الخوارج الذين قاموا بالدعوة، وساعد على نجاحهم عوامل أخرى ستتضح فيما بعد.

ويبدو أن هذين العاملين اللذين أقاما الفتح الدينى، وفدا إلى الإقليم فى وقت جد متقارب، وإن كان يمكن الحكم بأن الداعين من الخوارج كانوا أكثر حرية فى الانتقال وربما أكثر عدداً، فتمكنوا من الانتشار، كما تمكنوا من الوصول إلى التجمعات البربرية فى الأماكن الوعرة والنائية المتطرفة، أو مالوا إليها ابتعاداً عن قبضة الولاة.

ويلاحظ أن أوائل القرن الثانى الهجرى، مع هذا شهد تركيزاً من الولاة عامة على الجانب السيئ فى المعاملة، فكثرت شكوى البربر من سوء معاملة الولاة العرب لهم،وتركزت الشكوى فى عدة مجالات:

١-ففى المجال السياسى والعسكرى، كانت شكوى البربر من أنهم يقومون بواجباتهم خير قيام، دون أن يكون لهم فى مقابل هذه الواجبات حقوق متوازنة، تتفق وتعاليم الإسلام فى هذا الشأن.

٢- فى المجال الاقتصادى تركزت شكوى البربر حول عدم حصولهم على أعطياتهم كاملة، وحول كثرة ما يورد من أموال إلى خزانة الأمويين، كما شكوا من سوء استغلال الأمويين للثروة البربرية، وذلك كله يتنافى مع التعاليم الدينية الواضحة فى هذا المقام، والتى تبين الأوجه الصحيحة

لكل من الإنفاق والموارد، تلك التعاليم التى خرج عليها الأمويون بسبب سياستهم المالية التى ابتدعوها وانتهجوها (٣)، وهناك أيضاً إشارة سريعة إلى التعدى فى الصدقات، كما مال بعض الولاة إلى تقليد سياسة الحجاج فى العراق للصلة التى كانت بينهما إذ كان هذا الوالى "يزيد بن أبى مسلم سنة ١٠٢هـ) كاتباً للحجاج من قبل.

٣- وفى المجال الاجتماعى، لم يعتبر بعض الولاة العرب البربر إخوة لهم فى الدين، بل مالوا إلى اعتبارهم مواليهم، فلم يعطوهم ما كانوا يستحقونه من مكانة، وهو أمر لم يقبله البربرى، كما لم يحرص ولاة الأمويين عامة بعد خلافة عمر بن عبد العزيز، على الشعور الإسلامى عند البربر فأكثروا من إرسال السبايا إلى المشرق هدايا للخلفاء، كما اقترح بعض العمال، (عمر بن عبد الله المرادى، عامل طنجة منذ سنة ١١٦ هـ من قبل عبيد الله بن الحبحاب والى المغرب) تخميس البربر أنفسهم (٤)، فأثر اقتراحه الذميم هذا تأثيراً سيئاً فى نفوس البربر، وأدى إلى قيام بعضهم بفتن سقط فيها عدد من القتلى (كما أشار ابن عذارى).

٣- انظر خطوط هذه السياسة المالية للأمويين فى كتاب الدكتور محمد حلمى محمد أحمد. الخلافة والدولة فى العصر الأموى، وتذخر كتب التاريخ المغربية بأمثلة كثيرة عن سوء استغلال الولاة الأمويين للثروة فى المغرب.

٤-وذلك بزعم أن البربر فىء "المسلمين" وفى ذلك أكثر من مغالطة، فما كان من الممكن اعتبار مسلم فيئاً للمسلم، هذا جانب، ومن جانب آخر فإن تخميس الفىء لم يتفق عليه الفقهاء ولم يقل به إلا الشافعى، وجعل خمسه لأهل الخمس من الغنيمة، وبقية الأخماس الأربعة للمقاتلة وللصالح العام.

عانى البربر من المشاكل ذات الشعب الثلاثة المشار إليها آنفاً واستمرت معاناتهم هذه متوازية مع الدعوة الإسلامية، دون أن يؤثر أسس هذه الدعوة فى رد الولاة الظالمين إلى الحق.

ويمكن اعتبار من انضم من البربر إلى الدين الجديد قسمين اثنين:

قسم انضم إلى الدين عن فهم وحب، وقسم ثان انضم إليه عن غير فهم دقيق، أو عن مجرد متابعة.

ولعل نظرة كل من القسمين السابقين إلى المشاكل المشار إليها كانت مختلفة، فأما القسم الثانى فقد أظهر رفضه لسوء المعاملة وعدم فهم شخصية البربرى، عن طريق الارتداد عن الدين، أو عن طريق الانحراف بمبادئه القويمة (٥).

وأما القسم الأول الذى دخل الإسلام عن فهم وحب، فقد وقع فى مشكلة كبيرة، كيف يعلن عن سخطه على المعاملة غير الطبيعية التى يلقونها من الولاة العرب المسلمين، دون أن يكون فى ذلك أى تفسير خاطئ لموقفهم من الدين الإسلامى نفسه؟

لقد غضب بعض البربر من سوء معاملة يزيد بن أبى مسلم والى المغرب من قبل يزيد بن عبد الملك، وكان هذا الوالى كما وصفه ابن عذارى(٦) ظلوماً غشوماً، فثاروا ضده وقتلوه.

٥- ظلت آثار هذا الانحراف قائمة فى بعض المناطق بالمغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، وقام الأدارسة، ثم المرابطون، بدور كبير فى إنهاء هذه الانحرافات.

٦- انظر البيان المغرب جـ ص٤٨

ولم يكن من الممكن أن يقوم البربر بقتل كل وال ظلوم غشوم، فهو أمر غير مقبول لا من البربر أنفسهم، ولا من السلطة المركزية بطبيعة الحال، فقبل البربر التفهم الظاهرى الذى أبداه الأمويون وانتظروا إلى حين.

لكن سياسة المهادنة الأموية هذه، سرعان ما تغيرت فى عهد هشام، وجاء من ولاته من أعاد المعاملة إلى ما كانت عليه من سوء، وحاول البربر تنبيه الخليفة الأموى، فسافر وفد منهم إلى دمشق (فيهم ميسرة المضغرى الذى سنشير إليه بعد قليل) لكن هذا الوفد لم يمكّن من مقابلة هشام نفسه، لاتخاذه دون محكوميه حجاباً، فلم يقابل هذا الوفد إلا أحد أعوانه (وهو الأبرش الكلبى)، والراجع إلى فحوى النقاش الذى دار بينهما، يجد فرقاً خبيراً فى المنهجين فالأمويون أو ممثلوهم تفكيرهم مادى، والوفد البربرى يعتمد على مبادىء الدين الإسلامى، وعلى رأسها العدل والمساواة فى الحقوق وعاد الوفد إلى بلاده بعد أن تأكد أن الولاة لا يصدرون عن أنفسهم، وأنما هى سياسة الدولة الأموية والخليفة الأموى نفسه.

وإزاء صعوبة التفاهم مع الحاكمين العرب والتعامل معهم، وإزاء عدم التفات الدولة الأموية لمصالح البربر ورغباتهم، بدأت العصبية الجنسية تعمل عملها، وبدأت رغبة البربر فى إيجاد نوع من تحقيق الذات فى النمو، فاتخذوا لتحقيق ذلك عمليا أكثر من وسيلة (كلها يبعد عن مظنة المساس بالإسلام).

أولهما: اتخاذ مذهب الإمام مالك مذهبا خاصاً بهم يتفردون به عن مذهب السلطتين العربيتين الحاكمتين الأموية فالعباسية.

ثانيهما: الانضواء أو الانضمام إلى الفكر الخارجى الوافد إلى الإقليم، والمنتشر بصفة منظمة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى.

وثالثها: الانضواء تحت لواء الثائر العربى، العلوى، القادم من المشرق، ثائراً ضد العباسيين.

ولكن معظم أشكال إظهار الاستقلال فى هذه الفترة- عصر الولاة- كان يتركز- من جانب البربر- على ميل بعضهم إلى حل قضية "الحكم".

ولن نعرض هنا حديثاً عن الخوارج، إذ إن موضعه سيكون الفصل الأول من الباب الثانى، ولكن اكتفى بالإشارة إلى دخول أفكار فرقتين منها هما الصفرية والإباضية، وأن عدة قبائل عرفت هذا الاتجاه فى سائر المغارب الثلاثة(٧). وأن أهم ما جذب بعض البربر إلى هذا الاتجاه كونه اتجاهاً قادماً من المشرق (لم يبتدعوه) وما تضمنته الأفكار الخارجية من عدم اشتراط قرشية الخليفة، ومن الخروج على السلطان الجائر وعزله.

وهناك أسباب أخرى للاضطراب الذى اتسم به عصر الولاة بالإضافة إلى السببين السابقين، أعنى به سوء الإدارة العربية، ووجود خلافات عصبية.

ومن أمثلة سوء الإدارة، ولاية يزيد بن أبى مسلم، وكان مولى للحجاج وكاتباً له، ويشير ابن أبى دينار إلى أن سليمان بن عبد الملك كان فى حبس يزيد وبقى فى سجنه طيلة خلافته وخلافة عمر بن عبد العزيز من بعده، ولم يطلقه إلا الوليد بن عبد الملك، ثم أرسله إلى إفريقية والياً.

٧- يقول ابن خلدون: "ثم ينفض فيهم عروق الخارجية ولقنوه من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية" العبر جـ ٦ ص ١١٠.

فهو اذاً تلميذ الحجاج، ثم نزل سجن سليمان وعمر بن عبد العزيز لم ينقذه إلا الوليد، فلا يستغرب أن تكون إدارته من النمط العنيف القاسي، وقد عانى أهل إفريقية ذلك منه بالفعل.

وأدت سياسة يزيد بن أبى مسلم هذه إلى أن ثار عليه الناس وقتلوه والمؤرخون يذكرون هذا القتل، ويجمعون على أن سببه كان محاولته أن يعاملهم معاملة الحجاج أهل العراق، وأن يبقى الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وإن كان ابن أبى دينار يشير بالإضافة إلى هذا أيضاً- أنه كيل إن الذى قتله من الخوارج".(٨)

ومع هذا التجرؤ على منصب الوالى وقتله، حرص البربر على تقديم تفسير صحيح لموقفهم هذا، فهو ليس من قبيل الثورة ضد الخلافة، ولا الارتداد عن الإسلام، إنما غضبة وانفعال ضد من يسومهم غير ما أمر به الإسلام، وابن الأثير (٩) ينقل رسالتهم المعتذرة إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك:

"إنا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا على ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه، وأعدنا عاملك "(يعنون به محمد بن يزيد مولى الأنصار).

ومن أمثلة الخلافات، ما تكرر من سطو على منصب الولاية فيطرد متوثب الوالى ويحل محله حيث تجرأ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فطرد

٨- انظر ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٣٥١ وابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٨٨ والمؤنس ص ٣٩

٩- المرجع السابق نفسه.

حنظلة بن صفوان الكلبى، الذى كان هشام ولاه فى صفر ١٢٤هـ (١٠). وكان عامله على مصر فوصل المغرب ربيع الآخر سنة ١٢٤ (١١) ثم أخرجه عبد الرحمن من المغرب فى جمادى الأولى سنة ١٢٧هـ (١٢)، وقد حاول أن يعالج الموقف فأرسل إلى مروان بن محمد الذى قبله وولاه إفريقية والمغرب والأندلس (١٣).

وكان هذا العمل فاتحة طريق لعديد من التجرؤ فكما سطا عبد الرحمن على حنظلة، سطا عليه بدوره أخوه إلياس بن حبيب، ثم تغلب حبيب مرة ثانية.

ويمكن أن نصف الفترة من سنة ١٢٧هـ إلى ١٤٤هـ بأنها فترة التغلب والتجرؤ على منصب الولاية، ولعل هذا يرجع- فى أحد أسبابه- إلى أنها فترة وقعت فى نهاية الخلافة الأموية وبداية الخلافة العباسية الجديدة.

ومن الخلافات الداخلية كذلك، ظهور وجه العصبية فى المغرب وتدخل الجند فى طرد الوالى الذى أرسلته الخلافة العباسية، واختيار وال جديد، يظهر هذا عندما عين أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى والياً على إفريقية سنة ١٤٤هـ، لكنه أخرج منها بعد أن "ثارت عليه المضرية، وأخرجوه سنة ثمان واربعين"(١٤) .

١٠- العبر جـ ٤ ص١٩٢

١١- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٨ وايضا ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٤٧٣

١٢- العبر جـ ٤ ص١٨٨

١٣- النويرى: نهاية الأرب جـ ٤ص ٦٢

١٤-العبر جـ ٤ ص ١٩٢

ويفسر النويرى هذا بقوله(١٥)" ثم فسد عليه جنده بعد ذلك وتحدثوا أن المنصور كتب إليه أن يقدم وانه أبى ذلك، فاجتمع رايهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى الخراساني..... من غير أمر أبى جعفر، ولا رضا العامة، إلا أن قواد المضرية تراضوا به"

على أن فترة الولاة- رغم ما فيها من اضطراب لم تخل من فترات هدوء، أو سيطرة من قبل الولاة، فمثال فترة الهدوء ولاية اسماعيل بن أبى المهاجر الذى تولى على عهد عمر بن عبد العزيز، ويجمل ابن خلدون وصف سيرته بأنه "كان حسن السيرة"، ووصف أثره فى الإقليم بقوله: "وأسلم جميع البربر فى أيامه"(١٦) كما يصفه النويرى بقوله" وكان خير وال"، ووصف عصره بأنه قد "غلب الإسلام على المغرب جميعه"(١٧) ،فكان خير عامل لخير خليفة أموى.

إن هذا الهدوء أوائل عصر الولاة أدى إلى نتيجة عظمى، وهى التركيز على الجانب الأهم بعد نهاية حركة الفتح الإسلامى، أعنى مجال الدعوة الإسلامية وقد تمكن عمر بن عبد العزيز من اختيار الوالى المناسب لهذه

١٥- نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٧٦

١٦- العبر جـ ٤ص ١٨٨

١٧- نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٥٦

المهمة، وزوده بعدد من الفقهاء ليعلموا الناس أمور دينهم[١٨]، فأتى هذا الجهد بهذه الثمرة الطيبة.

وفيما يلى بيان بأسماء الولاة خلال هذه الفترة التى شملت جزءاً من الخلافة الأموية وصدراً من الخلافة العباسية:

ثبت الولاة الأمويين والعباسيين

١- محمد بن يزيد — سنة ٩٦هـ

٢- إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر — ١٠٠ هـ

٣- يزيد بن أبى مسلم — ١٠١هـ

١٨- وممن بعثهم عمر بن عبد العزيز، كما يذكر أبو العرب فى كتابه طبقات علماء إفريقية: صبان بن أبى جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور، وإسماعيل بن عبيد (تاجر الله) وطلق بن جابان، وبكر بن سوادة وعبد الرحمن (بن رافع التنوخى وغيرهم (انظر ص ٢٠)

٤- بشر بن صفوان الكلبى	١٠٣هـ
٥- عبيد بن عبد الرحمن السلمى	١١٠هـ
٦- عبيد الله بن الحبحاب	١١٦هـ
٧- كلثوم بن عياض	١٢٣هـ
٨- حنظلة بن صفوان الكلبى	١٢٤هـ
٩- عبد الرحمن بن حبيب (طرد حنظلة وحل محله)	١٢٧هـ
١٠- الياس بن حبيب	تغلباً
١١- عبد الملك بن أبى الجعد	
١٢- عبد الأعلى بن السمح المغافرى	
١٣- محمد بن الأشعث الخزاعى	١٤٤هـ
١٤- الأغلب بن سالم	١٤٨هـ
١٥- عمر بن حفص هزار مرد	١٥١هـ
١٦- يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبى المهلب	١٥٤هـ
١٧- روح بن حاتم	١٧١هـ

١٨- نصر بن حبيب ١٧٤هـ

١٩- الفضل بن روح ١٧٧هـ

٢٠- هرثمة بن أعين (استعفى) ١٧٩هـ

٢١- محمد بن مقاتل ٨١-١٨٤

(عزله الرشيد بإبراهيم بن الأغلب لتبدأ صفحة جديدة وهى ولاية الأغالبة).

الباب الثانى

عصر الدول البربرية الصغرى

الفصل الأول

مدخل إلى الحركات الاستقلالية البربرية

الفصل الأول

مدخل إلى الحركات الاستقلالية البربرية

سبق أن أشرت فى الفصل الثانى من الباب الأول إلى بعض مشكلات عانى منها البربر، واضطر بعضهم إزاءها أن يعملوا لتحقيق ذاتهم واستقلالهم، وأن من أهم هذه الوسائل:

١- اتخاذ المذهب المالكى مخالفة لمذهب الخلافتين الأموية ثم العباسية.

٢- الالتفاف حول الثائر العلوى .

٣- الالتفاف حول أفكار الخوارج.

ويكون تركيزى فى هذا الباب على العامل الثالث لارتباطه الوثيق بأول تجمعات سياسية بربرية شملت المغارب الثلاثة.

ويجدر أن أقدم لهذا بكلمة موجزة عن الخوارج، أصلهم، وانتقالهم إلى المغرب، ليكون هذا توطئة للحديث فى الفصلين القادمين عن أهم تجمعاتهم السياسية سواء الصغير منها أم الكبير.

من المعروف أن جماعة خرجت على علىّ بن أبى طالب بعد التحكيم ، مثلت فكراً معارضاً، هذه الجماعة أطلق عليها عدة أسماء منها الخوارج، وكانت هذه الجماعة تضم عدداً من الفقهاء المجتهدين، ونتيجة لاجتهاداتهم تفرقت هذه الجماعة إلى فرق كثيرة، كان الفكر الدينى مع الفكر السياسى أساساً لها.

ويلاحظ أن بعض هذه الفرق اشتط، فابتعد على حسب درجة اشتطاطه عن أهل السنة، وأن بعضاً آخر كان أقرب إلى الاعتدال فاقترب على حسب درجة اعتداله من مذهب أهل السنة. ومن أهم الفرق المشتطة التى وصلت المغرب، فرقة الصفرية، كما عرف المغرب فرقة الإباضية المعتدلة.

أما كيف انتقل الفكر الخارجى إلى المغرب، فقد سبق أن أشرت إلى أن الدعوة الإسلامية حمل لواءها عمر بن عبد العزيز وشارك فى بث الدعوة رجال، غير رسميين، لكنهم مخلصون أيضاً، هم دعاة الخوارج الإباضية والصفرية ووفدوا من العراق إلى منطقة البربر فنشروا الدين، باعتناق هذه الأفكار السياسية، التى سنرى أنها وافقت هواهم، وانضوى آخرون تحت لواء هؤلاء المعتنقين بغرض الوصول إلى ما يصبون إليه، استعانة بهذا الأفكار السياسية الوافدة، وانكب بعض معتنقى الفكر الخارجى عليه درساً وفهماً، ونبغ آخرون فأرسلوا ليتلقوا مزيداً من الأفكار الخارجية من كبير الخوارج بالعراق، عادوا بعدها إلى المغرب محاولين زيادة نشر المذهب. وقد ظلت العلاقة بين خوارج العراق وخوارج المغرب مستمرة فترة من الزمن، كما سنرى فى أخبار الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط.

واختار الخوارج منطقة المغرب لأنها تمثل منطقة أطراف فى العالم الإسلامى، وربما كانت الدعوة أول الأمر مركزة فى المغربين الأقصى والأوسط، أكثر من المغرب الأدنى مركز الإدارة العربية فى الإقليم على ما ستدل عليه الأحداث بعد ذلك.

وقد أقبل جمع من البربر على الفكر الخارجى، لما فيه من آراء وافقت هواهم، وبخاصة المبدأين الأساسيين الموجودين فى معظم فرق الخوارج إن لم يكن فيها جميعاً، وهما اجتهاد فقهاء الخوارج فى مسألة عدم اشتراط كون

الخليفة من قريش، وإفتاؤهم بوجوب الخروج على السلطان الجائر وخلعه ولو عن طريق القتال.

وعلى هذا يكون اختيار بعض البربر للفكر الخارجي مناسباً لظروفهم ورغباتهم :

أ- لأن الخوارج ثاروا على الخلافة العربية فى المشرق، والبربر ضاقوا بمعاملة الولاة العرب، وودوا العثور على صيغة مناسبة للتعبير عن سخطهم ضد هذه السياسة العربية فى مواطنهم.

ب- ولأن أفكار الخوارج قريبة إلى نفوس البربر، وشعورهم بذاتيتهم ،وبخاصة فكرة الخوارج عن الخلافة، وعدم اشتراط القرشية فى الخليفة لأنهم أرادوا أن يحكموا أنفسهم تحت ظل الدين الإسلامى.

ويلاحظ أن الجماعات البربرية شديدة الحماس انضوت تحت الأفكار الخارجية المتشددة أو اعتنقتها، فاختارت بعض بطون زناتة الفكر الصفرى، ذلك أن قبيلة زناتة كانت من القبائل البربرية شديدة التعلق بالاستقلال ظهر ذلك من تاريخها قبل الإسلام وبعده.

وبعد أن حققت هذه الجماعات الزناتية وغيرها- إلا قليلاً أملها فى الاستقلال، تخلى عدد منهم عن المذهب الصفرى المتطرف، وتركوا الفكر الخارجى، أو مالوا إلى الفكر الخارجى المعتدل المتمثل فى فرقة الإباضية، وذلك أواخر القرن الثانى الهجرى ولم يستمر المذهب الصفرى إلا فى المغرب الأقصى فى شماليه، وفى مدينة سجلماسة جنوبيه.

ويلاحظ على هذا العامل- أعنى انضمام البربر إلى أفكار الخوارج أنه كان متوزعاً على المغارب الثلاثة، وأن قبائل عدة مالت إلى هذا الاتجاه. ومن

هذه القبائل فى المغرب الأدنى: لواتة ونفوسة. وزواغة، ومن قبائل المغرب الأوسط التى مالت إلى اتجاه الخوارج مغيلة ولماية، ومديونة، وبنو يفرن، ومن أهم قبائل المغرب الأقصى التى مالت إلى الاتجاه: مضغرة، ومكناسة، وبرغواطة، وغمارة، يضاف إلى هذا جميعاً عدد من القبائل التى كانت تتوزع بلاد المغرب جميعاً مثل زناتة وهوارة.

كما يلحظ أن هناك عدداً آخر من القبائل لم يشتهر عنها انضمامها إلى اتجاه الخوارج، مثل قبيلة كتامة وقبيلة أوربة، وقد مالا فيما بعد إلى وجهة أخرى، فأما كتامة فمالت إلى الفكر الشيعى وعاضدت الفاطميين وأقامت لهم دولتهم هناك ، فى حين ساعدت أوربة الثائر العلوى فى إقامة دولة الأدارسة.

الفصل الثانى

أهم الدويلات البربرية الصفرية
فى المغرب الأقصى

الفصل الثانى

أهم الدويلات البربرية الصفرية فى المغرب الأقصى

أولاً: دويلة الخوارج الصفرية فى طنجة

تقدم عند الحديث عن دخول حركة الخوارج إلى المغرب، أن المغرب الأقصى دخل ضمن الجهات التى اختارت فكر الخوارج، وسيلة من وسائل التعبير عن عدم رضاهم، وعن ميلهم للاستقلال، وكانت قبيلة مضغرة إحدى القبائل التى عاشت بالمغرب الأقصى وانضوت تحت لواء فكر الخوارج للتعبير عن سخطها.

وتندرج مضغرة تحت بنى فاتن من ضريسة، من البربر البتر، وإخوتها قبائل عدة هى لماية، وصدينة، وكومية، ومديونة، ومغيلة، ومطماطة، وملزوزة، ومكناسة، ودونة. وقد عرف عدد كبير منهم الفكر الخارجى وانضافوا إليه، مثل مضغرة ولماية ومطماطة ومكناسة ومغيلة.

وتعتبر مضغرة من أكبر هذه القبائل، وكان لها نشاط مضاد للفتح الإسلامى، ولهذا وصفهم ابن خلدون بقوله: "وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام، نشبوا فى نشر الردة وضروبها، وكان لهم فيها مقامات".(1)، وعندما تمكن الإسلام من قلوبهم، نراهم يهرعون- بعد هذه المقاومة العنيفة- إلى الجهاد فى سبيل نشر الدين فعبروا المضيق إلى الأندلس فاتحين، واستقر بعضهم هنالك.

1- انظر العبر جـ6 ص 110

وقبيلة كهذه "عرف عنها قبل تمكن الإسلام من قلوب أفرادها الانشقاق والفتن والاضطرابات، يمكن تصور تصرفاتها بعد تمكن الإسلام منها، فهى لم تخضع إلا للإسلام، فإن اختلفت مع حكام الإقليم، فلا نتصورها ترضى بالاحتكاك إلا للإسلام.

لقد شاركت هذه القبيلة فى حركة المعارضة ضد ما رفضوه من تصرفات بعض ولاة الإقليم، وكان لزعيمها ميسرة المضغرى دور بارز فى هذه الحركة، إذ توجه هو ونفر من البربر إلى دمشق لمقابلة هشام بن عبد الملك خليفة المسلمين، ليعرضوا شكواهم عليه، تلك الشكوى التى أبرزها الطبرى، مثلت أهم ما كان يعترض عليه البربر من مسائل اقتصادية واجتماعية، سبق أن أشرت إليها، ولكن أس المسألة كان اختلاف القاعدة التى يحتكم إليها الفريقان، والتى ظهرت فى عبارة جاءت على لسان متحدث الوفد المشار إليه: "لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة، فنحن مسلمون"، وعبر الوفد عن غرضه من هذه الوفادة بقوله: "فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا؟"(٢)

ولم يجد ميسرة ملجأ بعد فشل شكواه هذه إلا الميل إلى فكر الخوارج، تأكيداً للمعارضة وتحويلاً لها من النظرية إلى العمل.

وصادف هذا استعمال عبيد الله بن الحبحاب لعمر بن عبد الله المرادى على طنجة والمغرب الأقصى، وواصل هذه المسيرة التى أمضت البربر حيث " كثر عيثهم بذلك فى أموال البربر، وجورهم عليه" فكانت هذه هى شرارة

٢- الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٥٥ (طبعة الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم).

الثورة التى قادها ميسرة، حيث دفع البربر إلى قتل عمر بن عبد الله المرادى والى طنجة، واستولى البربر بذلك على المدينة.

وتحرك ميسرة معلناً انفصاله بهذا الجزء عن جسم الخلافة الأموية، وعين على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقى، الذى يمتد أصله لبقايا البيزنطيين فى الإقليم، وكان ولاؤه صار إلى العرب.

وكان ميسرة قد أقبل على خطوة سياسية لم يسبق إليها، فأعلن نفسه "خليفة"، وهى خطوة متناهية العظم، لا تتناسب بالمرة مع حجم الثورة، وحجم ما أنجزه ميسرة فى هذه الحركة. إن مبايعة ميسرة بالخلافة تعنى أنه أراد تطوير الصراع والسير فيه لآخر طريقه، وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله: "وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة، داعياً إلى نحلته من الخارجية على مذهب الصفرية"(٣).

وخطوة إعلان الخلافة هذه، تشير بوضوح إلى ميل البربر إلى حكم أنفسهم، والى خطوة أكثر طموحاً وهى إعلان خلافة بربرية فى المغرب، وقد شايع البربر فى هذه المنطقة ميسرة فبايعوه خليفة "وخاطبوه بأمير المؤمنين". ويبدو أن البربر قد اشرأبت نفوسهم لهذه الحركة، وأنهم مالوا إليها بدليل إشارة ابن خلدون إلى ذلك بقوله" وفشت مقالته فى سائر القبائل بإفريقية"(٤)

وعمل ميسرة على توسيع نطاق حركته فتقدم إلى السوس، فقتل عاملها من قبل الوالى الأموى، ليمتد سلطانه على منطقة واسعة بالمغرب الأقصى. ويصور ابن خلدون حالة المغرب الأقصى بقوله: "واضطرم المغرب ناراً،

٣-العبر جـ ٦ ص ١١٠

٤- نفسه جـ ٤ ص ١٨٩

وانتقض أمره على خلفاء المشرق، فلم يراجع طاعته بعد"[٥]، إيذانا بتمام الانفصال، وبابتعاده عن مركز السلطة المركزية فى الشرق منذ هذا التاريخ: سنة ١٢٢هـ.

ويوجز ابن عبد الحكم هذه الأحداث الخطيرة المتشابكة بقوله: "وانتقضت البربر على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة، فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادى، وكان الذى تولى ذلك ميسرة الفقير البربرى ثم المذغرى، وهو الذى قام بأمر البربر، وادعى الخلافة، وتسمى بها، وبويع عليها، ثم استعمل ميسرة على طنجة عبيد الأعلى بن جريج الإفريقى وكان أصله رومياً، وهو مولى لابن نصير، ثم سار إلى السوس وعليها إسماعيل بن عبيد الله فتنة، وذلك أول فتنه البربر بأرض إفريقية [٦].

وهكذا نشأت أول دويلة بربرية ذات طابع استقلالى، فى تاريخ المغرب، فى طنجة وبلاد السوس، تعتمد على أفكار الخوارج الصفرية.

وكان قد صادف إنشاء هذه الدويلة ظروف مواتية، فالبربر يشكون[٧]، وكثير من جند المغرب مبعوثون فى بعث إلى صقيلة، ولم يتمكن والى المغرب من الوقوف ضد هذه الحركة.

٥- العبر جـ ٦ ص ١١٩

٦- فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٣

٧- ابن الأثير: الكامل جـ ٤ ص ٤١٦

وعلى الرغم من عودة الجند المبعوث إلى صقيلة، لأرض المغرب إلا أن نتيجة القتال كانت فى غير مصلحة عبيد الله بن الحبحاب ذلك أنهم "اقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله"(٨)، ثم تحاجز الفريقان، وعاد ميسرة إلى طنجة.

وهناك إشارة سريعة توضح تطوراً غير واضح التفاصيل، فى الخط السياسى لهذه الجماعة الجديدة، فقد سخط البربر على "خليفتهم" وقتلوه "لسوء مسيرته". إن النضج السياسى لهذه الجماعة لم يزل فى درجاته الأولى، ومن ثم يمكن تصور تقلبات وفتن كثيرة واندفاعات فجائية.وارتضى بربر هذه الدويلة الجديدة الناشئة أن يولوا عليهم خالد بن حبيب الزناتى.

ويلحظ فى هذا الاختيار أنه لم ترد إشارة إلى اتخاذ القائد الجديد لقب الخلافة، فهى عودة إذاً إلى الحجم الطبيعى، ويلحظ أيضاً أن القائد الجديد لم يكن من قبيلة مضغرة، فهل هى خطوة أبعد إلى النضج السياسى ابتعاداً عن القبيلة، أم أنه ربما كان لزناتة بعض بطون شاركت هذا التجمع كان منها الزناتى هذا؟

أياً ما كان الأمر، فقد جمع الزناتى جموعه، وواجه بقية جند والى المغرب، وتمكن من الانتصار عليه انتصاراً واضحاً، بعد أن أوقع جند الخلافة فى كمين قتل فيه "حماة العرب وفرسانهم، وكماتها وأبطالها"(٩)، وكان القتلى "وجوه أهل إفريقية من قريش والأنصار وغيرهم "ومن أجل هذا سميت تلك المعركة" بغزوة الأشراف" (١٠).

٨- نفسه

٩- ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ٥٥

١٠- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٤.

وقد تجرأ مزيد من البربر على اتخاذ مثل هذه الخطوة، وكان موضعها هذه المرة، مكاناً أقصى، وأبعد، عن يد السلطة المركزية فى الشرق، فى مكان يقع جنوبى المغرب الأقصى داخلاً فى الرمال، إنه سجلماسة.

وكان يقطن بهذا الموضع المجرد بوادى مليوه من أعلاه إلى مصبه فى البحر شاملاً سجلماسة وتازا وتسول وأنحاءها، جماعةُ من البربر تنتهى إلى ورصطفا بن يحيى، تتكون من ثلاث قبائل كبيرة هى مكناسة وورتناجة ومكفة، وتنقسم كل منها إلى بطون كبيرة، ولكن هذه التجمعات غلبت عليها شهرة مكناسة.

وكانت رئاسة هذه الجماعات فى بيتين، هما بنو واسول بن مصلان بن أبى نزول، وبنو أبى العافية بن أبى نائل بن أبى الضحاك بن أبى نزول، وعنهما يقول ابن خلدون "ولكل واحد من هذين الفريقين فى الإسلام دولة وسلطان صاروا به فى عداد الملوك[٢٠] "فأما بنو واسول فقد سيطروا على سجلماسة وأعمالها، وأما بنو أبى العافية فقد سيطروا على تازا، وتسول، وملوية، وملية.

وكانت هذه القبائل قد دخلت فيمن دخل من قبائل المغرب تحت لواء الخوارج، اتخذوه شعاراً لهم، وتجرأوا بعد حركة ميسرة على القيام بمثل ما قام به، وكانوا قد مالوا إلى الخوارج الصفرية، [٢١] وتحت شعارها تكون فى هذا الموضع من المغرب الأوسط دويلتان أولهما (دولة بنى واسول ملوك

٢٠- انظر العبر جـ ٦ ص١٣٠، ١٣١.

٢١- انظر العبر جـ٦ ص ١٢٩.

سجلماسة وأعمالها) والثانية (دولة بنى أبى العافية، ملوك تسول) كما عنونهما ابن خلدون (٢٢). وفيما يلى كلمة عن دولة سجلماسة الخارجية

١- نشأة دويلة بنى واسول فى سجلماسة(٢٣)

لما هاج المغرب واضطرب البربر بعد أن مال كثير منهم للانضواء تحت اللواء الخارجى للتعبير عن رغبتهم فى الاستقلال، كانت مكناسة إحدى القبائل التى فشا فيها هذا الأمر.

وبدأت بربر مكناسة تكوين أول تجمع سياسى لهم لم يزد عدده عن أربعين "تقضوا الطاعة" وأعلنوا الانفصال، وظهر تكوينهم السياسى باختيار قائد لهم، واختيار قاعدة لملكهم، فاختار هؤلاء النفر أحد رؤساء الخوارج، من موالى العرب، وهو أمر جدير بالملاحظة، فهم فى استقلالهم هذا يختارون رجلاً من موالى العرب، لعلهم بهذا يشيرون إلى أنهم فى هذا الأمر ليسوا بدعة، أو لأنهم لم يتمكنوا أول أمرهم من اختيار رئيس منهم، وكان هذا الرئيس الأول يسمى عيسى بن يزيد الأسود.

وكانت الخطوة الثانية هى اتخاذ قاعدة لهم، فاختاروا موضع سجلماسة، فاختطوا بها قاعدة لهم، وسرعان ما اندفع بربر مكناسة الذين يعيشون بالقرب من هذا المكان للانضمام إلى هذا التجمع السياسى الجديد، وكان ذلك فى سنة ١٤٠هـ.

٢٢- انظر نفسه ص ١٣٠، ١٣٤.

٢٣- يعد العبر لابن خلدون عمدة المصادر التى تحدثت عن أخبار دولة بنى واسول، وغيره ناقل عنه، انظر العبر جـ ٦ص ١٣٠-١٣٢

ومثلما حدث فى دويلة طنجة، عندما ثار بربر مضغرة على أميرهم الذى بايعوه، لأنه" ساءت سيرته فنقم عليه البربر ماجاء به فقتلوه" ثار أيضاً بربر مكناسة على حاكم دويلتهم الجديد وأوصلوه إلى الموت وعن ذلك يقول ابن خلدون: "ثم سخطوا أميرهم عيسى، ونقموا عليه كثيراً من أحواله، فشدوه كتافا، ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين، "لكن فترة بقاء ميسرة فى الدولة الصفرية فى طنجة كانت أقل بكثير من فترة بقاء عيسى بن يزيد الأسود، ففى حين لم يكمل ميسرة عاماً، استمر عيسى حوالى خمس عشرة سنة، وهى مدة جديرة بالملاحظة.

واجتمع أمر بربر دولة بنى واسول على اختيار حاكم جديد منهم، وهو كبيرهم أبو القاسم سمكو بن واسول بن مصلان بن أبى نزول. ويبدو أن اختيارهم هنا كان يقوم على أساس العلم والمكانة فى القوم، فهو كبير فى قومه، وأبوه كان قد حصل على درجة من العلم كافية لأن تزيد من مكانته فى قومه، فهو قد رحل إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ العلم على يد بعض التابعين، وكان مسموع الكلمة فى مكناسة، يدل على ذلك أنه هو الذى نصح قومه باختيار الحاكم السابق لهم فسمعوا وأطاعوا.

ولا نعرف بالضبط متى تولى أبو القاسم، وما يشير إليه ابن خلدون، هو أن الناس اجتمعوا بعد موت عيسى بن يزيد (سنة ١٥٥) "واجتمعوا بعده على كبيرهم أبى القاسم" دون أن يحدد سنة، ثم يذكر أنه توفى سنة ١٦٧هـ "لمنتهى عشر سنين من ولايته" فإما أن يكون يزيد قد توفى سنة ١٥٧هـ (وحدث بين سبع وخمس تحريف) وإما أن يكون هناك بين سنة ١٥٥ وسنة ١٥٧ تراخ أو اضطراب أو حاكم آخر لم يذكر اسمه.

ويلحظ فى حكم هذا الحاكم تطوراً سياسياً مهماً، هو دعوة هذه الدولة للعباسيين"، وخطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس[٢٤] وواضح أنها طاعة شكلية، ففى هذا الزمن المتأخر لم يكن للدولة العباسية سيطرة ذات فاعلية على المغرب الأقصى عامة، وعلى سجلماسة منه خاصة، وهو يتنافى كذلك مع كون الرئيس خارجياً ، ومع كون عامة الناس من الخوارج كذلك.

أما الحاكم الثالث فكان إلياس بن سمكو، أى ابن الحاكم السابق، ويبدو أنه كان معاوناً لأبيه من قبل، يظهر هذا من أن مكناسة كانت تدعوه "بالوزير". ولكن خوارج مكناسة لم يصبروا طويلاً عليه، فانتقضوا عليه". أما سنة الانتقاضة، ففى طبعة بولاق للعبر أنها سنة (أربع وتسعين)[٢٥] وواضح تحريفها البالغ لأنه يتعارض مع مدة حكم أخيه بعده، ويتنافى مع انتقاضهم عليه، ويبدو أن إلياس لم يستمر طويلاً، وأنه أقيل أو عزل قبل سنة ١٧١هـ، وهى السنة التى توفى فيها عبد الرحمن بن رستم، لأن إليسع عاصره، وأصهر إليه، كما سنرى، ويمكن تصور أن السنة هى (تسع وستين) مثلا.

ومرة أخرى يختار بربر مكناسة حاكماً جديداً لهم، وهو اليسع بن أبى القاسم،(وهو أخو إلياس) وعهده جدير بوقفة، فقد استمر حكمه من سنة ١٦٩ (المقترحة) إلى سنة ٢٠٨هـ واتسم عهده بالعمران إذ أتم بناء سجلماسة وبنى سورها "لأربع وثلاثين سنة من ولايته"، وبدت مظاهر الفخامة "واختط بها المصانع والقصور" [٢٦] وهى من مظاهر أبهة، الملك ودليل على ظهور الترف.

٢٤- العبر جـ ٦ ص ١٣٠.

٢٥- جـ ص ١٣٠ .

٢٦- العبر جـ٦ ص ٣٠-١٣١.

وكان لليسع ميول توسعية، فحاول مد سلطانه إلى ما يجاوره من بلاد، فأرسل سراياه إلى ما يحاوره، وامتد نفوذه حتى درعة، وكان له خمس ما خرج من معادنها" (٢٧).

وحرص اليسع على توسيع علاقات دويلته الخارجية الصفرية بالإصهار إلى الدولة الرستمية الخارجية الإباضية فى المغرب الأوسط، فزوج ابنه مدراراً بأروى بنة عبد الرحمن بن رستم حاكم الدولة الرستمية الذى عاصر كلاً من أبى القاسم، وولديه الياس واليسع من حكام بنى واسول فى سجلماسة.

وكانت علامات الملك قد ظهرت على عهد اليسع، ووصلت دويلته إلى أوجها، ويشير ابن خلدون إلى هذا بقوله "وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة" (٢٨).

وبعد وفاة اليسع سنة ٢٠٨هـ تولى ولده مدرار الحكم ولقب بالمنتصر، وامتد حكمه خمسة وأربعين عاماً إذ توفى سنة ٢٥٣هـ، لكن حكمه مع طول مدته لم يكن على درجة حكم أبيه من قبل، بل لم يخل من عدة مشاكل داخلية، إذ نازعه ولده ميمون (من زوجة غير أروى) فى الحكم "وتنازع فى الاستبداد على أبيه، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين.. ولم يلبث أن خلع أباه واستبد بأمره".

٢٧- نفسه ص ١٣١.

٢٨- نفسه ص ١٣٠.

ويلحظ أن هذا هو أول خلاف داخلى فى الأسرة الحاكمة الواسولية ملوك سجلماسة، وهو منعطف واضح فى سيرتهم ولكن ميموناً هذا تسوء سيرته فيخلعه أهل سجلماسة، وأعادوا أباه مدراراً إلى الحكم وتوجه ميمون إلى درعة.

ولا تشير المادة التاريخية إلى اسباب النزاع بين الولد وأبيه، إلا أننا يمكن أن نلمح ميل مدرار لابنه من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم وتفضيله على ابنه هذا ، وربما خشى ميمون (من أم أخرى) أن ينول الأمر إلى إباضية المغرب الأوسط يظهر هذا من تهديد مدرار نفسه بأن يولى ميموناً ابن الرستمية، مما يضطر الأهلين إلى خلع مدرار وإعادة ولده ميمون الآخر من درعة وإرجاعه للحكم، وربما كان اللقب الذى عرف به دليلاً على أنه الأولى بالحكم إذ يشير ابن خلدون إلى أنه عرف بالأمير وذلك قبيل وفاة والده سنه ٢٥٣هـ (٢٩).

٢٩- العبر جـ ٦ ص ١٣١

نهاية الدولة

ولم يبق من عمر هذه الدويلة بعد مدرار إلا حوالى ٤٣ سنة، قضى منها ميمون من سنة ٢٥٣ إلى سنة وفاته فى ٢٦٣، وولده محمد إلى أن توفى سنة ٢٧٠هـ ثم اليسع بن مدرار إلى أن قتل فى صراعه مع طلائع الفاطميين سنة ٢٩٦هـ.

ويلاحظ أن أمراء هذه الفترة وبخاصة الأخير منهم كان على علاقة طيبة مع العباسيين، وكانوا يدينون بطاعة- صورية - للمعتضد العباسى، ولهذا قبض على عبيد الله، وولده أبى القاسم، وحبسه فى سجنه طاعة للعباسيين، مما عرضه لسخط طلائع الفاطميين، وأدى هذا إلى قتله، وإلى سيطرة وقتية للفاطميين إذ ولوا من قبلهم والياً على سجلماسة رجلاً من قبيلة كتامة القائمة بأمر الفاطميين فى المغرب يدعى إبراهيم بن غالب المراسى.

غير أن بنى واسول لم يرضوا بهذا فثاروا بوالى الفاطميين وقتلوه ومن كان معه من كتامة، وذلك سنة ٢٩٨هـ، وبايعوا واسول حاكماً عليهم، غير أنه لم يعمر، ومات فى نهاية القرن، فتولى أحمد أخوه، إلى أن تمكن الفاطميون سنة ٣٠٩هـ بقيادة مصالة بن حبوس من القبض عليه.

وحاول الفاطميون نشر مذهبهم الشيعي في سجلماسة وعينوا من بني واسول والياً عليها من قبلهم، هو ابن عم الحاكم السابق واسمه المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار، "فلم يلبث أن استبد بها" وهي محاولة واضحة لإعادة سلطان بني واسول على سجلماسة، وقد أعاد الطاعة الصورية للعباسيين ولما مات سنة ٣٢١هـ تولى من بعده ولده محمد،فاستمر عشر سنوات ثم مات فتولى بعده ولده الطفل سمكو مده شهرين، كانت الوصية عليه خلالها جدته(٣٠)، لكن تغلب عليه ولد عمه محمد بن الفتح بن ميمون. واستولى على الحكم، ودعا بدعوة العباسيين.

ويلحظ أن محمد بن الفتح كان منطقياً مع نفسه فهو عندما يدخل في طاعة العباسيين لا يستمر على خارجيته، بل يعود إلى مذاهب أهل السنة رافضاً مذهب الخوارج، وهو منعطف أيضاً في سيرة هذه الدويلة، التي اتخذت مذاهب الخوارج لها مذهباً إذ كان معظم حكامها من الخوارج الصفرية، وهم إن غير بعض حكامهم مذهبهم فإلى مذهب الإباضية على قلة ما حدث من ذلك، فمذهبهم خارجي على أية حال.

وقد تلقب محمد بن الفتح بالشاكر بالله، واتخذ خطوة جديدة غير هذه الخطوة المذهبية، إذ ضرب باسمه نقوداً أطلق عليها الشاكرية وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله:

٣٠- انظر العبر جـ ٦ ص ١٣١

"....بالدعوة إلى بنى العباس، وأخذ بمذاهب أهل السنة، ورفض الخارجية، ولقب بالشاكر بالله، واتخذ السكة باسمه ولقبه، وكانت تسمى الدارهم الشاكرية" ، كما ينقل ابن خلدون عن ابن حزم قوله:"وكان غاية العدل"(٣١)

واستمر حكم هذا الحاكم السنى إلى سنة ٣٤٧هـ وكان إعلانه عن سنيته ودعوته للعباسيين، سبباً كافياً لتصدى الدولة الفاطمية له، حيث زحف عليه جوهر الصقلى، بأمر المعز لدين الله الفاطمى، فغلبه على سجلماسة، واستولى عليها وفر محمد الشاكر بالله، ثم وقع فى أيدى الفاطميين بعد ذلك حيث اقتيد إلى القيروان أسيراً.

واستمرت سجلماسة فى قبضة الفاطميين مدة، إلى أن ثار المغرب على الشيعة، وبدأت زناتة تميل إلى أمويى الأندلس، وهنا ينتهز بعض أبناء أسرة بنى واسول الفرصة للثورة، حيث ثار أحد أبناء الشاكر بالله، وحاول أن يدعو للمنتصر بالله بالأندلس، ولكن أحد أخوته يقتله سنة ٣٥٢هـ ويعيد الطاعة إلى الفاطميين.

٣١- انظر العبر ٦ ص ١٣١-١٣٢

وكان هذا إيذاناً بالنهاية، وكانت أخر خطواتها تمكن الأمويين بالأندلس من فرض سلطاتهم على سجلماسة، فكانت نهاية دولة بنى واسول من المغرب، فى حين كانت بالنسبة لأمويى الأندلس "أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار فى المغرب الأقصى" (٣٢).

وأهم ما يلحظ على هذه الدويلة أنها قامت على أفكار الخوارج الصفرية، وأن حكامها دانوا بهذا المذهب إلا عدداً قليلاً منهم نص عليه المؤرخون، تحولوا إلى الإباضية، وإلا حاكماً من أواخر حكامهم وهو الشاكر بالله الذى "رفض الخارجية" و "أخذ بمذهب أهل السنة".

كما يلحظ عليها كذلك أنها حاولت أن تظهر – فى بعض فتراتها رغم استقلاليتها– بمظهر عدم الانفصال، فدعت فى بعض فتراتها للدولة العباسية، وهو أمر غريب فكيف تكون خارجية ثم تدعو إلى العباسيين، وهو أمر لم يحله إلا الشاكر بالله. كما يلحظ كذلك أنها حاولت أن تمد من نفوذها حتى امتد إلى درعة فى العمق الجنوبى مضيفة إليها مساحة واسعة جداً.

وعن علاقات سجلماسة التجارية يلحظ أن موقعها أعطاها مركزاً اقتصادياً جيداً، فهى على طريق القوافل التجارية الداخلية والخارجية إلى بلاد السودان.

٣٢- انظر العبر (جـ ٦ ص ١٣٢)

فأما التجارة الداخلية، فهى على طريق موصلة إلى فاس، وإلى أغمات وإلى درعه، وإلى تلمسان، وهى بهذا متصلة بالمغرب الأوسط. وأما التجارة الخارجية، فهى تقع على الطريق الموصلة إلى أودغشت، ثم إلى النيجر، وعلى طريق أدرار ثم إلى غانا(٣٣).

وهى بهذا تقع على طرق أهم التجارات فى هذه المنطقة، وبخاصة أودغشت و غانا، فهى من أوائل المدن المغربية التى تمر عليها تجارات السودان المختلفة، من ذهب، وأخشاب، وجلود،من عدة سلع استوائية يستفيد منها المغرب، ويتوجه جزء منها عبر الموانى الشمالية إلى أوربا(٣٤).

وكان وقوع سجلماسة على الطرق التجارية المختلفة المتجهة إلى بلاد السودان الغربى، ثم اشتراك أهلها فى هذه التجارات، سبيلاً طيباً لنشر الإسلام والحضارة الإسلامية فى ربوع هذه البلدان الواقعة جنوب الصحراء، ذلك أنه من المعروف عن بعض التجار المغاربة قيامهم بدور ضخم فى سبيل نشر الإسلام فى البلاد الواقعة جنوب الصحراء عن طريق القدوة الحسنة، التى لمسها أهل هذه البلاد فيهم، فأحبوا أن يكونوا منهم، فسألوا عن عقيدتهم، وآمنوا بها.

٣٣- انظر:د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٦ ص ١٩٢-١٩٨.

٣٤-نفسه ص ٢٠٣.

الفصل الثالث

الدولة الرستمية

الفصل الثالث

الدولة الرستمية

رأينا عند حديثنا عن الدويلات الخارجية الصفرية البربرية قلة المعلومات، وشحتها أحياناً، ولكن عندما نأتى إلى أخبار البربر الإباضية نجد انفراجاً ملحوظاً فى كم المعلومات الواردة.

كما يلحظ أمر آخر هو كثرة عدد البربر الإباضيين، ويقدر ابن خلدون عدد تجمعٍ من التجمعات الخارجية بحوالى ثلاثمائة وخمسين ألفاً "كلهم إباضية"(١).

وكان الإباضيون أيام أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة بالبصرة. قد بعثوا داعيتهم سلمة بن سعده إلى إفريقية والمغرب، أوائل القرن الثانى الهجرى، وقد حقق هذا الداعية نجاحاً فى جبل نفوسة، حيث استمال إليه الناس، فالتف عدد منهم حول أفكارهم.

ومالت نفوس البربر هناك إلى الاستقلال، وظهرت عدة إرهاصات لتجمعات مذهبية سياسية إباضية فى إفريقية، عقب انتهاء الدولة الأموية، فتجمع الإباضيون فى طرابلس تحت قيادة رجلين هما الحارث وعبد الجبار، لكن الوقت لم يكن مناسباً، من حيث الزمان (لقوة الخلافة)، ومن حيث المكان (لاقتراب المغرب الأدنى من يد الخلافة)، فتمكن والى المغرب عبد الرحمن ابن حبيب من وأد هذا التجمع قبل أن يكتمل نموه.

١- العبر جـ ٦ ص ١١٣.

ورأى إباضيو نفوسة ضرورة الترتيب وأخذ المزيد من العلم، فأرسلوا بعثاً من أربعة نفر إلى البصرة سنة ١٣٥هـ، ليتلقوا المزيد من علوم المذهب، وكان من هذا البعث عبد الرحمن بن رستم (الذى ستئول اليه أمور الاباضيين فى المغرب بعد فترة)، وهناك فى البصرة اتصل هذا البعث بأبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح، الذى تاقت نفسه للدعوة فى المغرب، فأرسله أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة مع البعث العائد إلى المغرب.(٢)

ووصل أبو الخطاب والبعث إلى إفريقية سنة ١٤٠هـ، ليعيد ما كان حاوله الحارث وعبد الجبار من قبل، وبويع بالامامة بعد سيطرة الإباضيين البربر على طرابلس أوائل سنة ١٤٠هـ.

ومن أهم ما نلحظ فى هذه الفترة الصراع بين الإباضية والصفرية، يمثل الصفرية جموع ورفجومة، ضدأنصار أبى الخطاب، وذلك بسبب كثرة عدد الصفرية، وكثرة شكاية الناس منهم، وقد نتج عن هذا الصراع انتصار الإباضية وضمهم القيروان إلى مناطق سيطرتهم (٣).

وقد تحقق لهذه المحاولة فرصاً من النجاح أكبر من سابقتها إذ استمرت مدة أربع سنوات، وانتشر تأثيرها المذهبى والسياسى إلى عدة أجزاء من إفريقية والمغرب الأوسط، وكان هذا النجاح أيضاً- عاملاً مهما نبه الدولة العباسية، على مدى خطورة هذا الاتجاه، فأرسل العباسيون محمد بن الأشعث

٢- يشير الشماخى الى قيادة أبى الخطاب بقوله: "فاستشار العامة أبا عبيدة فى شأنهم إن أنسوا من أنفسهم قوة، أيؤمرون عليهم واحداً منهم، قال: نعم، وأشار إلى أبى الخياط.." كتاب السير ص ١٢٤.

٣-عين أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم والياً على إفريقية عقب هذا النجاح.

لولاية إفريقية بجيش ضخم، تمكن به من الانتصار على أبى الخطاب وقتله سنة ١٤٤هـ(٤) ليقض بذلك على محاولة مذهبية سياسية كادت تنجع.

وقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن محاولة مواصلة العمل العسكرى من، والى إفريقية، فى هذا الوقت، وفى هذا المكان، أمر مكتوب عليه الفشل، فآثر الركون إلى الهدوء، وإعادة التفكير فى أمر التجمعات الإباضية، بعد أن فشلت محاولتان لإيجاد كيانات سياسية مذهبية لهم من قبل. وسيكون لعبد الرحمن بعد هذا أن يقوم بعمل أكثر إيجابية، وأكثر تخطيطاً.

نشأة الدولة الرستمية

نظر عبد الرحمن، فيما سبق للإباضيين البربر من محاولات، فوجد أن موقع المحاولتين السابقتين ربما مثل أهم أسباب الفشل، فارتأى ضرورة الابتعاد عن يد الخلافة، بالوصول إلى المغرب، ورأى أن المغرب الأوسط سيعطى لحركتهم مزيداً من فرص النجاح، لابتعادها عن يد الخلافة، ولاقترابها لحركات استقلالية أخرى سبقتهم فى المغرب الأقصى، ولوجود عدد غير قليل من بربرها ممن انضموا إلى أفكار الإباضية.

ومن ثم نرى عبد الرحمن يلجأ إلى المغرب الأوسط لتجتمع حوله عدة طوائف من البربر الإباضية، منهم قبائل لماية، ولواتة، وورجالة ونفزاوة(٥) وغيرها، وظلت هذه الأعداد فى ازدياد، يصل بهم ابن خلدون إلى أكثر من ثلث مليون، أوائل النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى- كما مر.

٤- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٧٢

٥- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١١٢

وبدأ عبد الرحمن فى العمل- فى هدوء- لإيجاد التجمع المذهبى السياسى للإباضيين، وكان عليه أن يبنى مجتمعاً بدأه ببناء مدينة لهم فى المغرب الأوسط، هى مدينة تيهرت (=تاهرت).

أما لماذا اختار تيهرت ودون غيرها؟ فهناك عدة أسباب لذلك أهمها أنها قريبة من مواطن قبيلة لمايه التى أحبها وأحبته، ولتوفر الأمرين الهامين فى اختيار أى مدينة أو قاعدة جديدة، وهما المزايا المعيشية والاستراتيجية، فتوفر من الأولى المياه (من الينابيع ومن نهر مينه) والأرض الخصبة، والجوالطيب، وتوفر من الناحية الاستراتيجية توسط المكان بين الأطلس والصحراء، ووقوعه فى سفح جبل، مما بقى من فجأة الغارات.

وقد بدأ البناء سنة ١٤٤هـ، ورغم حرص عبد الرحمن بن رستم على العمل بهدوء حتى لا يثير عليه الوالى العباسى، إلا أن مسيرة الأحداث زجت بالإباضيين إلى الصراع، حيث اشتركوا فى حصار وقتل الوالى العباسى عمر ابن حفص سنة ١٥٤هـ، واستمر النزاع والقتال بين الوالى العباسى الجديد يزيد بن قبيصة بن المهلب، ووصلت المعارك بينه وبين الخوارج عامة (صفرية وإباضية) إلى ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً [٦]، ومع هذا نرى حرص ابن رستم على الموادعة منذ حاول عدم إثارة الولاية العباسية[٧].

ويختلف الدارسون حول تاريخ نشأة الدولة فمنهم من يرجعها إلى البداية الدستورية أعنى اختيار الوالى إلا أن نشأة الدولة لا تكون إلا بتحقق العناصر الثلاثة جماعة ومكان وقائد، وهذا ما لم يتوفر إلا بعد مضى عدة سنوات من

٦- انظر ابن خلدون، العبر جـ ٦ ص ١١٣.

٧- فوادع مهج بن حاتم بن قبيصه (نفسه).

الشروع فى هذا التيار، أعنى إلى سنة ١٦٠هـ، ويرى بعض الدارسين (٨) أن تأخر إعلان الدولة إلى هذا التاريخ كان بقصد.

ويشير الدارسون إلى أسباب هذا الاختيار فهناك عدة مرشحات، منها غزارة علمه، وسابق طلبه له فى البصرة، كما سبق أن أشرنا، وأن أبا الخطاب سبق أن عينه على إفريقية، وعينه من قبل قاضياً، ثم إنه لا يعتمد على عصبية قبلية قد ترتقى إلى درجة الاستبداد بالحكم دون مبدأ الشورى، إذ إن عبد الرحمن يرجع أصله إلى الفرس، والإباضيون يريدون اقامة إمارتهم، أو تجمعهم المذهبى السياسى هذا، لا على العصبية،القبلية ولكن على مذهبية تجمع القوم فى إطار مبادىء معينة، على رأسها مبدأ الشورى.

وبهذا يكون النظام السياسى للدولة الإباضية فى تيهرت (الدولة الرستمية) قائماً على أساس من الاختيار معتمداً على مبدأ الشورى، مع الاستعانة بجماعة الشورى، فيما يشبه البرلمان قوى التأثير، وقد حلا لبعض الدارسين أن يصف هذا النظام بأنه جمهورى ديمقراطى، وإن كنت لا أميل إلى مثل هذه الأوصاف، أو استعمال المصطلحات فى غير أزمانها، أو سحب الأوصاف الحديثة على نظم سابقة.

نمو الدولة وازدهارها

عمرت الدولة الرستمية ما ينيف على قرن ونصف القرن من الزمن وتولاها خلال هذه المدة ستة أئمة ليكون متوسط حكم الإمام أكثر من ربع قرن، وهو متوسط عال، ربما يشير، من بين مؤشراته المختلفة، إلى استقرار نسبى على الرغم مما أحاط الدولة من مشكلات أهمها دولة الخلافة، والمشكلات القبلية التى لا تفتأ تطل برأسها خلال فترات التاريخ الإسلامى

٨- دبوز: تاريخ المغرب الكبير جـ٣.

المختلفة فى المغرب، حتى فى نظم الحكم التى أرادت أن تكون المذهبية أساساً تلتف حوله.

ويمكن تقسيم الدولة بعد نشأتها إلى فترتين: فترة ازدهار، وفترة ضعف وسقوط، وعندما كانت المذهبية سائدة، اختفت عوامل القبلية أو كادت، وازدهرت الدولة، ويمثل عهد الإمام عبد الوهاب، والإمام أفلح عهد ازدهار الدولة.

ومن أمثلة هذا الازدهار استقرار أوضاع الدولة الداخلية واتساع حدودها، فشملت قابس وسرت وقفصة وغداس وغيرها.

كما نما النشاط الاقتصادى، والعمرانى والثقافى.

علاقة الرستميين بجيرانهم

تعددت السمات المذهبية لجيران الدولة الرستمية، من خوارج صفرية، تمثلهم دولة بنى مدرار بسجلماسة ودولة علوية سنية أقامها الأدارسة، ودولة سنية أخرى أقامها الأغالبة فى المغرب الأدنى فى حين كانت الدولتان الآخريان بالمغرب الأقصى، وفى أقصى المغرب عبر الزقاق (المضيق) عاشت الدولة الأموية الأندلسية ، وفى أقصى الشرق كانت الدولة العباسية.

وكانت العلاقات مختلفة بين الرستميين وجيرانهم حسب الاتجاه المذهبى أو حسب التطور والمصالح السياسية.

ففى حين أملى الاتجاه السياسى الخلاف بين الرستميين والعباسيين، أملى ذات الاتجاه علاقات ود وتعاون بين الرستميين والأمويين بالأندلس، على الرغم من سنية كل من الدولتين، ويمكن تصور أن العلاقة بين الأغالبة المالكية والرستميين الإباضية قائمة فى الدرجة الأولى على المصالح

السياسية، على الرغم من أن المفترض فيهما أن تقوم على أساس مذهبي سياسي يفرض على الأغالبة دور العدو المتوثب الطامع في القضاء على الرستميين.

والأغالبة، وهم ممثلو الخلافة العباسية، ومنطقتها الحاجزة بين المغربين الأقصى والأوسط، وسائر بلاد الخلافة إلى الشرق، لم يقوموا بدور الإنهاء على حركات الخروج والاستقلال فيما يليهم من بلاد المغرب غرباً. وإنما كان دورهم متقطعاً، أكثر منه مستمراً وإيجابياً، وحرصت الدولتان على عدم الإفراط في إظهار العداوة، ومال الأغالبة أحياناً إلى الدس والتآمر، وحرص الرستميون على إظهار الموادعة حتى قبل ظهور دولة الأغالبة (٩).

أما علاقة الدولة الرستمية بالدولة الصفرية في سجلماسة، فكانت تقوم على درجة قوية من الموادعة والاتفاق قدر الطاقة، حتى لا تقعا تحت تهديد اي من القوى المناوئة كقوة العباسيين، وقوة الأدارسة الذين مالوا إلى التخلص في المغرب الأقصى من كل نحلة مخالفة، كنحلة برغواطة، ومقاومة الأدارسة للفكر الخارجي في دولتهم (١٠). وقد توجت هذه الموادعة بزواج سياسي إذ تزوج الأمير مدرار بن المنتصر من سجلماسة بابنة عبد الرحمن ابن رستم: أروى.

وفيما يلى دراسة عن الأحوال السياسية للدولة الرستمية، جعلتها في عدة نقاط، عن:

٩- انظر ابن خلدون العبر جـ ٦ ص ١١٣.

١٠- انظر في مقاومة الأدارسة للخوارج في دولتهم د. حسن على حسن: دولة الادارسة بالمغرب ص ٢٥١(رسالة ماجستير) .

- اختيار الحاكم، والخلافات الدستورية حول أسس الاختيار عبر تاريخ الدولة.

- الخلافات القبلية والمذهبية، وآثارها السياسية .

- التطور السياسى فى اتخاذ لقب الحاكم .

- أهم الوظائف فى الدولة.

١- اختيار الحاكم

اعتمد الخوارج- فى عمومهم- على مبدأ الشورى طريقاً لاختيار الحاكم، وبخاصة فى أوائل عهود تجمعاتهم السياسية. ويسمى الحاكم عندهم إماماً. والإمامة عند الإباضية تنقسم أربعة أقسام: إمامة الظهور، والدفاع والشراء والكتمان. وإمامة الحكم هى النوع الأول منها (إمامة الظهور).

ولما أقام الإباضيون سنوات طويلة بلغت حوالى عشرين سنة، اجتمع رؤساء الإباضية فى تاهرت، واستقروا على ضرورة اختيار إمام لهم، يقيم أمورهم، ويرجعون إليه فى أحكامهم، وينصف المظلوم، ويقيم الصلاة، ويحصل الزكاة ويقسمها فى أصحابها.

وبدأ التفكير، أول الأمر، يأخذ صورة تحاول الابتعاد عن التفكير القبلى وإن وقعت فيه وقوعاً خفياً، فابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، يشير إلى أن رؤساء الإباضية فى تاهرت قلبوا أمرهم، فوجدوا فى كل قبيلة أكثر من رجل يدبر أمرها، ويمكن أن يلى الإمامة، ولكن الرؤساء رأوا الإبتعاد عن أى منهم، خشية أمرين:

١- أن تفسد نية الرجل الأخر الذى لم تختره الجماعة.

٢- أن يقدم أهله، ويرفع شأن عشيرته على غيرهم.

ثم استقر أمرهم على عبد الرحمن بن رستم، لأنه "لا قبيلة له يشرف بها، ولاعشيرة له تحميه، وقد كان الأمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضياً وناظراً"(١١)

فهذه هى مسوغات اختيار عبد الرحمن، ويلحظ أن كفايته، واختيار ابن الخطاب (عبد الأعلى بن السمح المعافرى الإباضى)، له تأخرا عن مسوغ عدم وجود قبيلة له يتقوى بها، ويرفعها، وهى محاولة للبعد عن الفكر القبلى، وإن كان يلحظ فيها- مع هذا، وعلى النقيض- مدى وضوح الفكر القبلى فى التفكير السياسى لهذه الجماعة فى هذه الفترة المبكرة.

وقد بدا من تشاور الجماعة التى اختارت عبد الرحمن، مبدأ دستورى هام هو مبدأ الاختيار، ومبدأ آخر هو إمكان عزل الإمام إن لم يعدل، وذلك من قولهم: "فإن عدل، فذلك الذى أردتم، وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه"(١٢).

وسار عبد الرحمن بن رستم أول حكام الدولة الإباضية فى تاهرت سيرة العدل، وتابع الناحية الدستورية، وعاش حياة الزهد، وعمل على تطوير الدولة، وزيادة عمرانها ورخائها، وأكمل أشكال الحكم، بتعيينه- بالإشتراك مع

١١- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٩-٣٠، وبعد اختيار عبد الرحمن ابن رستم قال له الرؤساء: "رضيك الإمام فى ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا" (نفسه ص ٣٠-٣١) ويلاحظ أن أبا الخطاب لما استولى على القيروان طارداً منها الخوارج الصفرية اختار عبد الرحمن بن رستم عاملاً عليها سنة ١٤١هـ وتوجد وثائق نمية تظهر هذا الاختيار، حيث ضرب عبد الرحمن فلوسا تحمل اسمه بالقيروان فى تلك الفترة.

١٢- المرجع السابق ص ٣٠، ويلحظ الأمر القبلى السلبى فى قولهم: "ولم تكن له قبيلة تمنعه، ولاعشيرة تدفع عنه"

المحكومين- رجال الدولة وعمالها، مثل القضاة، وأصحاب الشرطة، وأصحاب بيت المال، والمحتسبين القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتأكد الشكل الدستورى عند اختيار ثانى أئمة الإباضيين فى تاهرت، بعد موت عبد الرحمن بن رستم، إذ تخير عبد الرحمن سبعة من رجال الدولة منهم ولده عبد الوهاب [١٣]، ليقوموا- بعد موته- باختيار أحدهم إماما للإباضيين، وأما بقية السبعة فهم مسعود الأندلسى، وعمران بن مروان الأندلسى، وأبو الموفق سعدون بن عطية، وشكر بن صالح الكتامى، ومصعب ابن سدمان، ويزيد بن فندين.

واجتمعت مجموعة السبعة هذه بعد موت عبد الرحمن بن رستم، وطالت اجتماعاتها، ولم تصل إلى اختيار إلا بعد شهر، وقد أدت مسيرة التفاوض والنقاش إلى انحصار الأمر بين رجلين أولهما فى الترتيب مسعود الأندلسى ثم يليه فى المرتبة الثانية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ولكن الأمر لم ينته إلى هذه النتيجة، إذ زهد مسعود فى الحكم، وتعصبت

١٣- وهذا يذكرنا باختيار مبدأ الاستخلاف المرتبط بالشورى، الذى مال إليه عمر ابن الخطاب (إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى)، وانتهى عمر إلى اختيار الرهط الذى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض، وهم من المبشرين بالجنة، هم على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، رضى الله عنهم، وأضاف إليهم عمر ولده عبد الله مرجحاً (لا مرشحاً) عند تعادل الأصوات، فإن لم يرضوا بجانبه فليرضوا بالجانب الذى فيه عبد الرحمن بن عوف، وهو ما حدث بالفعل، حيث أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الترشيح على أن يرضوا برأيه، فوافقوا (انظر قصة الشورى فى ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٤٥٩).

زناتة والعجم لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٤)، فأما زناتة فلأن أم عبد الوهاب من قبيلة يفرن الزناتية، وأما العجم فلأنهم يمتون بأصولهم إلى الأصل البعيد لعبد الرحمن بن رستم أبى عبد الوهاب، فهذا عصبية قبلية، وتحزب جنسى، ظهرا واضحين فى اختيار ثانى أئمة دولة الإباضيين فى تاهرت، وأثرا فى هذا الإختيار (مع ما كان من زهد المرشح الأول مسعود الأندلسى عن الإمامة)(١٥).

٢ خلافات دستورية

ويبدو أن هذه النتيجة لم ترض بعض المرشحين، فقام يزيد بن فندين معارضاً مرتين:

أ- فمرة، طالب ابن فندين بضرورة عدم انفراد الإمام عبد الوهاب بالحكم، وضرورة وجود مجلس شورى، لا يصدر عبد الوهاب إلا عن رأيه، (وفى هذا لون من تقييد صلاحيات الحاكم، ربما ابتعد عن فكرة الشورى إلى المشاركة فى الحكم).

١٤- انظر البارونى: الأزهار الرياضية ص ٩٠،٩١، وانظر د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٤٦٤-٤٦٥.

١٥- يظهر هنا تطور فى الفكر السياسى الإباضية، فقد أشار أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة إمام اباضية الموصل، وذلك قبل تكون الدولة الرستمية، إلى أنه إذا وصل الإباضية فى المغرب إلى درجة من القوة فى العدد والعدة، ووجب تولية إمام لهم، فإن أبى قتلوه. وكان أبو عبيدة يشير فى هذا الصدد إلى رجل بعينه، هو أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح، وانظر د. الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى ص ٧٧)، هذا فى حين تسامح إباضية تاهرت مع مسعود الأندلسى لما زهد فى الحكم، رغم ميل معظم جماعة السبعة إليه.

وهنا يبرز اتجاه دستورى- فى جدال دستورى عظيم القيمة- إذ ينبرى مسعود الأندلسى، الذى كان أول المرشحين فى الشورى، المشار إليها من قبل، قائلا: " لا نعلم شرطاً فى الإمامة غير أن يحكم بيننا بكتاب الله، وسنة نبيه عليه السلام، وآثار الصالحين قبله" (١٦)، وهنا تنهزم المعارضة، وتتم مبايعة عبد الوهاب.

ب- ولما أخفق ابن فندين فى هذا الدفع الدستورى،لجأ إلى طعن دستورى آخر، حيث طعن فى صحة اختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً للإباضية فى تاهرت، لأن فى جماعة الإباضية من هو أعلم منه، فهو هنا يعتمد على صفة العلم شرطاً من شروط الإمامة (١٧).

وقد أدى هذا الطعن الدستورى إلى انقسام صفوف الإباضية قسمين: نكارية، أنكروا إمامة عبد الوهاب، ووهابية- وهم الكثرة- مالوا إلى مبايعة عبد الوهاب، ثم تطور هذا الخلاف النظرى الدستورى إلى صدام عسكرى، التقت فيه سيوف الإباضية النكارية بالإباضية الوهابية، انتهى بانتصار الوهابية، وتأكيد إمامة عبد الوهاب (١٨).

وهكذا رأينا خلافين دستوريين، تطور ثانيهما إلى قتال، وذلك قبل أن توثق بيعة عبد الوهاب إماماً لإباضية تاهرت بعد موت إمامهم الأول هناك:

١٦- يذكرنا هذا بما قاله عبد الرحمن بن عوف لكل من على، ثم عثمان، فى قصة الشورى لاختيار خليفة بعد: عمر: عُليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله، وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده" (الكامل جـ ٢ ص ٤٦٤) فذلك الذى تحراه مسعود الأندلسى مبدأ دستورى إسلامى سبق تقريره.

١٧- انظر د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب جـ ٣ ص ٣١٨ وما بعدها.

١٨- انظر مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٩.

عبد الرحمن بن رستم. ويلحظ أن نطاق هذا الخلاف الدستورى اتسع حتى شمل إباضية المشرق فى البصرة والكوفة، حيث أرسل الإباضية من هنالك، يشدون أزر عبد الوهاب، ويؤيدون بيعته، مما أكد بيعة إمام الدولة الرستمية الثانى (١٩).

وسار عبد الوهاب أول أمره حسب الشروط الدستورية التى دافع عنه بها عبد الوهاب بن مسعود، وهى أن يحكم بكتاب الله، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبآثار الصالحين قبله، لكن الخلافات المذهبية، والتطور الاقتصادى، والنزاع العرقى والقبلى، أدت جميعها إلى تطور سياسى دستورى، يعبر عنه ابن الصغير بقوله: " فكان ملكاً ضخماً، وسلطانا قاهرا"(٢٠) ويؤكد هذا التطور الدستورى بقوله: "ثم اشتد أمر عبد الوهاب، وقوى عليه، وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك"(٢١).

وهذا التطور يذكر بالتطور الدستورى الذى أصاب شكل الحكم فى الدولة الإسلامية، حيث انقلب من الخلافة أيام الراشدين إلى شكل (الملك العضوض) أيام الأمويين بعدها.

الحاكم الثالث

بعد وفاة عبد الوهاب، لم يكن هنالك كثير خلاف حول تحديد شخصية الحاكم الثالث، إذ كان عبد الوهاب قدم ولده أفلح للأعمال فى حياته، وربما يفهم من نص ابن الصغير "ورشح أفلح للإمارة"(٢٢) أنه بمثابة تعيينه وليا

١٩-انظر الأزهار الرياضية ص ١١٢.

٢٠- أخبار الأئمة الرستميين ص ٤٣

٢١- نفسه ص ٥١.

٢٢- نفسه ص ٥٥

للعهد، ويتفق هذا الفهم مع ما سبق ذكره من تحول الصورة الدستورية للحكم في تاهرت من الإمامة إلى الملك، فلا عجب أن يعين عبد الوهاب ولده ولياً للعهد.

وقد أثبت أفلح بن عبد الوهاب كفاية عالية في حياة أبيه، وتجمع حوله الناس يقضي لهم حوائجهم [٢٣] كما أثبت شجاعة فائقة في حرب هوارة، حتى قال عبد الوهاب: "لقد استحق أفلح الإمامة"[٢٤]، وأثبت شجاعة فائقة في مقاومة منافسي أبيه من الإباضية النكار حين دافع عن تاهرت في غيبة أبيه دفاع الأبطال [٢٥]، كما كان يتمتع بصفة العلم، أشار إلى هذا الدرجيني، وأنه كان يتمتع بهذه الصفة منذ صغره"[٢٦]

والى وصول أفلح إلى الحكم يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد بقوله: "كان من الطبيعي أن تؤول الخلافة إلى أفلح مؤهلاً لولاية إمامة تاهرت"[٢٧]

وبهذا يتقرر مبدأ دستوري جديد للإباضية، في شروط اختيار الحاكم وهو اشتراط العلم والشجاعة، وهكذا حذا فقهاء الإباضية حذو فقهاء أهل السنة في اشتراط هذين الشرطين [٢٨].

٢٣- نفسه ص ٥٥-٥٦.

٢٤- الدرجيني ص ٥٥

٢٥- نفسه ص ٥٤.

٢٦- نفسه ص ٧٧ قال: "قعد بين يديه أربع حلق يتكلمون عنده في فنون العلم قبل أن يبلغ مبلغ الحكم"

٢٧- تاريخ المغرب العربي جـ ٢ ص ٣٣٧.

٢٨- نفسه ص ٣٣٨

وحرص أفلح على أن يتابع سياسة جده عبد الرحمن، فى الحرص على مبدأ الشورى وفى حرصه على إشراك جماعة علماء الإباضية فى الاختيار، وذلك مثل موافقته على اختيار محكم الهوارى ساكن الأوراس قاضياً، رغم تخوفه من حدته، نزولاً لترشيح جماعة العلماء له.(٢٩)

خلافات دستورية فى عهد أفلح(٣٠)

أ- ومع هذا لم ينج أفلح من وجود خلاف دستورى، قاده خلف بن السمح، وطعن فى إمامة أفلح، لكن أسباب الطعن لم تحددها المصادر الإباضية التى رجعت إليها، ولعلها قبلية إقليمية بنواحى طرابلس، وحاول أفلح معالجة الأمر باللين، وحاول أبو عبيدة إسماعيل عامله على طرابلس تحجيم الخلاف واللجوء إلى حل سلمى، وصل حتى إلى الاعتراف بالثائر خلف بن السمح فى حيزه الذى يسيطر عليه، اتقاء للقتال بين الإباضيين، واستخدم عبد الحميد سلاح الجدل قبل السيف والرمح، فتناظر الفريقان، واحتج خلف ببعد مواطن أفلح عن إقليمه فى طرابلس، مما يعطيه- من وجهة نظره حق أن يوجد إمام ثان. لكن هذا الرأى انهزم بتذكير عبد الحميد لخلف، بتبعية السمح والده لوالد أفلح: الإمام عبد الوهاب، والمسافة فى الحالتين واحدة.

ولما لم تنجح المناظرة فى إقرار أمر، لم يكن بد من القتال، فكان النصر إلى جانب عبد الحميد عامل أفلح.

٢٩- ابن الصغير: نفسه

٣٠- انظر طبقات الدرجينى ومختصر تاريخ الإباضية، والأزهار الرياضية وانظر دراسة الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى تاريخ المغرب جـ ٣ص ٣٤٢-٣٥٢.

وقد أفرز هذا الخلاف- كما أفرز خلاف يزيد بن فندين وعبد الوهاب من قبل-ظهور فرقة إباضية معارضة جديدة هى فرقة الخلفية، نسبة إلى خلف ابن السمح هذا.

ب- وشهد عهد أفلح خلافاً دستورياً آخر، تعانق فيه الخلاف السياسى والمذهبى معا، فقد أخذ فرج بن نصر النفوسى- أحد تلامذة أفلح، ثم أحد علماء الإباضية المشهورين الذى زاد علمه برحلة قام بها إلى المشرق- أخذ على أفلح عدة أمور أهمها طول العمامة، واستطالته فى اللحية، وخروجه للصيد،(٣١)، وهى أمور فقهية، نعم، لكن هذا المسائل الفقهية لها تأثيرها فى المجتمع الإباضى، بحيث ينسحب أثرها ليصل إلى الناحية السياسية الدستورية.

وقد اضطر علماء الإباضية المؤيدين لأفلح أن يردوا على هذه الاجتهادات الفقهية (ذات التأثيرات السياسية والإدارية)، بل شارك فيها أفلح نفسه. وكان فرج قد طمع ابتداء أن يكون عاملاً على قنطريرة، فلما اختار أفلح غيره ثار وغضب، على الرغم من كفاءة الوالى المعين.

ونتج عن هذا الخلاف المذهبى والسياسى، ظهور فرقة إباضية جديدة، أطلق عليها الإباضيون المنافسون اسم (النفاثية)، لوصف علماء الإباضية هذا الثائر فرجاً بأنه كان حاسداً استخف به الشره وسوء الخلق وحب الرئاسة، وأنه أضمر فى قلبه الغش والعداوة.(٣٢)

صرخة دستورية فى عهد أبى بكر بن أفلح:

٣١- انظر الدرجينى ص ٧٩

٣٢- انظر الحديث عن فرج وهذه الفرقة : د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى جـ٢ ص٣٤٨ - ٣٥٣

مات أفلح، وبات معروفاً أن الإمامة (أو قل الملك) لن يفوت بيت آل رستم، ونظر الناس، فوجدوا أنه لم يبق من أولاد أفلح يصلح للإمامة- أو للملك- غير أبى بكر، وكان له أخ أصلح منه اسمه أبو اليقظان، لكنه كان خرج للحج، فحبسه العباسيون، فمال الناس، أو ولاة التعيين من نفوسة، إلى أبى بكر.

ومرة أخرى تظهر معارضه دستورية، لكنها لم تكن معارضة عامة، بل معارضة فردية، قام بها أحد علماء الإباضية، ويلحظ اختلاف هذه المحاولة أيضاً فى انعدام رد فعلها، بعكس المعارضات الدستورية السابقة، التى ظهر لها رد فعل سياسى ومذهبى.

وقد أشار ابن الصغير إلى صرخة هذا العالم، واسمه عبد العزيز بن الأوز، وتمثلت صرخته فى قوله: "الله سائلكم معاشر نفوسة، إذا مات واحد، جعلتم مكانه آخر، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم، فتختاروا من هو أتقى وأرضى"، (٣٣) فعبد العزيز بن الأوز هنا ينعى على المسئولين عن اختيار الإمام أمرين:

١- أولهما عدم اتباع نظام الشورى.

٢- وثانيهما عدم الحرص على اختيار الأصلح (من هو أتقى وأرضى)

وقد علق ابن الصغير على هذا الاعتراض الدستورى ببيان انعدام ردود الفعل بقوله: "فلا يلتفتون إلى كلامه، ولا يشتغلون بمقالته"، فلم يأبه به الناس،

٣٣- قارن بذلك بالصرخة الدستورية التى أطلقت فى المشرق ضد الأمويين، فى موقف سياسى قريب متشابه: ما الخير أردتم، ولكنكم أردتموها هرقلية كلما مات هرقل جاء هرقل.

ولم يحرصوا على أن ينشغلوا بما قال، مما يدل على ابتعاد الشكل الدستورى للحكم عن (الإمامة) وعن وسيلتها (الشورى)، وعلى أن الناس ألفوا مسألة (التعيين) أو (الملك)، فلم يعد مستغرباً عندهم أن يلى ابن أفلح: أبو بكر، أو ابنه الآخر أبو اليقطان بعد أخيه، ثم يلى أبو حاتم بعد أبيه أبى اليقظان، ثم اليقظان بعد أخيه أبى حاتم .

ويهمنى هنا أن أبرز رأياً آخر لهذه القضية، يعرضه الدكتور الحريرى، مشيراً إلى عدم اتباع الشورى بقوله:

"ويعتبر خروج الإباضية فى الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام، أو الشورى، نوعاً من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون، حفاظاً على كيان الدولة من التفتت والانقسام، من جراء الفتن والقلاقل التى كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التى تجرى عليها سائر الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب، وهى احترام مبدأ الوراثة"(٣٤).

وفى رأيى، أننا هنا لسنا بإزاء مناقشة "مبدأ الوراثة" ومدى احترام الخوارج له، إننا إزاء قضية أخرى مهمة للغاية، وهى مدى حرص الخوارج على تطبيق أحد أهم المبادئ التى خرجوا من أجل الدفاع عنها وهو مبدأ الشورى. إن التفسير السابق يعتمد – فى رأيى– على إقرار الأمر الواقع، واعتباره (مبدأ) و(أساساً تشريعياً) و (نوعاً من حرية التشريع)، وفى رأيى أن هذا التصرف تجوز"، وخروج عن القاعدة الإسلامية(الشورى) التى طبقتها الدولة بدقة تامة عند اختيار إمامها الأول، وبنجاح عند اختيار حاكمها الثانى، إن هذا الخروج أمر يجب أن يستغربه الدارس من الخوارج خاصة، لأنهم

٣٤– مقدمات البناء السياسى للمغرب العربية: الدولة الرستمية، ص ١٤٢.

اعتمدوا الشورى مبدأ هاماً من مبادئهم، فهذا الأمر من إباضية تاهرت ليس (حرية تشريع) بقدر ما هو خروج عن أصل دستورى من أهم الأصول السياسية للخوارج، ولو أن (حرية التشريع) طبق على الخوارج إبان نشأتهم، لما كان هناك ضرورة لنشأة هذه الفرقة من بادئ الأمر.

لكن الجديد فى اختيار أبى بكر بن أفلح- دستورياً- أن جماعات التعيين من نفوسة لم يكن دورها بارزاً فى هذا الاختيار، بل انبنى هذا الاختيار على أكتاف العامة، ونحن نهتم بهذا الأمر، لقلة ما تورده المصادر من أخبار العامة عامةً، ومن دورها المؤثر فى الأحداث خاصةً، فيكون اختيار أبى بكر حدثاً مميزاً، لقيامه على أكتاف عامة الناس وأصحاب الحرف.

وقد كان أبو حاتم أرسله أبوه أبو اليقظان فى جند ليحموا قافلة كانت قادمة إلى تاهرت، فلم يكن فى المدينة ولا أخوه اليقظان وقت وفاة والده، يقول ابن الصغير مفسراً اختيار أبى بكر:

"وذلك أن أباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان، دون القبائل، فنادوا لا طاعة لأحد إلا لأبى حاتم"(٣٥) .

ويقول من موضع آخر:

"إنه لما مات أبو اليقظان، قامت العوام، وأهل الحرف، ومن لف لفهم قدموا ابنه أبا حاتم، بلا مشورة أحد من الناس، لا من القبائل ولامن غيرهم، وكان أبو حاتم هذا فتى شاباً، وكان يجمع الفتيان إلى نفسه، فيطعم ويسقى"(٣٦)

٣٥- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ص ١٠٤

٣٦- نفسه ص ١٠٢-١٠٣.

وكانت العامة قد سبق لها القيام مع أبى حاتم بهذا الدور نفسه، فإنها لما لم تر أبا اليقظان لم يحضر صلاة أحد الأعياد، ظنوه ميتاً أو قريباً من الموت، فانتهزوا هذه الفرصة فحملوا أبا حاتم على سبيل الجد، (أو ربما على سبيل الهزل الذى يعتاده مثل هؤلاء العوام) وكان تعليق أبى اليقظان بن أفلح على هذا التصرف من ابنه أبى حاتم وأصحابه قوله: "قد أصبح اليوم ابنك باغيا"(٣٧)، وربما دل ذلك على استهتار أبى حاتم، وميله لطيش الشباب.

وما إن تولى أبو حاتم بهذه الصورة، حتى قام بعض أهل تاهرت معارضين، فاتصلوا بيعقوب عم أبى حاتم، ليولوه الحكم، فيستمر فى الحكم أربع سنوات ، استمر النزاع العسكرى بين أبى حاتم وعمه خلالها ، ثم آل الأمر إلى عقد هدنة غريبة، نصت على أن يعزل كل من الحاكم ومنافسه مدة أربعة أشهر، على أن يئول الأمر إلى الناس ليختاروا من يريدونه حاكماً (ولعل هذا يعيد جزئياً الذهن إلى الصراع الذى دار بين على ومعاوية، وأدى إلى التحكيم، وأدى أيضاً إلى ظهور الخوارج أنفسهم).

إن قبول أبى حاتم لفكرة العزل فى الواقع يعد اعترافاً منه بعدم دستورية اختياره، أكثر منها حقناً للدماء، وهو منعطف دستورى، فلو كان الإباضيون قد أخذوا على أبى حاتم ما يجرح فى حاكميته لوجب عندهم عزله، واختيار غيره، حسب بعض مبادئهم، ولو لم يكن، لعد عمه يعقوب باغياً، فلمَ يقبل أبو حاتم الدنية؟ ولمَ يخلع سربالاً تسربل به دستورياً، إن كان تعيينه صحيحاً؟

ومع هذا، فقد تمخض عن هذا الخلاف عمليات انتخابية، ودعايات نجح فيها أبو حاتم فى استقطاب الشباب خاصة، وأهل تاهرت عامة، وأعاد شباب

٣٧- نفسه ص ١٠٣.

تاهرت ما قاموا به، قبل، مع أبى حاتم، فاختاروه حاكماً، وأرجعوه إلى المدينة، ولعل هذا هو الخلاف السياسى، والممارسات الشورية الأخيرة فى الدولة الرستمية، قبل أن ينول أمرها إلى النهاية والزوال.

أثر الخلافات القبلية فى الناحية السياسية:

لم تكن النواحى الدستورية هى السبب الوحيد للخلافات داخل الدولة الإباضية فى تاهرت، بل ظهرت عدة أسباب للخلافات أثرت فى الناحية السياسية، مثل الخلافات القبلية والعصبية الجنسية، والخلافات المذهبية (أو أحياناً خليط بين بعض هذه العوامل أو بينها جميعاً)، بالإضافة إلى النمو الاقتصادى، وما أدى إليه من بطر، ورفاهية، أدت إلى أحداث عدة مشاكل.

أ-فأما الخلافات القبلية: فقد كان لها تأثير كبير على مجريات الأحداث، وقد أخذت هذه الخلافات بين القبائل وأهل الحضر، أو بين القبائل بعضها البعض، تظهر وتختفى، وإلى هذا يشير ابن الصغير بقوله: "إلا أن الضغائن بين القبائل وأهل الحواضر فى الصدور... وبين القبائل حروب تهيج ثم تسكن"(٣٨)

ومن أهم المؤثرات القبلية فى التكوين السياسى لإباضية تاهرت، مساعدة قبيلة زناتة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أول الأمر، مما ساعد على زيادة قوة عبد الوهاب، كما مر، لكن زناتة سحبت مساندتها له عندما بدأوا يدخلون تحت طاعة الأدارسة، فوقفوا ضد عبد الوهاب(٣٩)

٣٨- أخبار الأئمة الرستميين ص ٧٢

٣٩- انظر البارونى: الأزهار الرياضية ص ٩٠-٩٢

وقد يمتزج العامل القبلى مع الخلافات المذهبية، فتكون عامل خطورة على بعض الأئمة الرستميين، مثل اتفاق سدارته، ومزاتة، على ما ظنوه حقاً لهم، فطالبوا بتغيير الإمام الرستمى عبد الوهاب لبعض عماله، وقد أحس مستشارو الإمام الرستمى بخطورة هذا الاتجاه، فعالجوا الموقف معالجة فقهية حيث لم يظهروا عدم استراحتهم للتدخل القبلى، بل ردوا عليه موضحين عدم إقالة القاضى أو العامل، إلا بجرحة (جرم أو خطأ) يرتكبه"(٤٠)

وبدأ أئمة الدولة الرستمية يشعرون بخطورة هذه الأمور القبلية، منذ الإمام الثانى (عبد الوهاب بن عبد الرحمن)، حيث حرص على عدم السماح بائتلاف قبلى يكون فيه خطورة على الدولة، فعندما علم بأن أحد مشايخ هوارة سيتزوج من ابنة أحد مشايخ لواتة، أسرع هو بالزواج من هذه اللواتية، مما أغضب الهوارى، وغضبت لغضبته قبيلته، فتركت تاهرت إلى مضارب تبعد عنها.(٤١) وترتب على هذا العمل نتيجتان: أولهما: كسب عبد الوهاب لود وقرابة لواته، فى حين حرم منها- وهذا هو المكسب الثانى- هوارة، فلم تتق بلواتة.(٤٢)

٤٠- ابن الصغير ص ٤٧-٥٠.

٤١- وقد سجل ابن الصغير اعتراض الهوارى بقوله مشيراً إلى عبد الوهاب: "لقد عمل على فى جارية خطبتها، ورضى إلى بتزويجها، فانتزعها منى بسلطانه، لا سكنت بأرض هو بها" (تاريخ الأئمة الرستميين ص ٥٢)، ويجدر بنا هنا أن تذكر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن عدم جواز خطبة الرجل على خطبة أخيه: (لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه).

٤٢- وضح مستشارو عبد الوهاب له خطورة المصاهرة الهوارية اللواتية بقولهم: "فإن زوجه إياها وقعت المصاهرة، وإذا وقعت المصاهرة صارت نسبة، وإذا انضمت قبيلة إلى قبيلة ناوأك فى البلد" (انظر فى شأن هذا الزواج السياسى المرجع السابق نفسه ص ٥٣-٥٤ وأيضاً الأزهار الرياضية ص ١١٦،١١٨،١٢٥)

واستمرت هذه السياسة فى الدولة الرستمية، وظهرت مرة أخرى فى عهد أفلح بن عبد الوهاب، عندما تغيرت الأحوال الاجتماعية لسكان تاهرت، وكثر العمران وارتفع مستوى المعيشة، وظهرت الرفاهية، استوى فى هذا أهل المدينة والقبائل، فحرص أفلح على ألا تتآمر عليه قبائل أو جماعات متحالفة فحرش بين الجماعات التى يخشى أن تتآمر عليه، فأرش ما بين كل قبيلة على عدم إغضاب أفلح وحرصها على كسب مودته، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها". (٤٣)

أما أثر هذا على أفلح نفسه، فإنه كما يصور ابن الصغير "استلقى على ظهره آمنا، ومد يديه ورجليه مطمئناً"، ومن هنا يمكن أن نلمح انحرافاً سياسياً عن المذهب السياسى للخوارج، الذين أملوا، أو ظنوا أنهم بخروجهم هذا يقيمون سياسة مثالية.

لكن يجدر بنا أن تشير ونحن بصدد الحديث عن العامل القبلى أنه لم يكن فى كل الأحوال عامل نزاع وصراع، بل كان أحياناً عامل تجميع، حيث تجمعت قبائل عدة، مكونة للمجتمع التاهرتى، قبل نشأة الدولة الاباضية أثناء خوف هذه الجماعات من الضغط العباسى عليها، فى مواطن إقامتها الأولى فى المغرب الأدنى، فاضطر بعضها للابتعاد غرباً" إلى المغرب الأقصى بجوار إخوانهم وبنى عمومتهم(٤٤)

ويرتبط بالخلافات القبلية ذات التأثير السياسى قضية وجود خلافات عرقية أدت إلى إحداث عدة فتن، مثل العجم الذين استغلوا فرصة انشغال القبائل بفتنة مقتل ابن عرفة، ولما حمل رأس أحد العجم إلى المتقاتلين أوقفوا

٤٣- ابن الصغير ص ٦٣.

٤٤- انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى جـ ٢ ص ٢٩١ .

القتال، ومالوا إلى العجم فقتلوا منهم عدداً كبيراً، واستغل أحد موالى الأغلب واسمه خلف الخادم، الموقف، فأرث هذا الخلاف العرقى بأموال عظيمة كانت معه، دفعها لإحداث مزيد من الفتن داخل جسم الدولة الإباضية وكان هذا الصراع أول أمره ثنائياً بين العرب والعجم، ثم دخلت فيه نفوسة البربرية التى كانت محايدة من قبل، فوقفت إلى جانب العجم، لما أحرق العرب حارة كان معظمها للعجم، وفيها بعض بربر نفوسة. (٤٥)

الخلافات المذهبية وتأثيراتها السياسية:

ومن أسباب الخلاف فى الدولة الإباضية الرستمية بتاهرت، الاختلافات المذهبية، وقد كان مجتمع تاهرت يعج بعدة اتجاهات مذهبية. فبالإضافة إلى غالبية المجتمع الإباضى، نجد جماعات أخرى من الخوارج الصفرية، ومن الشيعة، ومن المعتزلة، ومن أهل السنة، بالإضافة إلى انقسام الإباضية أنفسهم إلى عدة جماعات مثل النكارية (٤٦) والوهابية والنفاثية وغيرهم، كما مر، وكان لهذه الجماعات المذهبية تأثيرات سياسية وصل بعضها إلى حد الخطورة وقد أشار البارونى إلى خروج جماعة الشيعة والمعتزلة والصفرية لأبى عبد الله الشيعى داعى الفاطميين تدله على عورة تاهرت، وتطلب إليه دخول المدينة والقضاء على إمام الإباضية فيها: أبى اليقظان. (٤٧)

٤٥- انظر ابن الصغير ص ٨٠-٨٢.

٤٦- وقد انقسمت بعض هذه الفرق انقسامات أخرى داخلية، فالنكارية اختلفوا بدورهم إلى عدة شعب، مثل النجوية، والشعبية، والنفاثة (انظر فى افتراق النكارية الى هذه الجماعات أو الى هذه التسميات الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب جـ ٣ ص ٣٢١)

٤٧- ابن الصغير: المرجع السابق ص ١٢٥

ويرتبط بقضية الخلافات المذهبية وتأثيراتها السياسية، ما كان للعلماء والفقهاء من تأثيرات مهمة فى المجتمع الإباضى الرستمى، فكان لهم تأثيراتهم فى تثبيت الأمور العقدية والقضايا المذهبية، وكان الناس يثقون فيهم، ويرسلون إليهم أموالهم، سواء منهم من كان داخل الدولة الإباضية ،أم من كانوا من إباضية المشرق، أموالاً لهم إلى بعض علماء تاهرت لتوزيعها، ولم يرسلوها للإمام مباشرة، ومن جانب آخر سعى الأعيان والفقهاء إلى تكوين طبقة- على حد تعبير جوليان- (٤٨) "كان من شأنها أن تملى على الأمير إرادتها" أحيانا.

أهم الوظائف فى الدولة الرستمية

١- الحاكم

اركز فى حديثى عن الحاكم على تطور شكل الحكم، فقد بدأ أولاً بلقب (الإمام)، الذى أطلق على الحاكم الأول للدولة، واستمر هذا اللقب ينطبق لفظه مع معناه فى بعض الفترات، وينفصل المعنى عن اللفظ أحيانا لتتحول الإمامة إلى شكل أقرب ما يكون إلى (الاختيار الوراثى) إن صح هذا التعبير.

لكن لقباً آخر يظهر فى أهم المؤلفات التى كتبت عن هذه الدولة الرستمية، فإنه لما مات عبد الوهاب استخدم ابن الصغير لفظ (الخلافة)، وهو يخبر عن بداية حكم أفلح، فقال: "فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلح"(٤٩).

٤٨- تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٤٧

٤٩- أخبار الأئمة الرستميين ص ٥٦.

وواضح أن مصطلح الخلافة لم يكن هو مصطلح الحكم، ولكن استخدام ابن الصغير له يستحق أن نقدم له تفسيراً، وفى تصورى يمكن أن يكون أحد هذين الرأيين:

١- أن يكون ابن الصغير تأثر باتجاهه المذهبى إذ كان سنياً مالكياً، فمال- على الأرجح- إلى استخدام المصطلحات التى تشيع فى الدول السنية عامة.

٢- أن يكون قصد المعنى اللغوى للخلافة، لا المعنى الاصطلاحى، أى أنه أراد نقل خبر أن أفلح (خلف) أباه فى الحكم، أى أنه خلفه فى الإمامة (وكان قبلها قد أشار إلى قول عبد الوهاب عن ولده:" لقد استحق أفلح الإمامة")(٥٠)

٢- القاضى

حرص الأئمة الرستميون على حسن اختيار القاضى، بل كان عبد الرحمن بن رستم يقوم بالقضاء بنفسه، "وجلس فى مسجده للأرملة والضعيف"(٥١) ولم يسم ابن الصغير قاضى عبد الرحمن، فى حين أشار إشارة عابرة إلى (قضاته)" (٥٢) وركز على وظيفة القاضى عند عبد الوهاب(٥٣). ويبدو أن أفلح أبقى قضاة أبيه، إذ يحكى ابن الصغير أنه لما مات أحد قضاة أبيه ، أتى بعض الإباضية إلى أفلح يطلبون تعيين قاض بدله، فطلب إليهم الاختيار ، فاختاروا محكماً الهوارى الساكن بجبل أوراس ،

٥٠- نفسه ص ٥٥

٥١- نفسه ص ٣٢

٥٢- نفسه ص ٤٠

٥٣- نفسه ص ٤٧،٤٨، ٥٠، ٥٧.

لخاصتهم وعامتهم ودينهم ودنياهم ، فحذرهم أفلح من حدثـه ، ثم وافق عليه لما رأى إصرارهم، فكان محكم حازماً حاسماً عادلاً(٥٤).

أما قضاة أبى اليقظان، فقد أشار ابن الصغير إلى أحدهم وهـو محمد ابن عبد الله، وأثنى على حسن سيرته بقوله :" فلم يزل قاضيهم محمد بن عبد الله يحسن السيرة فيهم ويأمر بأمر أبى اليقظان وينهى إلى نهيه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم."(٥٥) وقد عين عبد الله بن محمد بن عبد الله قاضيـاً فـى عهد أبى حاتم (٥٦) .

ومن الأمور المقررة عند الرستميين أنـه "لا يجب عـزل قـاض ولا صاحب بيت مال، إلا بجرحة تظهر عليه ، ولا يجب عزل القضاة ببغى البغاة وسعى السعاة"(٥٧).

واتسم قضاتهم بالشجاعة ، فقد أشار ابن الصغير إلى خلاف حـدث بين أبى اليقظان وقاضيـه، أدى بالقـاضى إلـى أن يغدو إليـه مستقيلاً."فرمـى إليـه خاتمه وقمطره، فقال: ول على قضائك من تريد،"وذلك بسبب أمـور أخذهـا لا على أبى اليقظـان بل على بنيه : وقال له : خليتهم عالة على الناس ، فراجعه أبو اليقظان فأبى الإستقالة، فعين بدله القاضى شعيب بن مرمان"(٥٨)

٥٤- أخبار الأئمة الرستميين ص ٦١،٥٩

٥٥- نفسه ص ٨٩.

٥٦- نفسه ص ١١٦ وقد وصف عبد الله بأنه "ما هو دون أبيه فى الورع والعلم"

٥٧- نفسه ص ٥٠

٥٨- نفسه ص ٩٠.

٣- وظيفة الخطابة

هي إحدى الوظائف المهمة، التى حرص بعض أئمة الرستميين على أن يختاروا بأنفسهم من يتولاها(٥٩)، وأشار ابن الصغير إلى أنه حضر من خطباء الإباضية في الدولة الرستمية عدداً أولهم ابن أبى ادريس، وأحمد التيه، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور. (٦٠)

وكان نظام الخطبة فى الدولة الإباضية الرستمية أن يخطب الخطيب، فى الخطبة الأولى، بخطبة من خطب على بن أبى طالب، أما الخطبة الثانية فكانت تسمى خطبة التحكيم، لأنه يذكر فيها نص الخوارج الشهير: (لا حكم إلا لله). وكانت الخطبة الأولى تقليداً راسخاً، حتى إذا خرج عن هذا التقليد أحد خطباء الدولة (أحمد بن منصور) قام إليه ابن الصغير معاتباً، لأن خطبته ليست من خطب أسلافه، وسأله عن سبب التغيير، فاعتذر الخطيب وقال: "حملنى عليها عثمان بن أحمد بن يحياج"، وهو أحد المقدمين عند الإباضيين "لا يكادون يخالفونه فيما استحسن لهم"، وقد أورد ابن الصغير هذه الخطبة لغرابة هذا الموقف. أما الخطبة الثانية فيجيء فيها- "لا حكم الا لله اتباعاً لكلام الله، وسنة نبيه عليه السلام، وخلافاً لأهل البدع".

-"لا حكم إلا لله، خلعاً ونبذاً وفراقاً لجميع أعداء الله"

-"لا حكم إلا لله، ولوكره الجبارون، الحاكمون بغير ما أنزل الله"

٥٩- نفسه ص ٨٨ ، وذلك مثل أبى اليقظان، الذى قدم للخطابة فى عهده من ارتضاه بنفسه

٦٠- نفسه ص ١٢٠-١٢١.

-"وأشهد أن من لم يحكم بمـا أنـزل اللـه، فـأولئك هـم الكـافرون، والظالمون، والفاسقون"(٦١).

٤- صاحب الشرطة:

ظهرت هذه الوظيفة منذ أول أئمة الدولة عبد الرحمن بن رستم، وكان صاحبها يحصل على أجره سنوياً من مورد الخراج والجزية"(٦٢) وكان من أهم واجبات صاحب الشرطة ومعاونيه الحفاظ على أمن البلد، وتفقد أحوالها. وقد نجح أصحاب الشرطة فى تحقيق واجباتهم" وأمنت الساحات" فى معظم الأحيان، لكن حدثت بعض استثناءات حيث وجدت بعض الأمور أمام صاحب الشرطة تمنعه من تمام قيامه بواجبات وظيفته، وخاصة جانب التفقد منها، فكان صاحب شرطة أفلح إذا تخلل بالمدينة لافتقادها (كذا) لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة، ولايتخلله، هيبة" (٦٣) وذلك لأنه كان مقدم جماعة العجم فكان بمثابة مركز قوة يهابه العاملون بالدولة.

وقد عرفت تاهرت فى عهد أبى حاتم تولى صاحبى شرطة معاً، إذ انقسم المشيرون على أبى حاتم فريقين، رشح كل قسم منهما رجلاً لوظيفة صاحب الشرطة، وهما زكار، وإبراهيم بن مسكين، فعينهما أبو حاتم صاحبى شرطة للمدينة، وكانت الأحوال الأمنية قد تأثرت بالاختلافات، وبطر كثرة الأموال، فظهر بعض ألوان الفساد ، "فلما ولى هذان الرجلان الشرطة، قطعا ذلك فى أسرع من طرفه العين، وحملا على الناس بالضرب والسجن والقيد، وكسرت الخوابى بكل دار، عظم قدرها أو صغر، وشردت الغلمان وإخوانهم

٦١- انظر ابن الصغير ص ٨٩،١٢١-١٢٦

٦٢- نفسه ص ٤٠

٦٣- نفسه ص ٦٢-٦٣.

إلى رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحمل الناس على الواضحة، وأخاف النطف، وأمن البرى"(٦٤) ويعطى هذا النص بعض إشارات إلى واجبات إضافية لصاحب الشرطة تعطيه صلاحية الضرب والسجن والقيد.

٥- صاحب الحرس:

ويرتبط بوظيفة الشرطة- من بعض جوانبها - وظيفة فرعية أخرى، تقوم على حفظ أمن خاص، وهو أمن الأئمة، وهى وظيفة صاحب الحرس. ظهرت فى عهد أبى اليقظان ولم ترد هذه الوظيفة من قبل، فهل كان التطور الذى أصاب الدولة وكثرة الأموال، وكثرة المشاكل، مدعاة لظهور صاحب الحرس، حماية للأئمة، وكبار رجال الدولة، ولم يكن لها داع قبل هذا حيث فطرية الدولة، وضبط نظامها، وبساطة شكل الحكم، وبساطة العاملين والقائمين عليها(٦٥) ؟

وقد أشار ابن الصغير إلى صاحب حرس أبى اليقظان، واسمه المحروق، فى معرض وساطة أحد الفقهاء الإباضية ،ليطلق أبو اليقظان ولد جارة من جيران هذا الفقيه، ويفهم من هذه الوساطة أن صاحب الحرس كان من صلاحيته الحبس، قال: "إن جارة لى خرج ولدها البارحة فى طلب معاش له ولها، فأخذه المحروق صاحب حرسك، وحبسه" (٦٦) .

٦- المحتسب (٦٧)

٦٤- ابن الصغير ص ١١٦-١١٧.

٦٥- انظر مثلاً قيام عبد الرحمن بن رستم إمام الدولة الأول بأعمال ترميم منزله بنفسه (نفسه ص ٣٣)

٦٦- نفسه ص ٩٥-٩٦.

٦٧- نفسه ص ٤٠، ٦٣، ٨٨.

عرفت المجتمعات الإسلامية نظام الاحتساب الذى يقوم أساسه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بعموم هذا الأمر وهذا النهى، وكان الخوارج حريصين على هذه المهمة، فظهر الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، منذ أوائل الدولة، وأساس عملهم" إنكار المنكر فى الأسواق، والاحتساب على الفساد"، وكانت قبيلة نفوسة تلى تقديم هذه الوظيفة، وقد قدمهم أبو اليقظان، ونعرف من ابن الصغير بعض واجبات أصحاب هذه الوظيفة، ويظهر هذا من النقل التالى:

"فإن رأوا قصاباً ينفخ فى شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها، وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذراً فى الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه......"

سقوط الدولة الرستمية

على الرغم من أن الأساس الذى قامت عليه الدولة الرستمية كان أساس الشورى واختيار الحاكم , إلا أن التطور السياسى للدولة، شهد انحرافاً بدرجات متفاوتة عن هذه المبادئ .

ذلك أن خلافات قبلية بدأت تطل براسها بين الحين والحين، بسبب عدم النضج السياسى من جهة، أو بسبب تدخل الدول المنافسة بالدس والإيقاع بين القبائل لتنال من دولة الرستميين، وكانت هذه الاضطربات القبلية قد ظهرت مبكرة، إلا أن قوة الإمام كانت تقضى عليها أو تقلل من تأثيرها، وقد أفلح فى ذلك الإمام أفلح، والإمام عبد الوهاب، من قبل، لكن تكرر هذه الخلافات أمام أئمة أقل قوة، وأظهر ضعفاً كان له أثره على كيان الدولة، عندما تحركت قبائل هوارة ولواتة، وغيرها، أيام أبى بكر بن أفلح (٢٤٠-٢٤١)، ثم خروج الطيب بن خلف فى الجناح الشرقى للدولة أيام أبى حاتم (الذى تولى سنة ٢٨١-٢٩٤هـ)،

وأما الناحية الدستورية الرئيسية التى قامت الدولة عليها كذلك، وهى مسألة الشورى، والاختيار الحر للحاكم ، فقد ظهر لها كذلك عدة مخالفات،

وصلت بالدولة إلى حالة وراثية تقريباً ، من الناحية العملية، وقد شكا بعض الفقهاء من ذلك ، كما رأينا من قبل، فى صرخة عبد العزيز بن الاوز.

ومما يؤكد هذه المخالفة ، اختيار أبى بكر بن أفلح للإمامة بعد أبيه أفلح، لا لشيء إلا لأنه لم يوجد من بين بنى أفلح وقتها داخل الدولة غيره ، وربما كان هذا مؤشراً واضحاً لتقصير البربر الخوارج فى الدولة الرستمية، فى ذلك الوقت، فى تطبيق مبدأ من أهم مبادئهم .

يضاف إلى هذه المخالفات الدستورية، ظهور الخلاف داخل الأسرة الرستمية، يظهر هذا الخلاف فى القضاء على محمد بن عرفة، زوج أخت أبى بكر بن أفلح، بسبب تزايد نفوذه داخل الدولة (٦٨)، وكذلك فى المؤامرة التى دبرها أبناء أخى الأمام أبى حاتم، حيث تطلعوا إلى الوثوب إلى الحكم فقتلوه سنة ٢٩٤هـ.(٦٩)

٦٨- سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ص ٣١ وذلك لأنه لما انشغل أبو بكر باللهو عن القيام بواجبات الحكم، قام محمد بن عرفة بكثير منها، فزاد نفوذه، وبعودة أبى اليقظان أخى أبى بكر إلى تيهرت، لم يجد بداً من قتل محمد بن عرفة، فثار أنصاره وطلبوا بالثأر، وانضم إلى أنصاره جند كانوا فروا من القيروان ولجئوا إلى تيهرت، وربما زاد تعصب هؤلاء الآخرين بسبب أن محمد بن عرفة أصله عربى من القيروان، ويعتبر هذا الصراع- من زاوية أخرى- كاشفاً عن تعصبات جنسية وقبلية مختلفة أطلت برأسها.

٦٩- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ١٩٧

وبدأ الوهن يضرب بعنف فى جنبات الدولة، وتجرأ الأغالبة فقاموا بعدة عمليات عسكرية ضد الدولة الرستمية حققوا فيها النصر، وهكذا آل الامر إلى الضعف بعد القوة، وهكذا لم يجد دعاة الشيعة القادمون إلى المغرب صعوبة تذكر فى القضاء على الدولة الرستمية. ذلك ان أبا عبد الله الداعية الشيعى قدم إلى تيهرت بجموع كبيرة، سنة ٢٩٦هـ، حيث اقتحمها وقام جنده بنهبها، لتسقط بذلك دولة الرستميين الاباضيين فى المغرب. (٧٠)

٧٠- انظر النويرى نهاية الأرب جـ ٢٨ ص٩٧

الفصل الرابع

الأدارســــة

الفصل الرابع

الأدارسة

مازالت قضية من يستحق الخلافة، تشغل الساحة السياسية الإسلامية، منذ الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، بل ربما قبل ذلك بقليل أيضاً، وظل الطالبيون يحاولون الوصول إلى الأمر، أيام الدولة الأموية، ثم ظن بعضهم أن الدعوة التى قامت على شعار " الرضا من آل محمد" كانت تدعو لهم، فى حين كانت هذه الدعوة لبنى العباس، لا لبنى أبى طالب، ولذا فإن ثورات الطالبيين لم تنته بظهور دولة العباسيين، بل يمكن ملاحظة أنها زادت عدداً، وحدة.(١)

وتكررت مرات خروج الطالبيين أيام العباسيين، وتكررت مرات مقاومة الدولة العباسية لهم، ومن أهم مرات خروج العلويين، المرة التى خرج فيها الحسين بن على بن الحسن (المثلث) بن الحسن (المثنى) بن الحسن (السبط) بن على بن أبى طالب، مع جماعة من أهل بيته (منهم إدريس، ويحيى، وسليمان، أبناء الحسن المثنى). وقد قاموا بثورتهم فى المدينة سنة ١٦٩هـ، وامتدت أحداثها إلى قريب من مكة بثلاثة أميال، فى موضع يقال له فخ، وكان الطالبيون فى

١- مثل ثورة زيد بن على بن الحسن، فى الكوفة سنة ١٢٢هـ، وثورة ابنه يحيى بخراسان، وثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة سنة ١٢٧هـ، وقد انتهى مصير هؤلاء الثوار إلى القتل. (انظر ابن الأثير الكامل جـ٤ ص ٤٥٢-٤٥٦، جـ٥ ص٥، وانظر النويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٢٤ص ٤٠١-٤١٩).

المدينة قد تمكنوا من هزيمة عاملها من قبل العباسيين عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله، والى الهادى العباسى، ثم تمكن العباسيون من هزيمة الثوار فى فخ، يوم التروية (٨ من ذى الحجة) مما أعطى فرصة للمهزومين أن يختلطوا بالحجيج، ثم فروا إلى جهات متعددة.[٢]

وقد كان ممن فر بعد هذه الموقعة عدد من العلويين، منهم إدريس بن عبد الله بن الحسن (المثنى) وأخوه يحيى، فأما الثانى فقد اتجه ناحية الشرق، فوصل إلى بلاد الديلم، حيث واصل نشاطه المعارض، وقوى أمره، وامتد هنالك فترة [٣]، وأما إدريس فقد أخذ طريقه إلى مصر، ليواصل مسيرته بعد إلى المغرب، إلى أقصاه، حيث وصل إلى طنجة، يصحبه مولاه المخلص له، ثم لولده بعده، راشد، ثم يميل بعد ذلك إلى قبيلة أوربة فى وليلى قاعدة جبل زرهون[٤]، ليكون بذلك فى مكان قصى بعيد عن قبضة العباسيين، محتمياً بالقبائل البربرية المستعدة للمناوأة والخروج على العباسيين هنالك.

وفى المغرب الأقصى، صادف إدريس بن عبد الله جواً صالحاً للخروج على العباسيين، والثورة ضدهم فالمكان قصى، وبربره حانقون على السلطة المركزية فى المشرق، وكانت قرابة إدريس فى بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وثورة إدريس على العباسيين من قبل فى المشرق، أموراً رجحت جانب

٢- انظر السلاوى: الاستقصا جـ ١ص ١٣٧

٣- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٣٦

٤- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص١٩

إدريس، فانضوى بعض بربر المنطقة تحت مظلة ثورته، بغرض تحقيق أملهم فى أن يحكموا أنفسهم، أو يختاروا الحاكم الذى يرتضونه، لا الحاكم الذى يفرض عليهم، وهم بهذا يقيمون مع حاكمهم، ولايحكمون بحاكم أو بسلطة تنفيذية، بعيدة عنهم لا يعاينونها، ولايرضون عنها.

واستقر إدريس ومولاه راشد فى وليلى بالمغرب الأقصى، وهى قاعدة جبل زرهون، وذلك فى غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ، فأقام فيها إلى شهر رمضان، وخلال هذه الفترة عرف الناس وصوله، وساعده إسحق بن محمد بن عبد الحميد، شيخ قبيلة أوربة، وبايعوه إماماً لهم، ثم بايعته قبيلة مغيلة، وقبيلة صدينة، وتوالت عليه بيعات زواغة، وزواوة، وسدراتة، وغياثة، ومكناسة، وغمارة، وسائر قبائل زناتة(٥). وهكذا بدأ أمر إدريس، وقوى نفوذه، ونشأت دولته.

توسع الدولة

تمكن إدريس من تجميع عدة قوى بربرية وكون منها جيشاً كبيراً، بدأ به التوسع فى المغرب الأقصى، وشهدت أولى سنوات حكمه توسع دولته إلى بلاد تامسنا، وبلاد تادلا، وكان لغزوه نتائج إيجابية فى مجال الدعوة إلى الإسلام، فقد أسلم عدد ممن لم يكن على دين الإسلام فى هذه المناطق التى أخذها إدريس، وذلك من بيعته، أوائل رمضان سنة ١٧٢هـ، إلى رجوعه من هذه الغزوة إلى عاصمته وليلى، أواخر أيام هذه السنة نفسها.(٦)

٥- المرجع السابق ص ٢٠

٦- انظر السلاوى: الاستقصا جـ ١ ص ١٤١

ثم لم يسترح إدريس أكثر من شهر، الغزو والجهاد، في جهات فندلاوة، ومديونة، وبهلولة، وغياثة، وفازاز، في غزوة واحدة.(٧)

وفي النصف الثاني من سنة ١٧٣هـ، بدأ إدريس يتجه إلى ميدان جديد، يوسع به حدود دولته إلى المغرب الأوسط، واتجه إلى تلمسان، مدينة هذا الإقليم وقاعدته الرئيسة، حيث دخلها سلماً، إذ بايعه صاحبها صولات المغراوي، وقد ذكر ابن أبي زرع أن إدريس بنى مسجد تلمسان، وصنع له منبراً، نقش فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة"(٨)

ثم قام إدريس بن إدريس، بالمزيد من التوسعات، بعد وفاة أبيه، فجال في بلاد المصامدة وأخذ نفيس، وأغمات، وغيرهما، وكان له دور في مناهضة الخوارج الصفرية(٩)، وهكذا صار نفوذ إدريس ممتداً في المغربين الأقصى والأوسط، من السوس الأقصى إلى وادي شلف.

وقد شهد أواخر عهد إدريس الأول، وأوائل عهد إدريس الثاني إنشاء عاصمة للدولة الجديدة، وهي مدينة فاس ، بدأها إدريس، وأكملها ابنه إدريس

٧-انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٢-١٣

٨-الأنيس المطرب بروض القرطاس ص٢١، ويشير ابن خلدون في المرجع السابق ص ١٣ إلى استمرار وجود هذا النقش حتى عهده.

٩- انظر في توسعات إدريس الثاني: السلاوي: الاستقصا جـ١ ص١٥٣-١٥٤.

الثانى[١٠]، فما زالت قاعدة من أهم قواعد المغرب، ومنارة إشعاع حضارى، منذ إنشائها فى القرن الثانى الهجرى.

وقد حاولت الدولة العباسية القضاء على هذه الدولة، فأخفقت، وأخفقت معها دولة الأغالبة، التى كانت بمثابة درع واقية للعباسيين فى هذه المنطقة.

وأما ما نجحت فيه هذه القوى المضادة لإدريس، فلم يزد على دس السم للحاكمين الأولين لهذه الدولة الجديدة، وهما إدريس بن عبد الله، سنة ١٧٩هـ، ثم ولده إدريس (الثانى) سنة ٢١٤هـ [١١]

وقامت، فى جزء من المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط، دولة جديدة، هى دولة الأدراسة، مناهضة للدعوة العباسية، وقد وسمها بعض الدارسين بسمة شيعية[١٢]، ولكن أميل إلى أنها دولة علوية الأصل، سنية مالكية المذهب، لم

١٠- اختلف فى بناء مدينة فاس: تاريخاً ومنشئاً، لكن الوجه أن إدريس الأول بدا فى إنشائها أواخر عهده، وأكملها من بعده إدريس الثانى وصارت قاعدة ملك الأدارسة (راجع الأراء المختلفة فى د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٤٠١-٤١٨، وانظر حديثى عن دار ضرب فاس فى عهد الأدارسة، فى كتابى: النقود المغربية إلى قيام الدولة الفاطمية، تحت الطبع).

١١- ناقشت فى كتابى (تحت الطبع): النقود المغربية إلى قيام الدولة الفاطمية، فى الفصل الخاص بنقود الأدارسة تواريخ الوفاة هذه، من خلال الوثائق النمية، ومقارنتها بالنصوص التاريخية.

١٢- يربط الدكتور محمود إسماعيل قيام دولة الأدارسة بالمغرب، بالتشيع الزيدى، فكرة ودعوة وثورة، وأن هذه الدعوة اندمجت مع الفكر الاعتزالى بالمغرب، وانتهى إلى

ير من الأشعرة الشيعية فيها علامات حاسمة، تجعل الباحث يطمئن إلى تصنيفها تحت الدول الشيعية، وأما وسم حكامها باسم (الإمام) فهو لقب اشترك فيه حكام دول سنية، وشيعية، وخارجية، فهو لقب يشير إلى عموم الحاكمين ، وأما ذكر اسم (على) فى بعض نقودها ، فذلك لغرض تذكير الناس ، بأصل الأدارسة، وانتمائهم لآل البيت، وهو أمرمهم، فقد كان أحد أهم الأسباب المهمه لتجميع البربر حول لواء هذا الثائر، العلوى القادم من الشرق.

وقد مرت الدولة بعهدين، عهد القوة الذى شمل عهد الحاكمين الأولين وجزءاً من عهد الحاكم الثالث محمد بن إدريس (الثانى)، ثم آلت الدولة إلى عهد الضعف التدريجى فى نهاية عهد هذا الحاكم الثالث، وربما كان من أهم اسباب ضعف هذه الدولة:

١- ميل قبيلة أوربة، فى بعض فترات الدولة عن الأدارسة، وميل رئيسها إسحق بن محمد بن عبد الحميد للأغالبة، مما اضطر دولة الأدارسة إلى التخلص منه أواخر سنة ١٩٢هـ[١٣]، عقاباً، وتخويفاً.

خلاصة هى: "أن تأسيس دولة بنى إدريس لم يكن حدثاً عفوياً، بل كان تتويجاً لنضال الشيعة الزيدية فى الشرق، ودعوتهم التى احتوت دعوة المعتزلة فى المغرب وإذا كانت الإيدلوجية الزيدية- الاعتزالية قد اضطلعت بأمور الدعوة، فإن قبيلة أوربة شكلت العصبية التى اتخذت طموحاتها مع أهداف الدعوة فى إقامة دولة الأدارسة" (انظر الأدارسة ص ٢١، ٤٧، ٤٩، ٦٤)، وواضح فى هذا الرأى تحميله الأمر أكثر مما يستحقه، فدولة من حيث المنظور السياسى تجمع سياسى بربرى، حول ثائر علوى، ومن حيث المنظور المذهبى دولة سنية مالكية .

١٣- انظر: البكرى: المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ص ١٢٣.

٢- الميل إلى اللامركزية، حيث قسمت الدولة فى عهد حاكمها الثالث، محمد بن إدريس بن إدريس، عدة أقسام- بمشورة جدته كنزة- حكم محمد منها قسماً ضم مدينه فاس وما حولها، وحكم أكبر ثمانية من إخوته، ثمانية الأقسام الأخرى، حسب التقسيم التالى:

أ- طنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مصمودة، وما يليها من البلاد والقبائل، للقاسم.

ب- بلاد هوارة، وتسول، ومكناسة، وجبال غياثة، وتازة، لداود.

جـ- شالة، وسلا، وآزمور، وتامسنا، وما يليها من القبائل، لعيسى.

د- البصرة، وأصيلا، والعرائش، إلى بلاد ورغة، ليحيى.

هـ- تيكساس، وترغة، وبلاد صنهاجة، وغمارة، وما والاها، لعمر.

و- مكناسة، وتادلة، وبلاد فازاز، لأحمد

ز- أغمات، وبلاد نفيس والمصامدة والسوس، لعبد الله.

ح- تلمسان وأعمالها، لحمزة.(١٤)

٣- الصراع الداخلى فى الأسرة الإدريسية منذ عهد حاكمها الثالث: محمد ابن إدريس (الثانى)(١٥)

١٤- اخترت ماقدمه ابن أبى زرع فى الأنيس المطرب بروض القرطاس ص٥١

١٥- ومن أهم أحداث هذا الخلاف الداخلى، ذلك الخلاف الذى نشب بين محمد بن إدريس وأخيه عيسى صاحب شالة وتامسنا،وعندما أمر محمد أخاه القاسم بإنهاء خلاف هذا

٤- مجابهة الدولة لعدة قوى فى المغرب والأندلس[١٦].

٥- الصراع بين عناصر سكان الدولة، البربر، والعرب، والأندلسيين[١٧].

٦- ثم كان قيام الدعوة الشيعية فى المغرب، أحد أسباب القضاء على دولة الأدارسة العلويين، فى نهايات القرن الثالث الهجرى.

وقد حكم دولة الأدارسة عدد من الحكام، هم:

١- إدريس بن عبد الله ١٧٢هـ

٢- إدريس بن إدريس ١٧٩

الثائر عيسى، رفض القاسم، فأمر محمد بن إدريس أخاً آخر له وهو عمر، ليضرب كلاً من الثائر والرافض معاً، فهزمهما عمر، وآلت أملاك الأخوين المهزومين إلى أخيهما المنتصر عمر، فصار ملكه يشمل شالة، وسلا، وآزمور، وتامسنا، وطنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مصمودة، وهى منطقة واسعة جداً، أعطت لعمر نفوذاً سياسياً أوسع من إخوته الباقين، وقربه هذا إلى الإمام محمد بن إدريس.

وقد مات عمر فى حياة أخيه محمد، وعمر هو والد الإمام السابع، وجد الإمام التاسع للأدارسة يحيى بن إدريس (٢٩٢-٣٠٧هـ)، والحموديون بالأندلس حفدة عمر أيضاً.

١٦-مثل الأغالبة الممثلين للعباسيين فى المغرب، ومثل الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى، ومثل الدولة الأموية بالأندلس .

١٧- كانت وفود العرب قد أقبلت على إدريس الثانى من شتى بلاد المغرب والأندلس، منذ سنة ١٨٩هـ، منهم ٥٠٠ فارس من قيس والأزد، ومذحج، ويحصب، وصدف وغيرهم، فاعتزلهم إدريس الثانى، وزادت وفود العرب بعد ذلك، حتى ضاقت بهم وليلى، فوجههم إدريس إلى فاس. (انظر السلاوى: الاستقصا جـ١ ص١٤٨-١٤٩)

٣- محمد بن إدريس ٢١٤

٤- على بن محمد ٢٢١

٥- يحيى بن محمد ٢٣٤

٦- يحيى بن يحيى ؟

٧- يحيى بن عمر بن إدريس ؟

٨- يحيى بن القاسم بن إدريس ؟

٩- يحيى بن إدريس بن عمر ٢٩٢هـ

١٠- الحسن بن محمد بن القاسم ٣٠٧هـ

ويلحظ أن هذا الثبت خاص بحكام أدارسة فاس وما حولها، كما يلحظ غياب تواريخ تولى ثلاثة حكام، هم يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، وعلى بن عمر ابن إدريس، ويحيى بن القاسم بن إدريس، وكل ما تمدنا به المصادر ، هو أن يحيى بن يحيى كان موجوداً حتى سنة ٢٤٥، جاء ذلك فى معرض الحديث عن بناء مسجد القرويين.[١٨]

وغياب هذه التواريخ من مصادر مغربية لها قيمتها مثل كتاب ابن أبى زرع، وكتاب ابن خلدون، وكتاب ابن عذارى، يدل على غموض تاريخ هذه الدولة عامة، ويدل على نقص فى مادتها التاريخية.

بنو سليمان بن عبد الله

١٨- انظر السلاوى: الاستقصا جـ١ ص٩٥.

شهد المغرب وجوداً علوياً آخر، عرفته منطقة تلمسان، حيث وجد فيه بنو سليمان، وسليمان أخ آخر لإدريس، وفد إلى المنطقة واستقر بنوه فيها، وتمكن بعضهم من إقامة عدة تجمعات سياسية، من أهم مدنها سوق إبراهيم، ومدكرة[١٩].

وهكذا خطا المغرب- من منظور التطور السياسي- خطوة مهمة في سبيل تحقيق ذاته، والبعد عن السلطة المركزية في المشرق، وتجميع عدة قوى قبلية ومجموعات بشرية في تجمع سياسي واحد، حرص على الالتفاف حول الأدارسة، ويظهر شدة هذا الحرص والتمسك، عندما نجحت القوى المناوئة في التخلص من إدريس (الأول)، فقد زاد التفاف البربر حول راشد مولى إدريس، وحول جنين زوجة إدريس المرتقب، ويكفي للتدليل على صحة هذه المقولة، أن نشير إلى نقل ابن خلدون الذي يظهر منه أن البربر بايعوا إدريس الثاني أربع مرات جنيناً، ووليداً، وفصيلاً (مفطوماً) وصبياً بالغاً[٢٠].

١٩- انظر اليعقوبي: البلدان ص ٣٥٢، ٣٥٣، و د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي جـ٢ ص ٥٠٤.

٢٠- قال: " فبايعوه حملاً، ثم رضيعاً، ثم فصيلاً، إلى أن شب، واستتم، فبايعوه...." العبر جـ٤ ص١٣.

الفصل الخامس

الأغـــالبـــة

الفصل الخامس

الأغالبة

تنسب دولة الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقيل بن خفاجة التميمي، تولى الزاب، ومن شهادة هرثمة بن أعين، بعد وصوله للرشيد مستعفياً من ولاية إفريقية، يفهم أن عهده شهد ارتفاع نجم إبراهيم، وكان لإبراهيم اليد العليا في هزيمة تمام بن تميم، الثائر ضد العكي والي إفريقية بعد هرثمة، فبلغ خبره الرشيد فعين إبراهيم بن الأغلب والياً على إفريقية بدلاً من العكي[1]، وقد تكفل إبراهيم بترك ما كانت تأخذه إفريقية معونة من خزانة مصر (مائة ألف دينار) وزاد بأن وعد بتقديم أربعين ألف

١- انظر النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٢٤ ص ٩٩-١٠٢، وكان العكي قد تمكن من تزوير رسالة من الرشيد، بعزل إبراهيم بعد وصول رسالة التعيين إليه، فمال إبراهيم إلى الزاب، فلما عرف الرشيد الأمر، أرسل لإبراهيم سجلاً آخر بالتعيين والياً على إفريقية، فكانت ولايته هذه المرة من ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ.

دينار أيضاً إلى بيت مال العباسيين[٢]، وبعد الرشيد أكد الأمين سنة ١٩٣ رضاه عن إبراهيم بتثبيته فى ولاية إفريقية.[٣]

واتخذ إبراهيم من القيروان، أول أمره، قاعدة للإقليم، ومستقراً له، ثم أخذ يعد العدة للانتقال إلى موضع قريب منها، سماه "العباسية"، جعله مستقراً له، ولجنده، ولبعض المؤسسات الإفريقية.[٤]

وكان واضحاً أن الخلافة العباسية أرادت فى شخص إبراهيم والياً قوياً، يحكم أمور إفريقية، ويقف دراعاً ضد حركات الاستقلال التى فشت فى المغربين الأقصى والأوسط. وأمضى إبراهيم من حكمه حوالى سنة، تمكن بعدها من فرض سلطانه على إفريقية، مما اضطر الثائرين إلى الابتعاد عنها.[٥]

ويصف النويرى إبراهيم بن الأغلب بقوله:

"وكان فقيهاً، عالماً، خطيباً، شاعراً، ذا رأى وبأس، وحزم، وعلم بالحروب ومكائدها، جرىء الجنان، طويل اللسان، حسن السيرة"، كما ينقل

٢- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٤ص ١٩٦

٣- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٩٤.

٤- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٠٢ وابن أبى دينار المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤٩.

٥- أهم هؤلاء الثوار عمران بن مخلد، وكان أحد رجال إبراهيم، نقم بعض الأمور، منها أمور شخصية، انظر ابن الأثير، الكامل جـ٥، ص ١١٣-٣١٤.

عن الرقيق قوله: "لم يل إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة، ولا أحسن سياسة، ولا أرفق برعيته، ولا أضبط للأمر، وكان كثير الطلب للعلم"[٦].

وتوفى ابن الأغلب سنة ١٩٦هـ، بعد أكثر من اثنتى عشرة سنة من ولايته الناجحة[٧]. وتولى أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب: سنة ١٩٦هـ وحكم خمس سنوات وشهراً ونصف شهر تقريباً.[٨]

ومن منظور التطور السياسى للمنطقة، أركز على أن أبا العباس كان بطرابلس لما مات أبوه، قام أخوه زيادة الله بأخذ البيعة له، وأبلغه بها فى مستقره بطرابلس[٩]، هكذا دون انتظار سجل تعيين من خليفة، ودون أخذ رأى الخلافة العباسية، مما يدل على أن بنى الأغلب كانوا يحسون باستقلال لهم بالمنطقة منذ أيامهم الأولى، فلما مات أغلبى تولى أغلبى.

ثم آل الأمر إلى أبى محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى ذى الحجة سنة ٢٠١هـ[١٠]، وجاءه سجل تعيينه من المأمون[١١]. واتخذ زيادة الله

٦- نهاية الأرب، جـ ٢٤ ص١٠٥

٧- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٩٥

٨- انظر النويرى: المرجع السابق جـ٢٤ ص١٠٥-١٠٧.

٩- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٤ص ١٩٧

١٠- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٩٥.

١١- انظر ابن خلدون: المرجع السابق.

سياسة العنف والتشدد، لما رأى كثرة الخروج، لكن العنف يولد عنفاً، فخرج على زيادة الله أحد أهم ثوار هذه الفترة، وهو منصور بن نصر الطنبذى، وأثر الجند الذى أرسله زيادة الله إليه، ليقضى على الفتنة فى مهدها، أن يفر منهزماً، خشية تهديد زيادة الله لهم إن انهزموا، فتفرق كل شخص منهم فى جهة، "واضطربت إفريقية، فصارت ناراً تتقد"(١٢).

وكثر القتال، وطال الصراع، وتناوب الفريقان المتصارعان النصر، لكن جانب منصور كان أرجح، فقوى أمره، واستولى على معظم إفريقية، إلى أن تمكن بعض رجال زيادة الله من تجميع عدد كبير من زناتة وغيرهم، وبهم تمكن الأغالبة من استعادة الكثير من البلاد فى حدود سنة ٢١٨هـ، ثم حدث خلاف داخلى فى معسكر منصور بن نصر الطنبذى، بين الجند بعضهم البعض، من جهة، وبين منصور وأحد قادته (عامر بن نافع) من جهة أخرى، أدت إلى مقتل هذا الثائر طويل النفس، وأراد عامر بن نافع أن يواصل الثورة، لكن القوات حنقت عليه ما عمله بمنصور، فانتقضوا عليه- وخاصة المضرية منهم- فانهزم عامر، وانتقض الجمع، وانتهت بذلك هذه الثورة طويلة الأمد، " واستقامت إفريقية، وصفت، بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشرة سنة"(١٣).

ومن أهم منجزات عهد زيادة الله، هو توجه نظره إلى صقلية، باعتبارها قاعدة هجوم خطيرة ضد إفريقية، فعمل على أخذها، ووجه إليها

١٢- النويرى: المرجع السابق ص ١١١

١٣- انظر ابن الأثير: الكامل جـ٥ ص ٤٨٤-٤٨٥

جنده ابتداء من سنة ٢١٢هـ، ونجح فى أخذها، واستعمل عليها محمداً ابن أخيه عبد الله.(١٤)

ومن أهم ما يلحظ فى عهده- من منظور التطور السياسى كذلك- أنفة زيادة الله من أن يدعو لعبد الله بن طاهر، أى أن يكون تابعاً له، لا للخليفة مباشرة. وقد رد على المأمون رداً عملياً، لا يخلو من تهديد، فقد أرسل له نقوداً من سكة الأدارسة(١٥)، فلعله بهذا يشير إلى أنه يقف خط دفاع ضد تقدم الأدارسة تجاه الشرق، أو يلوح بالاتجاه هذه الناحية، أو يلوح أن يكون مثل الأدارسة، فيخلع الطاعة الصورية، وأياً ما كان الأمر فقد تراجع المأمون عن هذا الأمر، واستمر الأغالبة على ما هم عليه.

وتولى أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (وهو ثالث المتولين من أبناء إبراهيم مؤسس الدولة)، بعد وفاة أخيه زيادة الله، منتصف رجب سنة ٢٢٣هـ، ومال عهده إلى السلم، وكف أيدى العمال عن الناس، وأجرى لعماله أجوراً عالية، ليمنعهم من ظلم الناس، وتوفى أبو عقال فى ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ(١٦).

١٤- انظر ابن أبى دينار: المونس ص ٤٩.

١٥- انظر ابن الأبار: الحلة السيراء جـ١ ص١٦٦ و د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربى جـ٢ ص ٥٤-٥٥

١٦- انظر ابن عذارى: البيان جـ١ ص١٠٧

وتولى بعد الأغلب ولده أبو العباس محمد، وهو أول متول من أحفاد إبراهيم، وذلك أواخر ربيع الأخر، ويوصف بأنه "كان من أجهل الناس، لكنه أعطى فى إمارته ظفراً على من ناوأه"[(١٧)]

ومما يشار إليه فى عهد الأغلب، أنه كان يميل إلى الانشغال باللهو، والانهماك على الملاذ، وأنه ولى أموره أبا عبد الله وأبا حميد (ابنى على بن حميد)، فغضب لذلك أبو جعفر أحمد محمد بن الأغلب، وتآمر ضده، ودار قتال انتهى إلى مقتل أبى عبد الله، وتسليم محمد لأبى حميد، فارتفع قدر أبو جعفر أحمد، واشتد سلطانه، "وجعل الدواوين إلى نفسه، وصار الأمر كله له، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا مجرد الاسم"[(١٨)].

لكن محمداً يتدارك الأمر، فيعمل بتدبير محكم لإزالة الحجر عنه، حتى يتمكن من القضاء على رجال أخيه الملازمين لقصره، وبقية أتباعه خارج القصر واستنصر قادة محمد بأهل القيروان فنصروهم، منادين بطاعة محمد، ثم نفى محمد أخاه أبا جعفر فمات فى العراق.[(١٩)]

ومما يلحظ فى عهد محمد- غير الخلاف الداخلى فى الأسرة الأغلبية- احتكاك الأغالبة بالدولة الرستمية، إذ أمر محمد ببناء مدينة على حدود الدولة الرستمية، بالقرب من تاهرت، وسماها العباسية وذلك فى سنة ٢٣٩هـ،

١٧- النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١١٨

١٨- المرجع السابق ص ١١٨-١١٩

١٩- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ١٠٨-١٠٩

ويظهر مدى التحرش ببناء المدينة قاعدة هجوم بالقرب من عاصمة الدولة الرستمية نفسها، كما يظهر من اسم المدينة (العباسية) الغرض الرئيس من إقامتها، والتلويح بقوة الدولة العباسية ومناهضتها لانفصال الدولة الرستمية. وقد عمل الرستميون على التخلص من هذه المدينة، فحرقوها، وأرسلوا إلى أمويي الأندلس بهذا الخبر، يتقوون بهم، كما تقوى الأغالبة بالعباسيين فسعد الأمويون بذلك، لأن هذا العمل سيبعد العباسيين، أو الأغالبة أنصارهم، عن السيطرة على المغرب الأوسط[٢٠].

وبموت محمد أوائل سنة ٢٤٢هـ، تولى ولده أحمد بن محمد الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، واتسم عهده بالهدوء عامة[٢١] فأعطاه هذا الهدوء فرصة للعمارة، ولمواصلة تحقيق بعض الانتصارات في ميدان صقلية[٢٢].

وتوفي أحمد بن محمد بن الأغلب حوالي منتصف ذي القعدة سنة ٢٤٩هـ[٢٣]، فتولى بعده أخوه زيادة الله بن محمد بن الأغلب، لكن عهده كان

٢٠- وإلى بناء محمد هذه المدينة يشير ابن الأثير بقوله:

"وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنة تسع وثلاثين ومائتين، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الإباضي وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله" الكامل جـ٦ ص٦٦

٢١- انظر ابن الأثير، المرجع السابق

٢٢- انظر جهاد أحمد في صقلية في ابن عذاري: البيان المغرب جـ١ ص ١١٢-١١٣.

٢٣- انظر ابن أبي دينار: المونس ص ٥١.

قصيراً، ومن إيجاز أخباره فى المصادر، ثم من الصفات الحسنة التى وصف بها[٢٤]، يمكن الاستدلال على أن عهده كان عهد أمن وسلام.

وتولى بعد زيادة الله (الثانى) ابن أخيه أبو الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، الذى شغف بالصيد والذى كثر مرضه أواخر عهده، حتى لقب بالميت، من كثرة الإرجاف بإشاعة موته، وعلى الرغم من وجود بعض المشاكل الداخلية، وتعدد الحروب، إلا أن أبا الغرانيق نجح فى أخذ جزيرة مالطة، بجند قاده أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب[٢٥]

ومن الأمور الجديرة بالإشارة فى عهد أبى الغرانيق كذلك، حرصه على تولية ولده أبى العقال عهده، وبايع له، واستحلف أبو الغرانيق أخاه إبراهيم بأيمان وثيقة مغلظة، ألا ينازع ولى العهد[٢٦]. وفى تولية العهد هذه إشارة إلى مدى استقلال الدولة الأغلبية من وجهة نظر التطور السياسى للمنطقة.ولكن ما إن مات أبو الغرانيق، حتى يظهر الرأى العام قوة غالبة، ويتدخل الناس فى رفض ولاية ولى العهد، ويختارون إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٦١هـ، فتمت بيعته، وسار فى الناس سيرة حسنة[٢٧]

٢٤- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٢٥

٢٥- انظر المرجع السابق ص١٢٦-١٢٧، وابن خلدون العبر جـ٤ ص٢٠١.

٢٦- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٢٧

٢٧- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١١٦.

ومن أهم الأحداث التى ترصد فى عهد إبراهيم بعض الأحداث الداخلية والخارجية، فمن الأحداث الداخلية بناء مدينة رقادة، وانتقال ابراهيم إليها سنة ٢٦٣هـ[٢٨]، وثورة الموالى على إبراهيم سنة ٢٦٤هـ لقتله رجل منهم، ومرة أخرى يتدخل أهل القيروان، للدفاع عن ابراهيم ليتخلص ابراهيم من الثائرين، بعد ذلك ويشترى بدلاً منهم عبيداً للحرب[٢٩]

ومن الأحداث الداخلية كذلك بناء إبراهيم لقصور ومساكن بتونس، وانتقاله إليها، مقراً للأغالبة، سنة ٢٨١هـ[٣٠] ومن الأحداث الداخلية كذلك عصيان بعض القبائل، مثل قبيلة وزداجة، وهوارة، ولواتة، على فترات منفصلة، كما ثار أهل تونس، والجزيرة، وصطفورة، وباجة، وقمودة والأربس، ولم يبق بيد إبراهيم من إفريقية فى حدود سنة ٢٧٨هـ إلا الساحل الشرقى، ولكن إبراهيم تمكن من القضاء على هذه الثورات، واستعاد سلطانه على الإقليم.

ومن أهم الأمور الداخلية قتل إبراهيم لعدد من رجاله من قبيلة بلزمة، فقوى بذلك أمر قبيلة كتامة -وكان تعانى من سيطرة بلزمة عليها- فساعدت

٢٨- انظر ابن أبى دينار: المونس ص٥٢

٢٩- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٢٨-١٢٩.

٣٠- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٢٠٣.

أبا عبد الله الشيعى على إقامة دولة الفاطميين، فكانت فعل ابراهيم هذا أحد الأسباب المبكرة التى ساعدت على سقوط دولة الأغالبة(٣١)

ومن أهم الأحداث الخارجية، تصدى دولة الأغالبة للحملة المصرية، التى اندفع للقيام بها العباس بن أحمد بن طولون، مستغلاً فرصة خروج أبيه للشام، فأخذ أموال بيت المال، واقترض من التجار مبلغاً ضخماً بضمان صاحب الخراج، وخرج إلى إفريقية، وحقق بعض الانتصارات، لكن ابراهيم، تمكن أخيراً من إلحاق الهزيمة به، فنكص العباس تجاه مصر، حيث قبض عليه أبوه.(٣٢)

لكن أهل جبل نفوسة (الإباضية) يعترضونه، فيعطلونه بحرب، قتل فيها من الفريقين عدد كبير، فتوجه إبراهيم إلى طرابلس، حيث تخلص من عاملها محمد ابن زيادة الله (الثانى)، وواصل سيره تجاه الشرق لكن جيشه يتسرب منه، فعاد إلى تونس.(٣٣)

٣١- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٣٢-١٣٣

٣٢- انظر المرجع السابق ص ١٢٩-١٣٠ وكذلك جـ٢٨ ص١٤-١٦

٣٣- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٢٠٣، وابن عذارى البيان المغرب جـ١ ص١٢٩-١٣٠.

ومن الأحداث الخارجية كذلك، توجيه الأغالبة جيشاً إلى صقلية فى جمادى الأخرة سنة ٢٨٤هـ لمواصلة تثبيت أقدامهم هناك، وتحقيق مزيد من الفتوحات.(٣٤)

ومن الأحداث الخارجية المهمة، ظهور حركة الدعوة الشيعية، الممهدة لتكوين الدولة الفاطمية بعد ذلك، فى المغرب، فى عهد إبراهيم.(٣٥)

أما نهاية إبراهيم، فشىء جديد بالنسبة للعلاقات العباسية الأغلبيـ ، ذلك أن عدداً من أهل تونس الحانقين على إبراهيم، توجهوا إلى الخليفة العباسى المعتضد.

فوجه إليهم رسولاً ، قدم إلى تونس سنة ٢٨٩هـ، يلومه على ما فعله، فآثر إبراهيم الاعتزال لولده أبى العباس، وشغل نفسه بالجهاد فى صقلية خارجاً من سوسة إليها حوالى منتصف ربيع الآخر سنة ٢٨٩، ليموت هنالك بعد تحقيقه عدة انتصارات مهمة، وذلك حوالى منتصف ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ(٣٦).

ويلحظ فى هذا الأمر، مدى قوة الرأى العام، الذى سبق أن ساند إبراهيم فى القيروان، ثم ها هو ذا يساعد على اعتزاله. كما يلحظ أن الوجود العباسى

٣٤- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٣٤.

٣٥- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١٢٤.

٣٦- انظر النويرى: نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٣٥-١٣٨.

قد ظهر فى المنطقة، فبعد أن كان ظهر ضعفه أيام أبى الغرانيق محمد الذى ولى ولده عهده، دليلاً على استقلال الأغالبة، يعود النفوذ العباسى فى عهد إبراهيم، فيستجيب للضغط العباسى، ويؤثر الاعتزال لولده، كما رأينا.

وتولى أبو العباس عبد اللـه بن إبراهيم فى حياة أبيه، سنة ٢٨٩هـ، ولكن لم تطل أيامه إلى أكثر من تسعة أشهر ونصف، فقد اغتاله بعض خدم أبيه، وهو نائم، وقطعوا رأسه، وأخرجوها لولده زيادة الله وهو فى حبس أبيه.[٣٧]

وبدأ أبو مضر زيادة الله بن عبد اللـه (ثالث من تسمى من الأغالبة باسم زيادة الله ، وآخر حكام الدولة) عهده بالدماء، فقتل الخدم الذين قتلوا أباه، وتخلص من عدد من إخوته وبنى عمه[٣٨]، ثم قتل عمه وأهم قادته الملقب بالأحول[٣٩]، ففقد بذلك ركناً ركيناً، وقائداً ماهراً، فتأثرت بذلك حركة مقاومة الدولة لحركة الشيعة، التى يقودها أبو عبد اللـه الشيعى، داعية الفاطميين.

٣٧- ذكر النويرى فى المصدر السابق (ص١٤٥) أنهم ثلاثة، وجعلهم ابن الخطيب اثنين، انظر أعمال الأعلام القسم الثالث ص٣٨.

٣٨- أوصلهم النويرى إلى تسعة وعشرين رجلاً، ولعل فى هذا بعض مبالغة (المرجع السابق)

٣٩- لم يكن أحول، وإنما لقب بهذا اللقب لأنه إذا أطال النظر ربما كسر جفنه، انظر ابن الأثير الكامل جـ٦ ص١١٤-٤١٥، ٤٤٤.

ومن أهم الأمور التى واجهت عهد زيادة الله (الثالث) زيادة قوة أبى عبد الله الشيعى، وظور خور أخر حكام الأغالبة وضعفه، وتخاذله، ففر من تونس إلى رقادة، وبدأت الهزائم تتوالى على الأغالبة، فأعد العدة لهربه، وجمع الأموال والذخائر، ليهرب من إفريقية، تجاه مصر.(٤٠)

ويلحظ هنا أن موقف العامة لم يكن مدافعا عن الأغالبة، إذ نهبوا قصورهم، ولم يساعدوا إبراهيم بن أبى الأغلب، الذى أمل أن يجتمع إليه الناس بعد فرار زيادة الله، ليدفع الحركة الشيعية.(٤١)

كما يلحظ أن موقف الخلافة العباسية كان موقفاً سلبياً مع زيادة الله، أول الأمر باكتفائها بإرسال خطاب يحث أهل إفريقية على مساعدة زيادة الله فى مقاومته للحركة الشيعية، وكان موقفهم سلبياً أيضاً مع زيادة الله عندما فر تجاه العراق على أمل أن يعينوه بقوة، فلم يسمحوا له أن يصل إلى مركز الخلافة، مما اضطر زيادة إلى العودة إلى مصر، ثم انتهى أمره بالتوجه إلى بيت المقدس ليموت هناك.(٤٢)

وكان هروب زيادة الله، ثم دخول أبى عبد الله الشيعى رقادة سنة ٢٩٦هـ بمثابة إعلان لنهاية دولة الأغالبة، ونهاية أية سلطة حقيقية للخلافة الإسلامية السنية ، فى المشرق، على المغرب حيث تمكن الفاطميون من بسط سلطانهم على بلاد المغرب.

٤٠- انظر النويرى : نهاية الأرب جـ٢٤ ص١٤٦-١٤٨

٤١- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص١٤٥

٤٢- انظر ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٢٠٥-٢٠٦

وكان الأغالبة قد بدءوا سنة ١٨٤هـ ولاة للعباسيين، وعلى الرغم من قيامهم بخدمة أهداف الدول العباسية أول أمرهم بصورة مرضية، إلا أن اختيار عبد الله ابن إبراهيم سنة ١٩٦ بعد وفاة أبيه، كان بمثابة إعلان عملى للاستقلال إذ جاء اختيار بنى الأغلب للحاكم أولاً، ثم تلاه سجل تعيين الخلافة العباسية، كما يلحظ مدى الاستقلال أيضاً فى خطوة إضافية خطاها أبو الغرانيق بتولية ولده ولياً لعهده، وأخذ البيعة له، وأخذ ضمانات أسرته أيضاً.

ومع هذا فلم يخل تاريخ دولة الأغالبة من قيامهم بدور معين للعباسيين، ووقوفهم ضد الحركات الخارجية وضد الأدارسة، كما قاموا بدور سياسى مهم فى الحوض الجنوبى الغربى للبحر المتوسط، حيث بسطت نفوذها على جانب منه، بافتتاح صقلية، الذى بدأ منذ سنة ٢١٢هـ، وتمثل جزيرة صقلية حصن أمان للمغرب، وبوقوعها فى يد المسلمين، تحرم الحملات المضادة الأوربية من قاعدة هجوم، أو محطة تجميع للقوى من قبل البيزنطيين، أو من قبل أوربا المتوثبة.

الباب الثالث

الدول البربرية الكبرى

الفصل الأول

الفاطميون وبنو زيرى

الفصل الأول

الدولة الفاطمية بالمغرب وبنو زيرى

الدولة الفاطمية دولة شيعية، نشأت أول أمرها بالمغرب، ثم انطلقت تجاه قلب العالم الإسلامى، مصر والشام، على أمل مد سلطانها إلى أقصى مدى. وقبل أن نتكلم عن نشأتها وأحوالها فى المغرب، نقدم بمقدمة موجزة عن الشيعة.

والشيعة هى الفرق التى ناصرت علياً وبعض أبنائه، من بعده ؛ ويرجع بعض الدراسين نشأتها إلى بداية دولة الرشدين، والصحيح أن نشأة هذا الاتجاه من الناحية الاصطلاحية لا يمكن تصور قيامها قبل الصراع الذى دار بين على بعد خلافته، ومعاوية رضى الله عنهما وقد تأصل هذا الاتجاه، واشتد، بعد مقتل الحسين رضى الله عنه.

وصار للاتجاه الشيعي أصول مذهبية: فقهية: وسياسية خاصة به، ويتميز مذهب الشيعة السياسى بأنهم يعتبرون أن الإمامة ركن الدين، وأنها واجبة، ومن ثم لا دخل للعامة فيها، والمدار فيها على التعيين لا على الشورى، ويتصورون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عين علياً وصياً وإماما، وأن علياً -بدوره - عين الإمام من بعده، وهكذا، فالإمامة إذن حق لعلى وأبنائه من بعده، ومعظم فرق الشيعة ترى أن الإمام معصوم، كما تعتقد معظمها بوجود "المهدى" الذى بعودته ستمتلئ الدنيا - فى زعمهم - عدلاً، بعد أن ملئت جوراً.

من أهم فرق الشيعة:

١ -**الزيدية** : وهى فرقة أقرب ماتكون إلى الفكر السنى وهم لا ينكرون خلافة الشيخين، ولا يقولون بالمهدية، ولا يحلون زواج المتعة، وإن كانوا يرون أن الخلافة لا تكون إلا فى على وبنيه من فاطمة، وهم مع هذا لا يقولون بعصمته.

٢ -**الكيسانية**، وأهم مايميزها، إطلاقهم الإمام فى أبناء على عامة (من فاطمة أو من غيرها)، وإمامهم بعد الحسن والحسين هو محمد بن الحنفية، كما يرون عصمة الإمام.

٣ -**الرافضة**، وكانوا أتباعاً لزيد بن على (الزيدية) ثم تخلوا عنه، ومالوا إلى جعفر بن محمد بن الحنفية، فسماهم زيد بالرافضة.

٤ -**الإمامية** (اثنا عشرية وإسماعيلية) وهاتان الفرقتان الأخيرتان تعتبران أن علياً هو وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمامهم الأول، يتلوه من أبنائه إمامان هما الحسن والحسين، والإمام الرابع هو على زين العابدين، والخامس ابنه الباقر، والسادس جعفر الصادق، وبعده تتفرع الإمامية لفرقتين: الإثنا عشرية والإسماعيلية، ويهمنا التركيز على الفرقة الثانية، ذلك انهم اعتبروا أن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع، ثم يظل الأئمة مستورين من بعده إلى ظهور الإمام عبيد الله المهدى صاحب الدعوة للدولة الفاطمية.(١)

---

١ -وقد اختص الاثنا عشرية باسم الامامية ، فالإمام السابع عندهم هو موسى الكاظم ، والثامن ابنه على الرضا ، ثم ابنه محمد التقى، ثم ابنه على الهادى (أو الجواد) ثم ابنه الحسن العسكرى ، ثم مات الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ وترك حملاً محمداً ابنه

نشأة الدولة:

لقد ركز دعاة الفاطميين على الأطراف : اليمن والمغرب ويهمنا هنا أمر المغرب، فقد أرسل كل من الحلواني وأبو سفيان إلى المغرب، فنزلا بأرض كتامة "فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف" وقاما بالتجهيزات الأولية للدعوة والإعداد النفسي للمرحلة التي تليها، وكانت الأوامر الصادرة إليهما واضحة لهما : إن المغرب أرض بور، فاذهبا، فاحرثا، حتى يجيء صاحب البذر"[٢]

وبعد موتهما، صدرت الأوامر إلى داع جديد، كان له الفضل الأكبر في قيام الدولة، هو ابو عبد الله الشيعي، إذ صدر له الأمر التالي : " إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر، فإنها موطأة لك".

وتحيل أبو عبد الله في الدخول إلى هذه البلاد، ولم يتوجه إليها مباشرة، بل آثر الالتقاء في مكه المكرمه بحجاج من كتامة، وحدثهم بما لم يعلموه، وأظهر لهم العبادة والزهد، والجاهم إلى أن طلبوا إليه أن يصحبهم إلى بلادهم، بدل الإقامة في مصر كما أظهر لهم.

وأخبر ابو عبد الله الشيعي كتامة ان للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل هذا الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان " ومازال الصراع في المغرب دائراً بين أنصار الدعوة والغالبية بين انتصار

فاعتقل " ويقال دخل مع أمه في السرداب بدار أبيه " فلقبه أنصاره بالمهدى وظلوا ينتظرون خروجه (انظر ابن خلدون العبر جـ ٤ص٢٩-٣٠)

٢- انظر المرجع السابق

وهزيمة إلى ان تولى أبو مضر زيادة الله الأغلبى إفريقية، فيعلن ابو عبد الله الشيعى(٣) أن المهدى يخرج فى هذه الايام، ويملك الارض، فيا طوبى لمن هاجر إلىّ وأطاعنى " وأرسل للمهدى فى العراق بهذا، وعلم العباسيون أيام المكتفى بهذا الأمر فطلبوه، فهرب هو ولده ابو القاسم نزار مع خاصته يريدون المغرب عن طريق مصر، وتمكن من الوصول إلى المغرب بعد جهد، ووصل إلى سجلماسة وصاحبها وقتذاك اليسع بن مدرار، وتقرب إليه، إلا أن ابن مدرار حبسه لما جاءه الأمر من زيادة الله الأغلبى، "فلم يزل محبوساً حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى " .

وكان دخول رجال الفاطميين إلى رقادة يوم السبت مستهل رجب سنة ٢٩٦ بمثابة إعلان عن بدء الدولة، وإن لم يأخذ الشكل الرسمى الكامل، وبإخراج المهدى من محبسه - كما أشرنا - ملك المهدى مناطق واسعة هى ملك الأغالبة، وبنى رستم، وبنى مدرار، وذكر اسم المهدى فى الخطبة يوم الجمعة فى العشر الاخير من ربيع الاخر سنة ٢٩٧هـ.

وقد ساعدت الظروف السياسية التى مربها المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت على ظهور هذه الدولة، فقد كان المشرق الإسلامى فى حالة من الاضطراب والخلفاء العباسيون فى حالة من الضعف من الوقوع تحت سيطرة الأتراك، وكان خطر القرامطة قد ظهر فى العراق والشام، واستعادت القوى البيزنطية نشاطها وأضرت بالثغور الإسلامية، وحققت عدة مكاسب لها فى

---

٣ -ويصفه المقريزى فى اتعاظ الحنفا جـ١ص٩٧ بقوله : " من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول ، وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال ".

ميادين اخرى، ولم يكن المغرب والأندلس فى حالة أفضل من حالة المشرق، إذ كان يمر بحالة من الضعف واضحة.

وأياً ما كان الامر، فقد ظهرت هذه الدولة وأعلنت نظامها السياسى نظاماً خلافياً، فاتحة بذلك باب التعدد فى اتخاذ لقب الخليفة، وكان من قبلهم حكراً على العباسيين المسيطرين على معظم العالم الإسلامى، والذين يشملون برعايتهم وحمايتهم الحرمين الشريفين.

وبدأت الدولة الفاطمية فى المغرب نشاطاً واسعاً للدعوه الشيعية واتخذوا فى ذلك أساليب قاسية للغاية، وإن كانت قد اضطرت لإيقاف هذا النشاط او للتقليل منه - مؤقتاً - بسبب نشوب بعض الاعتراضات والفتن، ثم تعود الدعوة بعد ذلك ربما أشد وأقوى.

ونظم الفاطميون أمور دولتهم، فدونوا الدواوين وعينوا العمال وسكوا النقود، وجمعوا الأموال، ونظموا الجيش والأسطول.

الدعوة الشيعية فى المغرب:

حرصت الدولة الفاطمية (العبيدية) أول نشأتها على محاولة محو الآثار السابقة سواء أكانت معمارية أم مذهبية، فتتبعوا الأغالبة وآثارهم تدميراً، واضطروا بقية الأدارسة إلى الانكماش فى مكان قصى.

وحرص الفاطميون كذلك على نشر مذهبهم، وقام دعاتهم بجهود بالغة الضخامة لمحاولة تحويل البربر إلى المذهب الشيعى بدل المذهب المالكى الذى كان شائعاً، ومع هذه الجهود لم يحققوا نجاحاً مؤثراً وإذا تذكرنا أن المغاربة مالوا إلى مذهب الإمام مالك تأكيداً لذاتيتهم وصورة من صور استقلالهم، عرفنا صعوبة تحولهم بعد عدة قرون إلى المذهب الشيعى، على

الرغم من جهود الفاطميين ودعاتهم في الدعوة والمناظرة والترغيب والترهيب، والتنكيل والبطش .

وقد ابتدع الفاطميون في المغرب عدة أمور، يذكر بعضها ابن حماد بقوله: " وكان مما أحدث عبيد الله أن قطع صلاة التراويح، في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبل، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وأسقط من أذان صلاة الصبح : " الصلاة خير من النوم " وزاد: حي على خير العمل، محمد وعلى خير البشر "(٤).

بنو زيرى ولاة ومستقلين

حرص الفاطميون قبل أن ينقلوا مقر خلافتهم إلى مصر، على اختيار ولاة أكفاء في المغرب، ففكروا في قبيلة كتامة، ثم في جعفر بن حمدون، الذى خشى منهم، وهرب، ومال بطاعته إلى أمويي الأندلس، ثم استقر رأى المعز لدين الله الفاطمى على بلكين بن زيرى، أحد رجال صنهاجة الشمال، فقبل الولاية(٥)، وهكذا بدأ بلكين ولايته من سنة ٣٦٢هـ، بادئاً عهداً لأسرته سيطول أكثر من قرنين من الزمان، تحكم فيه هذه الأسرة عمالاً أولاً، ثم حكاماً لهم درجة من الاستقلالية، تختلف درجتها حسب المنطقة، وحسب الظروف.

---

٤ -أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص٥٠

٥- انظر ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٥٤،١٥٥

وكان على بلكين أن يواجه عدة مشاكل مهمة، منها مشاكل قبيلة زناتة المنافسة لقبيلة صنهاجة، ومنها مجابهة الأخطار القادمة من المغرب الأقصى والتى حركتها بين الحين والحين قوى الأمويين بالأندلس وتمكن بلكين من تحقيق عدة انتصارات مهمة فى هذه الميادين، مما جعل الفاطميين، فى عهد العزيز ، يكافئونه بضم عدة مناطق إلى ولايته لم يكونوا أعطوه اياها من قبل، وبسط بلكين نفوذه على أجزاء واسعة من المغرب(٦).

وبموت بلكين أواخر الحجة سنة ٣٧٣هـ، يتولى ولده المنصور أوائل سنة ٣٧٤هـ، ثم يأتيه سجل تعيين الفاطميين له، وفى هذا إشارة إلى ثبات أقدام بنى زيرى فى المنطقة ، وإلى أن ولايتها صارت من حقهم، فقد أوصى بلكين أن يكون الحكم لولده المنصور من بعده(٧) وقد عبر المنصور عن أكثر من هذا، بقوله لمن جاءوه يهنئونه بالولاية:

"إن أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب، ويعزل بكتاب، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم: حمير"(٨)

٦- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٢٠، ٢٢١.

٧- انظر ابن أبى دينار: المونس ص ٧٧

٨- ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص ٢٤٠، والإشارة إلى حمير هنا، إشارة إلى أن بعض البربر كان يرجع أصله إلى أصول سامية من حمير، التى قيل إن بعضها هاجر إلى المنطقة فى هجرات تمت قبل الإسلام

وفى هذا العبارة إشارة مهمة إلى أن تطلع بنى زيرى إلى الاستقلال كان مبكراً جداً، وأن قبول بلكين للولاية كان خطوة إلى تمكين الأمر لأولاده، وأسرته من بعده.

ومن التطورات المهمة فى عهد المنصور، تمكنه من استئلاف فريق من زناتة(٩)، ومن الأحداث المهمة حرصه بعد هزيمة جنده أمام فاس، على عدم التعرض لهذه المنطقة طيلة عهده، ومن إنجازاته أيضا قضاؤه على بعض الثورات، مثل ثورة أبى الفهم. كما حرص المنصور بن بلكين على اتخاذ مظاهر الفخامة والأبهة(١٠).

ويتولى باديس بن المنصور ولاية إفريقية بعد وفاة والده سنة ٣٨٦هـ، وكان صغير السن فأرسل إليه العزيز الفاطمى بسجل التعيين.(١١)

ومن الأحداث السياسية فى عهد باديس، تفكير بعض صنهاجة فى الخلاف، لصغر سن باديس، وتعيين باديس عمه حماد بن بلكين على أشير، واتساع نفوذ حماد فى المنطقة، وتقوى زيرى بن عطية الزناتى، وظهور زناتة على صنهاجة، وظهور خلافات داخلية فى الأسرة الزيرية، حيث انفصل حماد عن باديس بعد أن تولى المغرب الأوسط، وتقوى ببعض زناتة، وتكررت مرات الصراع بين حماد وباديس، ثم بين حماد والمعز بن باديس، دون أن يحقق طرف نصراً حاسماً(١٢)، وهكذا عجز ولاة المغرب من القضاء

٩- المرجع السابق ص ٢٤١، ٢٤٤

١٠- انظر ابن أبى دينار: المونس ص ٧٧،٧٨،٧٩

١١- انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ص٢٤٧،٢٤٨

١٢- المرجع السابق ص ٢٤٨-٢٤٩، ٢٦١-٢٦٢.

على انفصال داخلي قاده حماد في المغرب الأوسط، واضطر المعز بن باديس إلى إبرام صلح سنة ٤٠٨هـ، كان بمثابة إعلان اعتراف عملي بهذا الانفصال، وأشار ابن خلدون إلى نتيجته بقوله: "واقتسموا المظلة، والتحموا بالإصهار، وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حماد بن بلكين أصحاب القلعة"(١٣) وإن حاول المعز بن باديس أن يستعيد ما كان لأبيه، بمحاصرة قلعة بني حماد سنة ٤٣٢هـ لمدة سنتين، دون طائل(١٤)، فكان هذا الصراع هو آخر صراع عسكري بين الدولتين الباديسية والحمادية.

ومن أهم الأحداث السياسية في عهد المعز بن باديس، الخلاف الذي نشب بينه والخلافة الفاطمية، بدأ أول أمره يأخذ شكلاً مذهبياً، حيث أظهرت دولة بني باديس الميل إلى الفكر السني وحيث قوت جانب أهل السنة ضد المشارقة (الشيعة) في المغرب(١٥) ثم خطت الدولة الباديسية خطوة أخرى للوصول إلى مرماهم، وغرضهم الرئيس، وهو الانفصال عن الفاطميين.

وتختلف المصادر في تحديد السنة التي اتصل فيها الباديسيون بالعباسيين، فابن عذاري يحددها بسنة ٤٣٣ في عبارة شديدة الاختصار إذ يقول إن في هذه السنة "أظهر المعز الدولة العباسية، وورد عليه عهد القائم بأمر الله"(١٦)،في حين يحددها ابن أبي دينار بسنة ٤٣٥هـ(١٧)، وابن الأثير،

١٣- العبر جـ٦ ص ١٥٨

١٤- المرجع السابق

١٥- انظر ابن عذاري: البيان المعز جـ١ ص ٢٧٥

١٦- البيان المغرب جـ١ ص١٧٥-٢٧٦

١٧- المونس ص٨٣

قبلهما، جعلها فى سنة ٤٣٥هـ، ويزيد فيشير إلى الكتاب الذى أرسله القائم العباسي للمعز بن باديس، وأوله: "من عبد الله ووليه الملك الأوحد، ثقة الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنام، وناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبى تميم المعز بن باديس بن المنصور، ولى أمير المؤمنين، بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين..."، ويشير إلى قطع الخطبة للفاطميين منذ ذلك الوقت، وإحراق أعلامهم.(١٨) وأما ابن خلدون فيحدد هذه الخطوة بسنة ٣٤٧هـ.(١٩)

ثم تتفق المصادر، بعد هذا الاختلاف على أن سنة ٤٤٠هـ هى التى شهدت قمة هذا الخلاف، من قطع الخطبة، وحرق البنود، ولعن الفاطميين. والواقع أن هذا التاريخ الأخير، هو التاريخ العملى للقطع، حيث أتبعه قطع السكة كذلك. وأما ما كان قبل ذلك من تواريخ (سنة ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧) فلعلها تواريخ خلافات، أو تهديدات، لم تصل إلى درجة القطع، أو لعل الدولة الفاطمية تداركت الأمر، وعاد بعدها الباديسيون إلى الطاعة.

ومن جانب آخر، أرسل الفاطميون، بعد أن ساءت علاقتهم بالباديسيين، عرب بنى هلال وبنى سليم من مصر، لاجتياح بلاد إفريقية، ثم لم تشر المصادر إلى أن هذه العلاقة، بعد هذا الخلاف العنيف، عادت إلى بعض الهدوء مرة أخرى، وعاد الباديسيون، بصورة أو بأخرى، إلى طاعة الفاطميين، وعاد اسم الخليفة الفاطمى إلى الظهور مرة أخرى على النقود

١٨- الكامل جـ٨ ص ٢٦٥-٢٦٦

١٩- العبر جـ ٦ ص١٤

الباديسية، وهذه النقطة وضحتها الوثائق النمية، وأغفلتها النصوص التاريخية(٢٠)

والحقيقة أن عهد المعز بن باديس شهد ارتفاع الدولة فى بعض فتراتها، ثم كان خلافه مع الفاطميين بداية النهاية لدولته أيضاً، وماترتب على ذلك من إرسال الغزوة الهلالية إلى الإقليم، مما أدى إلى خسائر اقتصادية مؤثرة (وإن لم تخل هذه الغزوة من نتائج لغوية واجتماعية ودينية مهمة).

وتولى تميم بن المعز أمر إفريقية. وكان أبوه ضعف آخر حياته قبل أن يموت سنة ٤٥٣هـ وقد أثرت وفاة المعز بن باديس فى الوضع السياسى، فطمع بعض الأطراف فى الانفصال، مثل حمو بن مليل فى صفاقس، وبنى جامع الهلاليين فى فاس وغيرهما(٢١)، وبهذا يدخل الباديسيون مرحلة الضعف، وتتوزع إفريقية جهات متعددة منفصلة، بدل التوحد والقوة.

ولايبقى من عهد بنى باديس، سوى ثلاثة حكام، هم يحيى بن تميم (٥٠١-٥٠٩هـ). وعلى بن يحيى (٥٠٩-٥١٥)، والحسن بن على آخر حكام بنى باديس.

وأهم ما يلحظ فى هذه الفترة هو ازدياد ضعف الدولة، وظهور قوة جديدة فى المنطقة، هى قوة النورمان أصحاب صقلية الجدد، فامتدت أيديهم إلى عدة مناطق فى إفريقية، مثل المهدية، وصفاقس، وسوسة، وطرابلس،

٢٠- ناقشت هذه القضية بالتفصيل فى كتابى "تقود دولة المغرب من سنة ٤٤١-٩٨٢هـ، دراسة فى التاريخ والحضارة"، ولطبيعة دراسة التطور السياسى للمغرب، وإيجازها، فالقارىء مرجو أن يعود إلى الكتاب المشار إليه آنفاً ففيه مزيد من التوضيح.

٢١- انظر ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص٣٥٤-٣٥٥.

"واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلها، ووضع على أهلها الجزية" ، ولم تكن فى المنطقة قوة تتمكن من صد هذا الخطر الجديد، إلى أن ظهرت قوة الموحدين.(٢٢)

والجدير بالذكر فى نهاية هذا الحديث الموجز عن بنى زيرى، أنهم مثلوا خطوة مهمة فى التطور السياسى فى المنطقة، فهم- بربر صنهاجة- بدأوا ولاة للشيعة الفاطميين، إلى أن انضوى بعض البربر تحت مظلة دولتهم الشيعية، ثم أظهر بنو زيرى مظاهر القوة وبعض مظاهر الاستقلال منذ أوائل عهد ولايتهم، إلى أن أعلنوا فى عهد المعز بن باديس استقلالهم عن الفاطميين، ليحكموا بذلك منطقة واسعة، شملت المغرب الأوسط (تحت سلطان بنى حماد منهم) وإفريقية (تحت سلطان بنى باديس منهم)، وبهذا يحكم البربر أنفسهم بأنفسهم، فى منطقة واسعة من المغرب، (ثم يلحق بهم صنهاجة الجنوب، فيفرضون سلطانهم على بقية المغرب، ليحكم المغرب حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى بثلاث قوى صنهاجية ويمهد الأمر لظهور قوة سياسة بربرية جديدة بعد ذلك لتحكم المغرب كله وذلك فى عهد دولة الموحدين، كما سنرى فى الفصلين التاليين).

٢٢- انظر ابن خلدون: العبر جـ٦ ص١٦-١٦٢

الفصل الثانى

المـــرابطـــون

الفصل الثانى

المرابطون

١- قبائل الملثمين:

ذكرنا من قبل أن البربر قسموا قسمين: بتر، وبرانس ويهمنا فى حديثنا عن نشأة المرابطين القسم الثانى منهما، وهم البرانس وسبق أن أشرنا أيضاً إلى انقسام البرانس إلى عدة قبائل، وإن من بين أهم هذه القبائل قبيلة صنهاجة.

وقد تكاثرت صنهاجة حتى تولدت عنها عدة قبائل عاشت فى المغرب كله تقريباً، إذ انتشر بعضها فى المغرب الأدنى، وكونوا دولة لهم هى دولة بنى باديس، وانتشر آخرون فى المغرب الاوسط، وكونوا دولة بنى حماد، أما فى المغرب الأقصى فقد انتشر عدد ضخم منهم.

وطبيعى لمجموعة من البشر عاشت على هذه الرقعة الواسعة بما فيها من بيئات مختلفة: ساحلية وجبلية وصحراوية، أن تتنوع أشكال حياتها، من شكل مدنى حضرى، إلى شكل بدوى.

وسنركز هنا على صنهاجة المغرب الأقصى أصحاب الدولة المرابطية، فنذكر أنهم انتشروا فى هذا المغرب، وإن مالت جماعات ضخمة منهم تجاه الجنوب، فكانوا يعيشون على ساحل المحيط منحدرين تجاه الجنوب، حتى وصلوا منحنى نهر النيجر، كما وصلوا شرقاً إلى منطقة فزان، وهى مساحة بالغة السعة، وسنلاحظ أن هذه المساحة هى نفسها المساحة التى سيسيطر عليها المرابطون مقيمين عليها دولتهم فى المغرب.

وقد تكاثرت صنهاجة تكاثراً واضحاً، حتى اعتبرها البعض ثلث البربر، ونتج عنها عدة فروع، عدها بعض الدارسين سبعين بطناً، ومن أهم هذه الأقسام لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة.

وقد أطلق على هذه القبائل اسم قبائل الملثمين (١)، وقد عاشت- رغم وفرة مالها- حياة البداوة- فرضتها عليها طبيعة الحياة فى القفار، وإن لم يمنع هذا من وجود بعض أسباب الحياة الهانئة للرؤساء، واطلاعهم على وسائل الحياة فى الحضر، حيث إخوانهم المقيمون بالقرب من السهل الساحلى للبحر.

وكانت القبيلتان الأوليان (لمتونة وكدالة) تتنافسان على الرئاسة، لكن لمتونة فازت بها، وسيدفعنا هنا للحديث عن أشهر قبائل الملثمين، ومواطنهم، ودورهم فى القيادة.

١- أطلق عليها هذا الاسم لحرص رجالها، دون النساء، على اللثام يخفون به جزءاً كبيراً من وجوههم، ويتمسكون به حتى أثناء تناول طعامهم ويعتبرونه شعاراً لهم وفخراً، وقد قيل فى سبب تمسكهم بهذا اللثام عدة أقوال :

ا- إنهم استعملوا اللثام فى حرب استعانوا فيها بنسائهم ليكثر عددهم فى نظر عدوهم، فاتخذ الجميع اللثام لإخفاء هذا الامر عن العدو، أو حتى يلقوا فى روع الأعداء أن هذا الجمع الملثم ليس من الرجال، وهذا التفسير الأخير بعيد عن فروسية هذه القبائل وأخلاقها.

ب-إنهم اتخذوه، شأن بعض القبائل البدوية، لاتقاء لفحات الحر وسوافى الرمل، بيد أنهم حرصوا عليه، وتمسكوا به، فصار لهم عادة.

وقد قيل غير هذا من الأقوال أيضاً.

فأما مسوفة فعاشت بين سجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً، وساعدها هذا على السيطرة على الطريق التجارى المار بين هذين الحدين، فنالت بعض الثروة.

وعاشت قبيلة لمتونة فى منطقة واسعة، يحدها وادى نون، ورأس بوجادور على المحيط، وتشرف لمتونة على الطريق التجارى الساحلى على المحيط، ومدت نفوذها إلى الطريق التجارى الذى يقع بين غانة وسجلماسة، لقربه من مواطنها، وأدى ذلك إلى زيادة ثروة هذه القبيلة، التى حصلتها من خفارة التجارات، أو المشاركة فيها.

أما قبيلة جدالة فكانت أكثر هذه القبائل الملثمة تطرفاً إلى الجنوب، وتاخمت مواطنها الصحراء لتصل إلى المحيط، وهذه القبيلة قريبة من عدة مراكز تجارية فى بلاد السودان الغربى ، ومسيطرة كذلك على بعض الطرق التجارية، مما أتاح لها ثراء مشابهاً لثراء لمتونة.

وتعتبر لمتونة أقوى هذه القبائل الملثمة، وكان لها دور فى قيادة الملثمين ورئاستهم، وتمكن بعض رؤساء هذه القبيلة من توحيد الملثمين فى بعض الفترات، وكانت آخر فترات هذا التوحيد قبل قيام الدولة المرابطية، تحت رئاسة لمتونى اسمه ابو عبيد الله بن تيفاوت، وكان رجلاً صالحاً، فاجتمع عليه الملثمون وأحبوه، ولما مات قام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم وكان من قبيلة كدالة، وذلك سنة ٤٢٩هـ (٢).

٢-كانت هناك منافسة بين لمتونة وجدالة على زعامة الملثمين، وكانت جدالة أقل من لمتونة عدداً وثروة ، كما مر ، ولكن الظروف ساعدت على أن تئول الرئاسة إلى جدالة ، ذلك أن الزعيم اللمتونى عبيد الله بن تيفاوت استشهد فى معركة ضد أهل غانة ،

وكانت قبائل الملثمين هذه قد دخلت الإسلام(٣)، لكن إسلامهم كان يحتاج إلى كثير من التوضيح، ومع هذا قام هؤلاء الملثمون المسلمون الجدد بدور ضخم فى نشر هذا الدين فى مواقع بعيدة، إذ ساعدهم موطنهم الذى عاشوا فيه، بين المغرب والسودان الغربى، على نشر الإسلام فى هذه المواقع السودانية، وضربوا الجزية على من لم يدخله من القبائل المسالمة هنالك، وقد ظل الملثمون يجاهدون فى المنطقة السودانية هذه مدة طويلة بدأت قبل أن تنشأ دولة المرابطين واستمرت إبانها.

اتضح مما سبق جهاد الملثمين فى سبيل نشر الإسلام كما اتضح فى نفس الوقت عدم تفقههم فى الدين، ولما تولى يحيى بن إبراهيم الكدالى أمر الملثمين، بدأ عهد جديد بالنسبة لهذه القبائل.

وانهزم جيشه أيضاً ، فاسرعت كدالة القريبة من السودان الغربى إلى تلافى الأمر ، وتمكنت هذه القبيلة من رأب الصدع، وإعادة النصر للملثمين ، مما ساعد على تولى يحيى بن إبراهيم الكدالى الرئاسة ، بسبب قرابته من الزعيم اللمتونى السابق .

٣-اختلف حول التاريخ الذى دخلت فيه قبائل الملثمين الإسلام ، فهناك رواية تقول انهم أسلموا فى ولاية عقبة عندما توغل فى المغرب الأقصى بعد ان انتصر على بعض قبائل الملثمين ، وبنى مسجداً فى ماسة ، وهناك رواية اخرى تؤرخ لاسلامهم بانتهاء فتوح المغرب اى زمن موسى بن نصير .

لكن يعزى إلى البرانس ، ومنهم الملثمون ، بعض الارتداد ، وهناك إشارة إلى دور الأدارسة فى تمام نشر الدين فى مناطق الملثمين .

وأيا ما كان الامر ، فإنه يمكن التأريخ لدخول الملثمين الدين الجديد بأوائل القرن الثانى الهجرى ، ثم استمرت الجهود لإدخال من لم يدخل منهم الإسلام وتعديل مسار من انحرف منهم عن العقيدة ، وذلك لمدة اخرى من الزمن .

خطوات تكون دولة المرابطين

مرت خطوات تكون دولة المرابطين بمرحلتين أساسيتين ضمت واحدة منهما عدداً آخر من الخطوات الجزئية، وهاتان الخطوتان هما الدعـوة الدينيـة الإصلاحية، والطور السياسى وقيام الدولة.

١ – الدعوة الدينية:

وسنبدأ الآن فى تفصيل الخطوة الاولى وهى الدعوة الدينية الإصلاحية وهى تشمل بدورها عدة خطوات جزئية، هى مرحلة ما قبل الرباط، ثم مرحلة الرباط.

أ– مرحلة ما قبل الرباط:

مالت نفس يحيى بن إبراهيم الكدالى، المشـار إليـه آنفـاً، إلـى التفقـه بالقيروان، حيث الفقيه ذائع الصيت أبو عمران الفاسى(٤)، فطلب إليه أن يمـده بفقيه يفقههم فى أمور دينهم، لكن أحداً لم يتطـوع لهذه المهمـة، ربمـا بسـبب

٤–عالم مغربى وفقيه مالكى شهير ، طلب العلم فأخلص له ، وتتلمذ على يد الفقيـه المالكى المغربى أبى الحسن القابسـى ، ثم رحل فـى طلـب العلم فزار الأندلس ومصـر والحجـاز والعراق ، لتتـوب بـه الرحلـة بعد ذلـك إلـى المغـرب الأدنـى، حيث اسـتوطن القيروان، وبها ذاع صيته، عالماً وفقيهاً ومالكياً ، وكان إلى جانب علمه زاهداً متقشفاً لا تأخذه فى الحق لومة لائم، وقد خرج عدة تلاميذ ، كـانوا مصـابيح للمذهـب المـالكى فـى المغرب الكبير .

معرفتهم لصعوبة هذه المهمة، أو لغيره من الأسباب. وأياً ما كان الأمر، فقد أرسل أبو عمران الفاسى يحيى بن ابراهيم الكدالى إلى فقيه السوس (٥)، وطلب إليه أن يمده برجل يقوم بهذه المهمة، فاختار له تلميذاً من تلاميذه يدعى عبد الله بن ياسين .

وقد اختلف فى اسم القبيلة التى ينتمى إليها عبد الله بن ياسين، لكن الشائع أنه من صنهاجة، فإذا صح ذلك يكون تفسيراً جيداً لسبب اختيار فقيه السوس له، وسبب قبول عبد الله بن ياسين نفسه لهذه المهمة التى سبق أن رفضها تلاميذ أبى عمران الفاسى فى القيروان.

وعن علم عبد الله بن ياسين يمكن ذكر أنه تتلمذ حوالى سبع سنوات فى قرطبة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى حيث تتلمذ على يد فقيه السوس وهذا قدر من العلم كاف للإرشاد والتدريس بغض النظر عن الكلام الذى قاله جوليان عن مستوى هذا العالم المجاهد (٦).

٥-هو الفقية العابد الزاهد وجاج بن زلو اللمطى ، وهو صنهاجى أيضاً ، تتلمذ على يد أبى عمران الفاسى ، وكان يقيم فى رابطة خاصة به فى شبه عزلة لا يرتاد رابطته إلا تلاميذه ، وكانت الرسالة التى أرسلها أبو عمران الفاسى إليه مع يحيى بن إبراهيم الكدالى : ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، ليعلمهم القرآن وشريعة الإسلام ، ويفقههم فى الدين .

٦-انظر هذا الكلام فى تاريخ إفريقيا الشمالية منذ الفتح الإسلامى ص١٠٥.

ويمكن ان نذكر هنا بالرسالة التى أرسلها أبو عمران الفاسى مع يحيى بن إبراهيم الكدالى إلى فقيه السوس يطلب إليه أن يرسل معه من يثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، لأن هذه المهمة ليست بالهينة وتحتاج من الجهد العلمى والصبر الكثير ، وهذه شهادة طيبة وحقيقية تبين مستوى عبد الله بن ياسين انظر الحلل الموشية ص٩

ويمكن التأريخ لاختيار عبد الله بن ياسين لهذه المهمة بحوالى سنة ٤٣٠هـ، ذلك أن أبا عمران الفاسي مات في هذه السنة، فيكون التاريخ قريباً منها.

واصطحب يحيى بن إبراهيم الكدالى الفقيه عبد الله بن ياسين إلى مواطن قبائل الملثمين، وكان واضحاً أن يحيى سعيد بعمله هذا، الذى قصد به فى المقام الأول مرضاة الله، وهداية قومه .وكانت مواطن قبيلة يحيى(كدالة) فى أقصى مواطن الملثمين تجاه الجنوب، فكان لزاماً على الكدالى والفقيه أن يمرا أولاً بقبائل الملثمين الأخرى وهناك التف الملثمون حول الفقيه، وتعلقوا به وحاولوا الإفادة من علمه.

ولكن هل اكتفى الفقيه بمجرد إلقاء الدروس؟ أنه سرعان ما حاول تطبيق دروسه هذه عملياً، وإصلاح الناس، فاتجه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويبدو أنه اشتد فى ذلك، فلم يعجب هذا الأمر كثيراً من الناس ممن تعودوا على حياة خاصة منذ وقت ليس بالقريب، وثقلت عليهم التكاليف التى كان يأمرهم بها الفقيه، فانصرف بعض الناس عنه.

وهنا يسرع اليأس إلى نفس الفقيه، ويشعر أن من الأفضل له أن يمضى إلى بلاد السودان مجاهداً، ويترك هذه المهمة التى ألقيت على كاهله.(٧)

٧- انظر ابن خلدون: العبر جـ ص ١٨٣

ويبدو أن من أسباب هذا التحول فى شعور الناس، إلى جانب ما قلناه من ثقل التكاليف، تبرم قيادات لمتونة من الموقف، وعدم ميلهم إلى الاستماع إلى من جلبه الرئيس الكدالى، ويمكن إضافة عامل اجتماعى أيضاً هو حرص السادة والزعماء على وأد جهود عبد الله بن ياسين فى الإصلاح والعمل بالسنة، لأن ذلك كان يعنى أن يتساووا مع الطبقات الدنيا، وهو ما لم يرتضوه.

وأحس يحيى بن إبراهيم الكدالى بسوء الموقف. فلمتونة رفضت الفقيه، والفقيه يريد العودة إلى دون أن يكمل مهمته، وعلم يحيى أنه عاجز عن الوقوف امام لمتونة، فاقنع الفقيه بالاتجاه إلى الجنوب حيث كدالة قبيلته: ووافق الفقية على ذلك[٨] قاصداً أن يعتزل ويعيش منفرداً كما كان يعيش أستاذه فقيه السوس فى رابطة خاصة لا يلجأ إليه إلا المريد.

ب- مرحلة الرباط:

كان الالتجاء إلى الرباط هو الحل الذى ارتضاه عبد الله بن ياسين، وهو حل قريب إلى ذهنه، ذلك أن أستاذه فقيه السوس وغيره من الفقهاء الزاهدين فى ذلك الوقت كانوا يميلون إلى السكنى بعيداً عن الناس، لايختلط بهم إلا من يرغب فى الذهاب إليهم من التلاميذ والمريدين.

وقبل أن أتحدث عن هذه المرحلة أود أن أتقدم بكلمة موجزة عن الرباط أو الرابطة ما هو؟ الرباط- ببساطة - موضع يرابط فيه جماعة ومعهم خيلهم بغرض المرابطة على الجهاد، والمرابطة على انتظام الصلوات، إذ إن من معانى المرابطة لغوياً: ملازمة ثغر العدو وربط الخيل عندها، وقد اتخذ الرباط فى المغرب أول عهد الإسلام شكل المحارس للدفاع عن أرض

٨- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٢٤

الإسلام، ثم طور الفقهاء المالكية هذه الربط إلى شكل دينى، فكان الفقيه يعتزل فى رباط بعيد عن العمران (لكن ليس فى ثغر من الثغور) يتعبد فيه، وقد يأتيه طلبته ومزيدوه، فيبث فيهم تعاليم مذهب الإمام مالك، لكن الرباط فى المغرب الأقصى سيأخذ شكلاً جامعاً للشكلين السابقين فهو رباط دينى وعسكرى، وغرضه العسكرى يخدم فى المقام الأول الغرض الدينى(٩).

اعتزل ابن ياسين الملثمين، ودخل فى إحدى الجرز الموجودة فى نهر السنغال (على أرجح الروايات)(١٠) وكان بهذا النهر عدة جزر، إذا فاض النهر وزاد، انقطعت عن البر، وانعزلت عن غيرها من الجزر، وإذا غاض الماء أمكن الوصول إليها من البر، كما أمكن الاتصال بين الجزر المختلفة.

وكان عدد من اصطحب الفقيه تسعة، اثنان منهم من أعيان لمتونة (هما يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر) وسبعة من أعيان كدالة، (وعلى رأس هؤلاء يحيى بن إبراهيم الذى اصطحب الفقيه من البداية).(١١)

وكشأن المعتزلين بالرباط، كان هؤلاء الرجال يداومون على العبادة وقراءة القرآن، ولما كان ابن ياسين من الفقهاء المالكية فإنه يقرب إلى القبول

٩-انظر فى معنى الرباط وتطوره: مادة رباط فى دائرة المعارف الاسلامية ، ود . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص١٢٨ وما بعده .

١٠- رجح مرسيه أن تكون فى نهر السنغال الأدنى. (انظر La Berberie Musulmane et L' orient au Moyen Age, P. 239)

وانظر كذلك جوليان، ويشير إلى انها فى جزيرة تيدرا فى غالب ظنه (تاريخ إفريقيا الشماليه ص ١٠٦)

١١- انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٧

أن الجماعة تدارست موطأ مالك أيضاً، وكان جماع حياة هذه الجماعة العبادة والدراسة.

وكان طعامهم مما يصيدون من نهر السنغال، ومن البر إذا اتصلوا به ومن طير الجو، كما أكلوا الثمار، وشربوا الألبان، وهذا معظم طعامهم،(١٢) مع زهد واضح وحرص على التقشف.

ويبدو أن عبد الله بن ياسين اغتنم فرصة عزلته هذه، وفكر فى كيفية مواجهة أمر الملثمين، فعاد وأمر من معه بالخروج إلى قبائل الملثمين لبث أفكاره التى قاومتها لمتونة من قبل، فتسامع الناس به، وأقبل عليه الموافقون على نهجه، يريدون الالتحاق برباطه، لكنهم كانوا يقابلون باختيار عسير، بقصد التأكد من نواياهم، والتأكد من تطهرهم من أدران الماضى، وزاد عدد المريدين يوماً بعد يوم.

وقد أخذ ابن ياسين الملازمين الجدد لرباطه، بنفس المعاملة الشديدة لقبيلة لمتونة قبل الرباط، استطاع ابن ياسين أن ينجح فى رباطه فيما فشل فيه مع قبائل الملثمين وخاصة لمتونة، وتمكن من أن يربى مجموعة من المريدين تربية دينية، وأن يجعلهم مطيعين له ولأوامره.

ولكن هل اكتفى ابن ياسين بهذا؟ لقد طمح إلى ما هو أكبر من ذلك، إذ أراد أن يعود إلى الملثمين الذين سبقوا أن رفضوا الإصلاح، فيأخذهم بالقوة إن عادوا فقاوموا.

١٢- يزيد جوليان القديد المطحون المضاف إليه الدهن (انظر المرجع السابق ص ١٠٦)

لقد بلغ اتباع ابن ياسين ألفاً، وألف لن تغلب من قلة، كما قال لهم(١٣)، فتبدأ مرحلة الجهاد العسكرى إذاً.

وصادف هذا التفكير موت يحيى بن ابراهيم الكدالى فحرص عبد الله بن ياسين على اختيار رئيس الملثمين من قبيلة لمتونة، ولعل ذلك يرجع إلى إحساسه أنه يحتاج إلى عصبية أكبر فى مرحلته هذه، ولمتونة كانت صاحبة العصبية والرئاسة من قبل، ولعله أيضاً طمح إلى الاتجاه إلى المغرب الأقصى شمالاً وشرقاً، فاختار الرئيس اللمتونى ليسهل عليه اختراق مواطن لمتونة التى تلى مواطن كدالة شمالاً وشرقاً.

وبدأ الجهاد العسكرى، وأثخن الفقيه فى القتل، فى مخالفيه من كدالة، حتى أسلموا إسلاماً حسناً. (١٤)

٢- الطور السياسى وقيام الدولة:

تمكن عبد الله بن ياسين والأمير الجديد يحيى بن عمر اللمتونى من إعادة الملثمين إلى سبيل الإصلاح، وإلى هذا الحد يكون الدور الذى اتفق أن ينفذه الفقيه قد تم، أعنى تفقيه الناس فى أمور دينهم والدعوة إلى الإصلاح وإحياء السنة.

لكن هل توقف عبد الله بن ياسين عند هذا الحد؟

١٣- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٨٣

١٤- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٢٦

أ- الاتجاه السياسى:

إن الأحداث التاريخية تؤكد عدم توقف الفقيه عند حد إصلاح الملثمين فقد اندفعت جيوش هذه الجماعة، التى سماها ابن ياسين بالمرابطين، تجاه سجلماسة ودرعة سنة ٤٤٧هـ[١٥] وبغض النظر عن سبب هذا الاندفاع ذلك، هل هو عن دعوة من أهل البلدين أو من فقيه السوس أو غير ذلك، فإن هذا الاندفاع يمثل خطوة جديدة تعدت منطقة الإصلاح التى دعى إليها الفقيه أول الأمر.

وقد وافق هذه الخطوة موت يحيى بن عمر وتولية عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه، وتقليده أمر الحرب والجهاد ويمكن اعتبار السنة المشار إليها آنفاً بداية للأعمال الدينية التى يمكن أن يلحظ فيها أيضاً الاتجاه السياسى.

وإذا كان اتجاه المرابطين إلى درعه وسجلماسة مبرراً بدعوة أهل البلدين، فإن اتجاه المرابطين إلى بلاد السوس كان دون دعوة بل إن الاتجاه إلى بلاد المصامدة يعتبر أكبر مظاهر الاتجاه السياسى وسيتأكد هذا الاتجاه فيما تلا ذلك من فتوح متتالية لبلاد المغرب.

وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الأسباب التى دفعت بالمرابطين إلى التوجه إلى شمالى منطقة المغرب الاقصى ، وهى أسباب متعددة منها ما هو دينى ، ومنها ماهو سياسى ، فأما الجانب الدينى فأساسه أن المرابطين أرادوا إكمال دورهم الذى قاموا به فى الجنوب من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وإحياء

١٥- انظر المرجع السابق ص ١٢٨

للسنة بوجه عام ، وقد ساعدهم في هذه الناحية دعوة بعض مدن المغرب الأقصى لهم مستغيثين .

لكن هذه الاستغاثة وهذا الجانب الديني لا يبرران وحدهما انطلاق المرابطين إلى بقية بلاد المغرب الأقصى ، إذ يمكن القول إن المرابطين كانوا سيتوجهون إلى هذه النواحي وإن لم تصلهم دعوة ، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الاتجاه السياسي.

ذلك أن الدور السياسي وجهته النزعة القبلية التي لا تكاد تخلو فترة من فترات تاريخ المغرب منها، وقد ظهرت هذه النزعة القبلية في الخلاف الطويل بين فرعي البربر: البتر والبرانس، إذ كان زناتة البتر قد آذوا صنهاجة البرانس عبر عدة قرون وأذلوهم وضايقوا بعض صنهاجة في أرزاقهم التي عمادها التجارة، فانتهز الملثمون الصنهاجيون فرصة اتحاد قبائلهم وازدياد قوتهم فعملوا على رفع شأنهم وسيطروا على منطقة المغرب الأقصى.

ظهور دولة المرابطين

أ- أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين:

كان يحيى بن عمر رئيس الملثمين قد مات في أوائل رحلة الاتجاه السياسي، فعين ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر محله، وكان هذا الرئيس اللمتوني الجديد يأمر القوم، وهو في الحقيقة يأتمر بأمر الفقيه في معظم الأمور وخاصة في أمور الدين. (١٦)

١٦- انظر ابن أبي زرع : المرجع السابق ص ١٢٧

وبوفاة عبد الله بن ياسين، آلت الرئاسة كلها إلى الأمير أبى بكر بن عمر، وكان صالحا ورعا محبا للجهاد،[١٧] وكان يقيم فى أغمات هو والمرابطون، فبلغه نشوب خلاف بين جدالة ولمتونة فى مواطنها بالصحراء، وعلم أن هذه النزعة القبلية التى تمكن عبد الله بن ياسين ورؤساء الملثمين من التقليل منها إلى حد اقترب من الإخفاء، لو ظهرت فإنها جديرة بأن تذهب كل الجهود التى بذلها الفقيه ورؤساء الملثمين من قبل.

وهنا يظهر يوسف بن تاشفين اللمتونى، فقد اختاره أمير المرابطين لينوب عنه فى الفترة التى سيتغيب فيها فى الصحراء ليحل الخلاف المشار إليه[١٨].

تعتبر فترة إنابة يوسف بن تاشفين على المرابطين طوراً جديداً من أطوار تاريخ المرابطين، بل يمكن التأريخ بها لنشأة الدولة المرابطية، فقد شرع فى بناء مدينة مراكش (حوالى سنة ٤٥٤هـ)، لتكون قاعدة للجند بعد أن ضاقت بهم أغمات، ويلاحظ فى المكان الذى حدد لبنائها اتجاه سياسى، ذلك أن المرابطين حرصوا على أن تكون قاعدتهم تلك مواجهة لبلاد المصامدة الذين خافوا منهم الثورة.[١٩]

١٧- انظر الحلل الموشية ص ١٢

١٨-كان واضحاً لأمير المرابطين أن مهمته هذه شاقة ، وأن غيابه سوف يطول لمجاهدة السودان بعد إصلاح أحوال الملثمين ، فطلق زوجته زينب النفزاوية ، ورحل الى الصحراء ، وقد تزوج يوسف بن تاشفين زينب هذه بعد ذلك (انظر السلاوى الاستقصا جـ٢ ص ١٩)

١٩-وعلى الرغم من ذلك ثار المصامدة وأسقطوا دولة المرابطين بعد مدة ليست بالطويلة.

وساعد شباب يوسف بن تاشفين وإخلاصه، على تفانيه فى جهاده، وحقق عدداً كبيراً من الانتصارات، فزاد بذلك سلطانه والنفوذ السياسى للمرابطين، حيث يمكن أن نعتبر يوسف بن تاشفين الأمير الفعلى للمرابطين.

وقد تأكدت هذه الإمارة من الناحية العملية كذلك عندما فكر أبو بكر بن عمر الامير المرابطى المجاهد فى الجنوب المغربى فى العودة إلى الشمال، وأخبر يوسف بن تاشفين بذلك، لكن يوسف- فيما يبدو- أراد الاحتفاظ لنفسه بالسلطة التى يمارسها، فخرج لاستقبال الأمير العائد بعيداً عن مراكش[٢٠]، وخرج معه جنده فيما يشبه الاستعراض العسكرى، والتقيا فى موضع، سمى فيما بعد فحص البرنس، (نسبة إلى البرنس الذى جلس عليه الأميران)، وأحس أبو بكر بما وصل إليه يوسف من سلطات، فآثر أن يترك له قيادة المرابطين، ليعود هو من حيث قدم ليواصل الجهاد ضد السودان الغربى، وهذا يدل، ضمن ما يدل، على حب للجهاد وتفضيله على كل ماعداه، وقد سر يوسف هذا، وظل يرسل إليه المؤن فى الصحراء، وقد مات هذا المجاهد شهيداً فى احدى معاركه فى الصحراء مجاهداً فى سبيل الله ورفع كلمته حوالى سنة ٤٨٠هـ[٢١]، لينال يوسف بن تاشفين عند ذاك الإمارة من الناحية الدستورية، ويضرب النقود من ذلك التاريخ باسمه وعلى هذا يكون أول أمير للمرابطين فى ظل الدولة هو أبا بكر بن عمر اللمتونى، تولى سنة ٤٤٨هـ، ولسفره إلى

٢٠-يقال إن ذلك كان من تدبير زينب النفراوية، التى ساعدت زوجها يوسف كثيراً، والملاحظ أن نساء الملثمين كان لها دور ضخم فى مضاربهم فى الصحراء ، وسنرى أن هذا الدور حاولت نساء المرابطين مواصلة ممارسته فى قصور الأمراء المرابطين بعد ذلك (انظر المرجع السابق ص ٢٠)

٢١- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٣٥

الجنوب أناب عنه الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣هـ، وعاد أبو بكر إلى الشمال مرة اخرى سنة ٤٦٥هـ، على الأرجح، ليعود للجهاد مرة أخرى ويستشهد سنة ٤٨٠، السنة الحقيقية لتولى يوسف الإمارة من وجهة النظر الدستورية، كما بينتها الوثائق النمية.

ومن هنا، يمكن أن نضع ثبتاً لأمراء الدولة المرابطية، على ما يلي:

١- أبو بكر بن عمر (ظهرت أول نقود له سنة ٤٥٠هـ)

٢- يوسف بن تاشفين ٤٨٠هـ- ٥٠٠هـ (كان تولى الإمارة الفعلية ٤٥٣هـ لما أنابه الأمير الأول).

٣- على بن يوسف ٥٠٠-٥٣٧هـ.

٤- تاشفين بن على ٥٣٢-٥٣٩هـ.

٥- إبراهيم بن تاشفين ٥٣٩هـ (خلع).

٦- إسحق بن على بن يوسف ٥٣٩-٥٤١هـ (قتله الموحدون).

ب- دور يوسف بن تاشفين فى دولة المرابطين:

كان أبو بكر بن عمر- كما تقدم- أول من تولى أمور الرياسة جميعاً، بعد استشهاد الفقيه عبد الله بن ياسين، الذى كان لـه الإشراف الدينى، ونفوذ

ضخم فيما عداه، وواصل أبو بكر بن عمر سياسة ابن ياسين فى الإصلاح وفرض سيطرة المرابطين على مناطق جديدة.

لكن دور يوسف بن تاشفين فى سبيل الدولة كان أكبر وأوضح وقد ظهر دور يوسف قبل استشهادا بن ياسي،ن واستمر وكثر بعد ذلك، وتمكن من الانتصار فى عدد من المعارك، ويبدو أن أبا بكر بن عمر اكتفى بابن عمه يوسف قائداً، طوال فترة بقائه فى الجهات الشمالية، وربما كان هذا سبباً من أسباب إنابته لما اضطر أبو بكر إلى العودة إلى الصحراء سنة ٤٥٣هـ، كما تقدم، وقد تقدم اعتبارنا فترة الإنابة هذه إمارة واقعية ليوسف بن تاشفين،وليست إمارة دستورية.

جهود ابن تاشفين فى المغربين الأقصى والأوسط:

تمكن يوسف من أن يأخذ على عاتقه نشر النفوذ المرابطى فى الجزء الشمالى من المغرب الأقصى، بعد أن كان له دور كبير فى مد هذا النفوذ من الجنوب خطوة خطوة، إلى أن وصلوا إلى الشمال. وظل يوسف بن تاشفين يكافح أكثر من اثنتى عشرة سنة فيما بين سنة الإنابة (٤٥٣هـ) وسنة عودة أبى بكر من الجنوب (٤٦٥هـ) وتمكن فى هذ المدة من الانتصار على عدة قوى، وفرض سيطرته على عدة مدن. (٢٢)

وتمكن من أخذ مدينة فاس، منتصراً على العدد الكبير من قبائلها، زواغة، ولماية، ولواتة، وصدرينة، وسدارتة، ومغيلة، وبهلولة ومديونة وغيرها، وكانت هذه القبائل قد قابلت المرابطين خارج المدينة، فلما انهزمت

---

٢٢ -انظر ابن خلدون العبر جـ ٦ ص ١٨٤-١٨٦
وابن عذارى البيان المغرب جـ ٤ (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٢

ارتدت إلى المدينة وتحصنت بها، فحاصرها يوسف بن تاشفين مرتين إلى أن سقطت المدينة سنة ٤٥٥هـ ثم انشغل يوسف بن تاشفين عن هذه المدينة بعمليات عسكرية في مدن أخرى مما مكن المنافسين من زناتة من استرداد المدينة، وقتلوا عاملها المرابطي.

وسكت يوسف عن فاس حتى سنة ٤٦٣هـ، وكان قد لجأ إلى الحركة الهادئة المنظمة، فآثر أن يأخذ مدن المغرب واحدة بعد واحدة، ليقلم أظفار منافسيه من البتر، حتى لم يبق من مدن المغرب سوى فاس وسبتة وطنجة، فالتفت إلى فاس وشدد الحصار عليها، وتمكن من الانتصار على أكبر منافسيه من مغراوة، وبني يفرن، ومكناسة، وينسب إليه في هذه المعارك الشدة والمبالغة في القتل (٢٣).

وواصل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين فرض سلطانه على المغرب الأقصى ، لكنه حتى سنة ٤٧٠هـ، لم يكن قد أخذ سبتة وطنجة وقد تأخر أخذ هاتين المدينتين لحصانتهما من جهة، ولانشغال المرابطين بميدان جديد هو ميدان المغرب الأوسط الذي وجه المرابطون قواتهم إليه سنة ٤٧٢هـ وإلى سنة ٤٧٥هـ، حيث تمكنوا من وانشربس، وأعمال شلف، ومتيجة، حتى الحدود الغربية لمدينة الجزائر(٢٤) ، وهذا هو أقصى ماوصلت

٢٣- انظر ابن زرع: المرجع السابق ص ١٤١، وقد غير يوسف بن تاشفين بعد ذلك من تقسيم مدينة فاس فهدم السور الذي يفصل بين عدوتي المدينة : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين (وكان الأدارسة قد قسموها هذين القسمين ، سكن القسم الأول بعض أهل القيروان فسمى القسم بعدوة القرويين ، وسكن القسم الثاني أهل المغرب والأندلس فسمى بعدوة الأندلسيين)

٢٤- نفسه ص ١٤٣

إليه الحدود المرابطية شرقاً، وقد تمكن المرابطون في هذه الحملة من القضاء على خطر زناتة المقيمين في المغرب الأوسط منافسي المرابطين الصنهاجيين، ولعل من أسباب توقف المرابطين عند الجزائر عدم رغبتهم في دخول صراع بعيد المدى مع أقاربهم بني حماد الصنهاجيين، واكتفاء المرابطين بالقضاء على الخطر الزناتي(٢٥).

وبعد الانتهاء من الأعمال العسكرية في المغرب الأوسط ، عاد المرابطون إلى الاهتمام بما تبقى من مدن المغرب الأقصى سبتة وطنجة، وتعود أهمية هاتين المدينتين إلى أنهما ساحليتان تؤثران على أمان المغرب الأقصى، وأنه يسيطر عليهما زناتيون من منافسي صنهاجة وأقارب الذين أثخن فيهم المرابطون من قبل، ومن غير المعقول إذاً أن يدعهم المرابطون في هذا الموقع العسكري الهام.

واتجه المرابطون إلى طنجه أولاً، وأخذوها سنة ٤٧١هـ، لكن انتصارهم لم يكن حاسماً، فقد تمكن بعض منافسيهم من اللجوء إلى سبتة فارين، وتحصنوا فيها، فزادوا من قوة المدينة الثانية المراد فتحها.

وقد تأخر فتح سبتة إلى خمس سنوات بعد ذلك، لصعوبة أخذ هذه المدينة الحصينة، ولضرورة محاصرتها بحراً أيضاً، تقوية للحصار البري وإكمالاً له، ولهذا اتجه المرابطون في خلال بعض هذه السنوات الخمس إلى

٢٥-وبهذا يكون الجزء الغربي من المغرب الأوسط امتداداً من الحد الغربي لمدينة الجزائر الى آخر المغرب الأوسط من أملاك المرابطين ، تم فتحه سنة ٤٧٥هـ وظل تحت أيديهم إلى سنة ٥٣٩هـ عندما تمكن الموحدون من أخذ هذا الجزء منهم قبل تمام سقوط المرابطين أنفسهم بسنتين .انظر في أخذ المرابطين هذه المدن المرجع السابق.

المغرب الأوسط، حتى تكتمل لهم أدوات النصر، وتدبير الأسطول الكافى للحصار البحرى، وهى مسألة فيها بعض الصعوبة لقوم صحراويين قريبى العهد بالبداوة.

ولما جهز المرابطون عدتهم حاصروا سبتة براً وبحراً، وبإحكام هذا الحصار تمكن المرابطون من أخذ سبتة، فسيطروا بذلك على المغرب الأقصى، كله، وأطلوا على الأندلس.(٢٦)

وبانتهاء هذا العمل العسكرى، يكون المرابطون قد أقاموا دولة ضخمة شملت فى المغرب جزءاً كبيراً منه ، وحققوا ما يريدون من سياسة رسمها لهم الفقيه عبد الله بن ياسين قبل حوالى خمس وثلاثين سنة، من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أديا إلى سيطرة هؤلاء الآمرين والناهين على رقعة مترامية الأطراف فى المغرب الأقصى كله وجزء من المغرب الأوسط، أقاموا فيه دولة قدر لها أن تبطل المذاهب المنكرة، وتحمى الإسلام لا فى المغرب فحسب، بل فى الأندلس كذلك كما سنعرف.

ويلاحظ أن عهد الأمير يوسف بن تاشفين كان العهد القوى الزاهر للمرابطين، لكن هذا العهد لم يستمر طويلاً، وهذه القوة لم تعرفها عهود الأمراء التالين، ذلك أنه على الرغم مما ينقله المؤرخون عن عهد على بن يوسف من أنه "ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لأنه صادف البلاد ساكنة والأموال وافرة، والرعايا آمنة، بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة "(٢٧)إلا أننا نلمح فى عهدة بدايات النهاية. وقد ظهرت هذه الأمور بعد سنين قليلة من وفاة

٢٦- انظر ابن أبى زرع: المرجع السابق.

٢٧- انظر المرجع السابق ص ١٤٤

الأمير يوسف بن تاشفين. بل إن أول عهد على بن يوسف شهد خلافاً حول البيعة له، لما حاول ابن أخيه يحيى بن أبى بكر أن يثور ضده فى فاس، وبايعه بعض الناس، هناك بضعة أشهر، (وإن كانت محاولته باءت بالإخفاق بعد ذلك).(٢٨)

ثم إن هذا العهد الموصوف بالهدوء والسكون شهد اخطر حركة وجهت ضد المرابطين، وهى حركة محمد بن تومرت (مهدى الموحدين بعد ذلك).

دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين

رأينا أن يوسف بن تاشفين كون مملكة واسعة الأرجاء فى المغرب، وتعدته إلى الأندلس، والجزر الشرقية (جزر البليار: ميورقة ومنورقة ويابسة) وقد آل حكم هذه المملكة الواسعة، فى آخر القرن الخامس الهجرى، إلى ولده على ولما يصل إلى الثالثة والعشرين من عمره.

وقد عرفت دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين عدة أمور جديدة من أهمها:

١- زيادة الثروة والترف فى المجتمع عامة، وبين الأمراء الحاكمين خاصة، بعد البساطة والبداوة التى عاشها مؤسسو دولة المرابطين، وإذا أخذنا على بن يوسف مثالاً لذلك رأينا أنه ولد بسبتة على شاطىء البحر المتوسط لا داخل الصحراء كأبيه، وتثقف بالثقافة الأندلسية، بما فيها من لين وترف حضارى، ويضاف إلى هذه الأمور ما أخذه عن أمه من أسباب الترف.

٢٨-انظر ابن أبى زرع: المرجع السابق ص ١٥٧

٢- غلبة الثقافة الأندلسية فى المغرب "بحيث صدق ما قيل فى هذا العصر من أن الثقافة الأندلسية سادت مراكش.(٢٩)

٣- وربما يكون من إحدى نتائج الأمرين السابقين تغير حاشية القصر المرابطى ذلك أن أمراء المسلمين بعد يوسف بن تاشفين، وخاصة على ابنه، صرفوا همهم إلى استدعاء أعيان علماء الأندلس وأدبائه ورجاله، فاجتمع عدد منهم، لهم كلمة مسموعة عند أمير المسلمين.

لكن الأمر، مع هذا لم يخل من عناصر، بدت أول الأمر ضعيفة، ثم زادت بالتدريج مكونة عناصر الضعف والفناء للدولة المرابطية.

ومن عناصر الضعف هذه:

١- ظهور نفوذ الفقهاء منذ سنة٥٣٤هـ وقد تدخل هؤلاء الفقهاء فى أمور كثيرة من أمور الدولة وكان لهم بعض الآثار الطيبة، إلا أن من أهم ما أخذ عليهم أنهم ضيقوا نطاق الفكر باهتمامهم بكتب الفروع دون كتب الأصول، مما أدى إلى قلة البحث فى مصادر التشريع الإسلامى الأصيلة، وأهمل علما مثل علم أصول الفقه، وخاصم علماً آخر مثل علم الكلام.

وقد يعد دليلاً على مدى نفوذ الفقهاء، وعلى مدى ضيقهم بالفكر الحر، ما سعى إليه الفقهاء فى حرق كتب الغزالى، وذلك بسبب هجومه فى كتابه الإحياء على طبقة من الفقهاء تضر أكثر مما تنفع، ولم يكتف الفقهاء بحرق

٢٩-بروفنسال: الاسلام فى المغرب والاندلس ، انظر المقالة الخاصة بالمرابطين.

نسخة من الإحياء فى ميدان عام، بل عملوا على حرق مؤلفات الغزالى جميعها وتحريم قراءتها فى المغرب.(٣٠)

٢-محاولة نساء القصر الإبقاء على دورهن المؤثر على الأزواج والأبناء، استمراراً لنفوذهن أول أيام حياتهن فى الصحراء، وقد حرصت هؤلاء النسوة على ممارسة دورهن فى البلاط الجديد.(٣١)

٣- كان الأمراء بعد يوسف بن تاشفين أضعف منه وأقل مهارة فى إدارة الدولة، وإذا أخذنا على بن يوسف مثالاً لهؤلاء الأمراء، وإذا أخذنا فى الاعتبار أنه أقوى بكثير من أمراء جاءوا بعده، وجدنا أنه انشغل بالعلم والعلماء والعبادة دون أن يعطى إدارة الدولة الوقت الكافى، ووجدنا أيضاً أن أقاربه طمعوا فيه، وحاولوا الاستئثار بالسلطة دونه، كما أعلن بعضهم أنهم أحق بالإمارة من على (٣٢).

٣٠- انظر المركشى: المعجب ص ١٧١- ١٧٣

٣١- انظر المرجع السابق، وينفى الدكتور السيد عبد العزيز سالم هذه المقولة، ويصفها بأنها " مقالة ظالمة، وتحامل صريح، وتجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية فى الأندلس، يبرره تحيز المراكشى للمصامدة الموحدين، وميله إلى قضيتهم " (تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٦٥٦)

٣٢-يقول المراكشى فى المعجب (ص١٧٣) عن على بن يوسف :"ولم يزل امير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجد المعروف بابن القبطرنة ، وأبى عبد الله بن ابى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد ابن عبدون ......".

٤- اضطرار المرابطين إلى القسوة فى مجابهة الثائرين بالمغرب وكان أمر البسائط سهلاً، أما ثورات الوعر والجبل خاصة فكانت مجابهتها أمراً عسيراً.

٥- تجمع عدة قوى نصرانية فى الأندلس ضد المرابطين، واضطرار المرابطين إلى دخول عدة معارك عنيفة فى جهات مختلفة فى الأندلس أدت إلى استنزاف قواتهم، دون أن يعطى الأندلسيون مساعدات ذات بال فى هذا الصدد (٣٣).

٦- ظهور الموحدين فى المغرب كأقوى عامل- ساعدته العوامل السابقة- فى إنهاء حكم المرابطين بالمغرب والاندلس كذلك.

٣٣-يلخص المراكشى فى المعجب اختلال أُحوال المرابطين منذ أوائل القرن السادس الهجرى بقوله :" واختل حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ...وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من خراج ، وعكف على العبادة والتبتل ... وأهمل الرعية غاية الإهمال ". ص ١٧٧

خاتمة

وضح من حديثنا عن دولة المرابطين أن السمة الدينية كانت واضحة في نشأتها، وذلك بفضل جهود االفقيه عبد الله بن ياسين لكن هذه السمة الدينية لم تستمر سمة وحيدة لحركة الملثمين، إذ سرعان ما ظهر إلى جانبه سمة اخرى هي السمة السياسية، فتوحدت قبائل الملثمين، أو اجتمعت، وانطلقت إلى بلاد أخرى غير بلاد الملثمين، بدعوة منها، أو بغير دعوة، (فذلك من الوجهة العملية سيان)، وقد نجح رؤساء الملثمين بعد عبد الله بن ياسين في تكملة الدور الذي بدأه الفقيه، ربما بصورة أفضل مما كانت عليه الأمور السياسية في حياته، فنتج عن هذه الجهود، الدينية والسياسية، دولة مترامية الأطراف شملت المغرب الأوسط، وربما حال دون أن يفرض المرابطون سلطانهم على هذا الجزء الآخر من المغرب: تعدد وجهات نشاطاتهم العسكرية، وعدم رغبتهم في معاداة بني حماد (أقاربهم الصنهاجيين) المسيطرين على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط، ثم بني باديس (أقاربهم الصنهاجيين أيضاً) في المغرب الأدنى.

لكن يلاحظ على دولة المرابطين قصر عمرها، إذ لم يكد يصل عمرها إلى قرن كامل من الزمان، وعدم استمرار القوة التي شوهدت في عصر يوسف بن تاشفين (الذي يعتبر من الوجهة العملية مؤسس قوة المرابطين) والذي غطى عهده نصف عمر الدولة على وجه التقريب.

إذ لم يكد يظهر القرن السادس الهجرى حتى تعاورت على الدولة عوامل ضعف متعددة (سبق أن أوضحناها) ولم يعط الاهتمام لإدارة الدولة وملاحظة شئون الرعية، وربما كان هذا سبباً من أسباب سلبية الأهلين أمام الأخطار التى جبهت دولة المرابطين.

ويلاحظ أن المرابطين قدموا عدة إنجازات ناجحة فى نواحى متعددة منها من منظور التطور السياسى :

أ- تقليل العامل القبلى، وتهيئة الجو السياسى لظهور حكومة بربرية تفرض سلطانها لا على جزء محدود من المغرب، بل على مساحات شاسعة داخله، وعلى مناطق أخرى خارجه، سواء فى الأندلس، أو فى جزر البليار.

ويلاحظ أن المرابطين لم يفيدوا إفادة طويلة من هذه النتيجة وأن هذه الثمرة إنما نعم بجناها الموحدون أكثر من المرابطين أنفسهم، إذ جاءوا فوجدوا المغرب قد تهيأ لأن يحكم بدولة واحدة، أو بسلطة مركزية (٣٤)، (لكن

٣٤-كان الأندلسيون يعارضون الضرائب الجديدة ، حتى لو كانت لمجابهة القوى النصرانية ، وقد ظهر هذا الاتجاه منذ عهد يوسف بن تاشفين ، لما رفض قاضى المرية جمع ضريبة جديدة تخصص لجهاد النصارى واشترط القاضى على أمير المسلمين ضرورة استنفاد أموال بيت المال أولاً قبل فرض أية ضرائب جديدة .

يجب أن يؤخذ هذا الامر بشيء من الحذر، لأن العامل القبلي لم ينته في المغرب؛ بل ظل له سلطان واضح على شئون المغرب السياسية أيضا).

ب- تحقيق وحدة مذهبية دينية للبلاد، عن طريق إكمال نشر مذهب الإمام مالك، وعن طريق إزالة البدع الدينية، والقضاء على عدة نحل بعدت عن جوهر الدين الصحيح، ومن أهمها النحل التي اعتنقتها عدة قبائل جمعها اسم برغواطة وكانت هذه القبائل قد اتبعت بعض المنحرفين الذين ادعوا نزول كتاب عليهم بلغتهم البربرية،واستنوا عدة قواعد دينية جديدة، وعلى الرغم من مقاومة عدة جماعات مغربية قبل المرابطين لهذه النحل الغريبة إلا أنه لم يكمل القضاء على هذه النحل الغريبة إلا على يد المرابطين .

جـ- قدموا ألواناً من الإنجازات الحضارية الأخرى لعل من أهمها نشر الحضارة الأندلسية في المغرب، وذلك عن طريق استقدام رجال الأندلس المبرزين في فنون عدة مثل السياسة والأدب، والعمارة.

ولكن يلاحظ في الحضارة التي أنتجها المرابطون عدم بروز الجانب الفكري بالشكل الذي يتفق مع تشجيع بعض أمراء المرابطين للعلم والعلماء، ولعل هذا راجع إلى قصر المدة التي عاشتها بعد فترة التأسيس، وإلى أن المرابطين مالوا إلى استيراد الفكر الأندلسي، وإلى ضغوط الفقهاء الذين ضيقوا مجالات الإبداع الفكري، وقصروا النظر على كتب الفروع دون كتب الأصول كما تقدم.

وقد يكون الجانب المعماري، رغم تتبع الموحدين لآثار المرابطين بالتهديم والإخفاء، هو أوضح الإنجازات الحضارية، وإن لم يخل هو الآخر من التأثر بالطراز الأندلسي، وخاصة بناء القصور والمساجد.

الفصل الثالث

المـــوحـــدون

الفصل الثالث

الموحدون

قدمنا أن الملثمين أحسوا منذ أوائل دولتهم أن خطراً يمكن أن يصيبهم من المصامدة الجبليين [1]، ولذا حرصوا على مراقبتهم، فبنوا قاعدتهم مراكش بحيث تطل على جبل المصامدة، وزاد فبنوا عدة قلاع جبلية، الغرض منها رصد تحركات السكان داخل الجبل.

وحدث ما خافه الملثمون، إذ بدأ المصامدة فى العمل ضد الدولة المرابطية، وذلك منذ عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وقاد ذلك العمل رجل اسمه محمد بن تومرت، ودعاه أنصاره بالمهدى.

١- المصامدة: علم يطلق على عدة قبائل يوصلها النسابة إلى رجل من أبناء بربر يدعى مصمودة ، ومن أشهرها قبائل برغواطة ، وقبائل غمارة ، وقبائل جبال درن، وهذه القبائل الأخيرة خاصة هى التى شاركت فى قيام دولة الموحدين ، ومن أهمها قبيلة هرغة ، وقبائل تينملل ، وقبيلة هنتاتة ، ودكالة ، وووريكة وغيرها .

ابن تومرت:

هو محمد بن تومرت، من قبيلة هرغة المصمودية، وقد أرجع بعض المؤرخين والدارسين نسبه إلى أصل عربى، فى حين مال مؤرخون ودارسون آخرون إلى رفض هذا النسب العربى، ويعتبر الرجل بربرياً أصيلاً.

واعتمد القائلون بنسبه العربى على أنه من نسل الأدارسة الذين اتصلوا بالمصامدة، فابن تومرت على هذا الزعم- طالبى ينتهى نسبه عند القائلين بهذا القول إلى الحسن بن على بن أبى طالب .(٢)

واعتمد الذين قالوا ببربرية ابن تومرت، على أن أسماء آبائه بربرية واضحة، وقد اعتبر بروفنسال أن نسبة هذا الرجل لم تكن إلا لأمه، إذ اعتبر (تومرت) علما واضح التأنيث، فيكون الرجل قد انتسب إلى أمه أو (إحدى جداته) جرياً على عادة قديمة كانت تنسب الأبناء إلى أسماء الأمهات، ثم زاد بروفنسال على ذلك فاعتبر أن الأسماء العربية فى نسب ابن تومرت إن هى

٢- انظر العبر جـ ٦ص ٢٢٦

إلا تسميات جديدة كان أصلها بربرياً، وسحب هذا الحكم على الأسماء العربية التى تسمى بها إخوة محمد بن تومرت. (٣)

وأياً ما كان الأمر فإن المهم هنا أن محمداً ولد فى الثلث الأخير من القرن الخامس الهجرى، وأنه نشأ نشأة جبلية، فى أسرة لها مكانتها الاجتماعية، ولوالد كان ذا وظيفة مهمة فى القرية، وأنه درس دراسته الأولية، شأنه شأن الفتيان بالمغرب الأقصى، فحفظ القرآن الكريم، ودرس ما يتصل به من أمور رسمه وقراءته، وكان محمد ذكياً محباً للعلم(٤) فحرص على مواصلة الدراسة، فدرس فى شبابه العلوم الدينية المختلفة والعلوم اللغوية، وغيرها، (وقد اكمل ابن تومرت ثقافته بقيامه برحلة علمية إلى الأندلس ومصر والعراق، أكمل فيها تكوينه الثقافى(٥)، وكان إلى جانب ما حصل عليه من ثقافته ذكياً وصفه بروفنسال بقوله: "ومجمل القول أنه كان شعلة ذكاء بربرية، إذا جاز لنا ذلك، هذا مع صفاء فى النفس، لا يخلو من الرقة الحضرية، والريبة فيمن حوله، وتقدير العواقب، والخشونة والقسوة، ولكنه كان فى مقابل ذلك لين العريكة فى الوقت المناسب.(٦)

٣- انظر الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٢٦٥

٤- وفى ذلك يقول ابن خلدون :" وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى أسافو ومعناه الضياء ، لكثرة ماكان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها" (نفسه).

٥- انظر المراكش : المعجب ص ١٧٨

٦- انظر بروفنسال : المرجع السابق

وبعد عودة محمد بن تومرت من رحلته العلمية فى المشرق، أو قل فى طريق عودته إلى المغرب حوالى سنة ٥١٤هـ، بدأ نشاطاً يمكن وصفه بأنه نشاط دينى إصلاحى، قوامه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد قوبل نشاطه هذا فى معظم الأحيان بالصد، وخاصة من قبل القائمين بالسلطة فى البلاد التى مر بها، وتعرض ابن تومرت للأخطار بعضها هين، وبعضها وصل إلى درجة من الخطورة كادت تقضى عليه، لولا حماية بعض القبائل الصنهاجية له، ورفضها أن تسلمه لوالى بجاية (من قبل بنى حماد).(٧)

واستمر ابن تومرت ينفذ سياسته هذه طول الطريق، وفى مراكش نفسها، وتعرض للعامة والخاصة بالنكير، وتعرض لغضب فقهاء الدولة، الذين حاولوا تحريض على بن يوسف ضده، ولكن ورع أمير المسلمين منعه من البطش بابن تومرت، ودعى ابن تومرت لمناظرة فقهاء الدولة المرابطية، فتغلب عليهم ببراعته فى الجدل وعلم الكلام والأصول، فزاد ذلك من غضب الفقهاء وتحريضهم عليه، واكتفى أمير المسلمين بالأمر بإخراج ابن تومرت بعيداً عن مراكش.(٨)

٧- انظر البيذق: أخبار المهدى بن تومرت، ص ٥٢، والمراكشى: المرجع السابق ص ١٨٠

٨- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٤-١٧٦

وتوجه ابن تومرت إلىقبيلته هرغة، يعيش بين أفرادها، يحتمى بها، وكان قد نجح فى ضم عدد من الأنصار والتلاميذ إليه، من أهمهم عبد المؤمن(٩) والبشير، وأبو حفص الهنتاتى.

واستمر ابن تومرت فى قبيلته حوالى ثلاث سنوات، وخلالها وبعدها، كان يبث فى نفوس قبيلته ونفوس المصامدة الجبليين أن المرابطين قد اقتربوا من الكفر، لوقوعهم فى التجسيم، بسبب عدم تأويلهم الأيات المتشابهة، وأنهم ارتكبوا عدداً من الأخطاء.(١٠)

ويواصل ابن تومرت حملته الدعائية المضادة للمرابطين، ويبالغ فيها، وزاد فطلب إلى الناس خلع طاعة المرابطين ويمكن اعتبار دعوته الأخيرة هذه بداية لظهور الاتجاه السياسى فى فكره.

٩- التقى ابن تومرت بتلميذه عبد المؤمن بن على عندما كان الأخير يأخذ طريقه إلى المشرق لمواصلة تعليمه ، فاقنعه بملازمته ، ووعده بتعليمه ماكان اخذه من المشرق ؛ وتوسم فيه خيراً انظر ابن خلدون: العبر جـ ٦ص ٢٢٧

١٠- (انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٣) ومن الأمور المنكرة اتهام مسلم مسلماً بالكفر ، وأتصور أن اتهام ابن تومرت للمرابطين بذلك كان المحرك له عامل المنافسة والسياسة وإلا فالمرابطون مسلمون مالكيون لم يشب إسلامهم شائبة.

وفى إطار الاتجاه السياسى هذا، توجه ابن تومرت إلى مدينة تينمل (١١) الحصينة حيث بث أفكاره بين تلاميذه ومريديه وأنصاره (١٢) وبويع هناك على أنه المهدى الذى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جورا ونشر ابن تومرت مبادئه التى تعتمد على فكرة المهدى، ودون هذه المبادىء فى كتب خاصة تداولها وانكب عليها تلاميذه ومريدوه وأنصاره وسمى انصاره بالموحدين (تعريضاً بالمرابطين الذين اتهمهم بالتجسيم والكفر).

وقسم ابن تومرت أنصاره بحسب سرعة مبايعتهم له، فصنف أعلى الأنصار فى طبقة سميت بالعشرة أو الجماعة (١٣)، وسميت الطبقة الثانية بالخمسين وسميت الطبقة الثالثة بالسبعين (١٤).

١١- تكتب هذه المنطقة بصورتين أُخريين : تينمال ، وتينملل .

١٢- يقول المراكشى فى المعجب إنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم استمال رؤساء القبائل ، وأخذ يذكر المهدى ويشوق إليه، ويسوق الأحاديث فيه ، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ... ورفع نسبه الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوته العصمة لنفسه ".(ص١٩٠-١٩١)

١٣- من أهم رجال هذه الجماعة : عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد البشير (الذى قتل فى معركة البحيرة) وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى (الذى كان له دور كبير فى تأسيس الدولة ، وكان أبناؤه أصحاب الدولة الحفصية بإفريقية فيما بعد).

١٤- وقد انفرد بذكرها ابن القطان وحده، وقد رتبت عده جماعات ترتيباً طبقياً كذلك، مثل الطلبة، و الحفاظ، وأهل الدار، ورتبت القبائل بعد ذلك ترتيباً تنازلياً أيضاً فجائت قبيلة ابن تومرت هرغة أول القبائل ثم قبائل تينمل، ثم قبيلة جنيفة وهنتاتة فسائر الجند من القبائل المصمودية الأخرى.

انظر إليذق: أخبار المهدى بن تومرت ص ٣٣-٣٤، وانظر أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٦٧، (وانظر ابن القطان: نظم الجمان لوحة ٣٣ ب نقلاً عن عنان: عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ص ١٧٤)

ويمكن اعتبار هذه الطبقات بمثابة الحكومة او المجالس الاستشارية ويوضح ابن القطان فى نظم الجمان مسئوليات هذه الطبقات بقوله: "وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة، لا يحضر معهم غيرهم، فإذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلاً، وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل فى امره- يعنى ابن تومرت.(١٥)

ويلاحظ أن هذه الطبقات تكونت من رجال من قبائل متعددة فتكون حكومة ابن تومرت (أو رجاله المساعدون على نشأة الدولة) من قبائل شتى لا من قبيلة أو أكثر كما فعل يوسف بن تاشفين.

ومال ابن تومرت، بعد العنف الذى كان بدأ به، إلى سياسة اللين، والتشهير بالمرابطين باطلاق الدعايات المتعددة إلى أن تمكن من اقرار فكرة المهدى فى نفوس أتباعه، ولما اطمأن إلى قوة هؤلاء الأتباع بدأ الخطوات العسكرية لإسقاط المرابطين توطئة لإقامة دولة الموحدين، فخرجت جيوش الموحدين تهاجم المرابطين تسع مرات فى حياة ابن تومرت، واستغل هذا الرجل براعته الدعائية فى نشر أخبار عن انتصارات ضد المرابطين فى معارك لم تنشب (لأن المرابطين آثروا عدم القتال وكانوا يقصدون النصح بالتزام الهدوء والطاعة) وكسب الموحدون عدة معارك حربية، وخسروا بعضاً آخر، ولعل أهم هزائمهم هزيمتهم فى موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ (تلك الهزيمة التى أثرت فى ابن تومرت وألزمته داره إلى أن توفى بعد بضعة شهور).(١٦)

١٥- ابن القطان لوحة ٤٣ب نقلاً عن عنان ص ١٩٦ المرجعان السابقان.

١٦- انظر ابن ابى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٧-١٧٩

وركز ابن تومرت، بعد وفاة قائد جيوشه فى المعركة السابقة على تلميذه عبد المؤمن بن علي. ويدعونا هذا إلى الحديث عن ثانى شخصية موحدية، ومؤسس الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس.

عبد المؤمن بن علي:

ولد عبد المؤمن فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى لأب اختلف فى عمله، وإن مال كثير من الدارسين إلى أنه كان فلاحاً يعمل أيضاً فى صناعة الفخار، وقد أظهر عبد المؤمن فى صباه ذكاء حاداً وقدره فائقة على الفهم والاستيعاب، مما جعله يطمع فى أخذ العلم من علماء المشرق، ولكن ابن تومرت يقابله ويقنعه بملازمته ويعلمه هو ما كان قد تعلمه فى بلاد المشرق، فيصحبه عبد المؤمن ويتتلمذ عليه.(١٧)

ويموت ابن تومرت بعد شهور قليلة من هزيمة البحيرة بعد أن نجح فى بث أفكاره في نفوس عدد كبير من مصامدة الجبل، وبعد أن رسم طريق تكوين الدولة، وأظهر عدة تنظيمات سياسية، ولكنه لم يعاين الدولة الموحدية كياناً قائماً، ولم يشهد انتصارات ذات بال ضد المرابطين، وسيقوم عبد المؤمن ابن على بالدور العملى فى تكوين الدولة، وسيكون أول حكامها المتسمين بإمارة المؤمنين.

ذلك أن وفاة ابن تومرت كانت قد وضعت أمام العشرة مشكلة كبرى، هى اختيار من يخلفه، ولسنا ننظر باهتمام كبير إلى ماذكرته بعض المصادر من أن ابن تومرت أوصى لعبد المؤمن تصريحاً أو تلميحاً، ذلك

١٧- انظر البيذق: أخبار المهدى بن تومرت ص ٥٦

لأن هذا الأمر - على افتراض صحته - لم يلق من العشرة أى اهتمام، فتنافسوا للفوز بهذا المنصب (١٨).

على أن المسألة ما كانت لتعدو أحد اثنين: عبد المؤمن أو عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ بنى حفص، ولكل منهما مركزه عند ابن تومرت وميزاته، إلا أن عبد المؤمن - فيما يبدو - كان أكثر تحركاً، فاستطاع ان يمهد الأمر لنفسه، وتمكن من كسب أنصار من الباقين من العشرة، وربما زاد فى ترجيح أن قبيلته لم تكن قوية كقوة قبيلة هنتاتة ،أو غيرها من القبائل ا قدمة فى الترتيب الطبقى عند الموحدين.

وقد بويع عبد المؤمن بيعتين أولاهما خاصة بعد وفاة ابن تومرت، والثانية عامة بعد مضى أكثر من سنتين بعد إعلان خبر وفاة ابن تومرت.(١٩)

دور عبد المؤمن فى تكوين الدولة:

كانت الشهور الأربعة التى تلت هزيمة الموحدين فى البحيرة، ثم السنتان أو ثلاث السنوات بعدها فترة ركود عسكرى، إذ الصحيح أن أول خطوة عسكرية لم يقم بها عبد المؤمن إلا بعد إعلان البيعة العامة، وكانت هذه الخطوة العسكرية وما تلاها من الصغر بحيث لم تسبب فزعاً للمرابطين،

١٨- ينقل ابن أبى زرع فى هذا الصدد أنه، "تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة، وكانوا من قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخلافة منها، وألا يتولى عليها من هو من غيرها، فتنافسوا فى ذلك، وتحاسدوا" (الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٨٤)

١٩- انظر ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٨

وتمكن المرابطون من إزاحة قوى الموحدين ناحية المغرب الأوسط، وظنوا أنهم استراحوا من هذه القوات الثائرة- لكن المرابطين أفادوا الموحدين بهذا التصرف، فقد ساعدت القبائل الزناتية عبد المؤمن بن علي، وطالت خطوط إمداد القوات المرابطية وبدأ الأمر يختلف منذ سنة ٥٣٤هـ، عندما غيرت القوتان المتصارعتان خطط القتال، فأما المرابطون فقد عملوا على استئصال الموحدين بقوات ضخمة، وأما الموحدون فقد وسعوا ميدان القتال، وشنوا معارك في سبع سنوات جمعها أنصار الموحدين تحت اسم الغزوة الكبرى.(٢٠)

وفي خلال هذه الغزوة الكبرى جدت أحداث أفادت الموحدين فقد توفى علي بن يوسف، واختلفة قبيلة مسوفة مع قبيلة لمتونة، مما جعل أمراء مسوفة يميلون إلى عبد المؤمن بن علي فيحدث صدع في قبائل الملثمين، ومات تاشفين بن علي أمير المرابطين إثر حصار تعرض له، فلما حاول الخروج من الحصار تردى بفرسه من حافة الجبل، ويضاف إلى ذلك كله أن أحوال المرابطين في الأندلس كانت سيئة وأن الهزائم كانت تتوالى عليهم هنالك.(٢١)

هذه العوامل الجديدة بالإضافة للنشاط العسكري المتزايد للموحدين مكنهم من تحقيق المزيد من الانتصارات ضد المرابطين، وتمكنت القوة الناشئة من الوثوب إلى مراكش عاصمة المرابطين، وقبضت على آخر إمراء المرابطين وقتلته سنة ٥٤١هـ.(٢٢)

٢٠- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٨٧-١٨٨

٢١- انظر الحلل الموشية ص ٩٩-١٠٠

٢٢- انظر ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص٢٣٢

ولم يكتف الموحدون بذلك، بل وسعوا ميادين تحركاتهم وعملوا على السيطرة على المغرب الكبير، فعبرت قوات إلى الأندلس، وانشغلت قوات أخرى بفرض سيطرة الموحدين على المغربيين الأدنى والأوسط وتاكيد هذه السيطرة على المغرب الأقصى.

وبجهود عبد المؤمن بن على العسكرية يكمل تكوين الدولة الموحدية، وحرص عبد المؤمن على ألا يبتعد كثيراً عن النمط السياسى الذى حاو. ابن تومرت أن يكونه، فأكرم أهل الطبقات المشار إليها من قبل وقلدهم الـ ظـائف الكبرى فى الدولة، فواصل بذلك سياسة تمييز هذه الطبقات عن بقية الر عية.

لكن لما استقرت الأمور لعبد المؤمن، نراه يحاول التخلص من نفوذ هذه الطبقات، فيلجأ إلى تعيين أحد أولاده ولياً للعهد دون أن يختار أحد الباقين من العشرة، ثم يلجأ لتعيين أولاده ولاة على الأقاليم المختلفة فى المغرب الكبير ليحكم بذلك قبضته على سائر جهات الدولة، ويلجأ عبد المؤمن كذلك إلى سحب الوظائف المهمة من شيوخ موحدين من أهل عشرة وأهل خمسين (وسبعين) ويسلمها إلى (الطلبة) حيث أعد لهم مدارس خاصة لتخريجهم بغرض تولى الوظائف العامة، وأخيراً وحتى تكتمل له السيطرة أحضر قبيلته (كومية) من منطقة تلمسان إلى حيث يقيم فى عاصمة الموحدين واحتاط فى خطوته الأخيرة تلك وأحاطها بالكتمان وزود القبيلة بالأموال

والأسلحة حتى تظهر بمظهر قوى خلاب، وفوجئ الموحدون بقدوم أربعين ألف مقاتل كومى إلى مراكش بكامل عدتهم وزينتهم(٢٣).

بهذه الخطوات حول عبد المؤمن الدولة الموحدية إلى ما يمكن أن يطلق عليه الدولة المؤمنية، إذ جعل نظام الحكم وراثياً، وإن حرص فى الوقت نفسه على أن ينال ولى عهده تأييد شيوخ الموحدين.

وبدأت أفكار ابن تومرت، وخاصة فكرة المهدى المعصوم، فى التقلص، وقد بدأ أوائل هذا التقلص فى عهد عبد المؤمن نفسه ثم زاد فى عهد المنصور، وزاد المأمون فى ذلك فأعلن صراحة رفضه لفكرة المهدى المعصوم(٢٤)، وذلك فى أواخر عهده، وتحقق ذلك عملياً فى عهد ولده الرشيد، لكن الرشيد الموحدى لم يستطع أن يكمل هذا الأمر، إذ سرعان ما تحرك عليه شيوخ الموحدين، فأحس الرشيد بخطورة الأمر فاضطر إلى إعادة

٢٣- انظر السلاوى: الاستقصا جـ٢ ص ١٢٧، وتعتبر هذه الخطوات نوعاً من الابتعاد عن تعاليم ابن تومرت، وقد فهمت بعض القبائل هذا المعنى، وثارت ضد أفكار ابن تومرت، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لإظهار هذه المعارضة علانية، فأخمد عبدالمؤمن بن على هذه الثورات.

٢٤- أعلن المأمون ذلك صراحة وذم المهدى، وأمر بمحو اسم المهدى من السكة و الخطبة وأعلن النعى عليه النداء للصلاة بالبربرية وزيادة النداء لطلوع الفجر، وهو أصبح ولله الحمد وأمر بتدوير الدراهم الذى اتخذها ابن تومرت مربعة، ومن عبارات المأمون ضد المهدى قوله: "لاتدعوه بالإمام المعصوم، بل ادعوه بالغوى المذموم ..."، ولم تظهر هذه الأعمال فى السكة فى عهد المأمون، وقد نفذ الرشيد بن المأمون دعوة أبيه بعد موته انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ٢٥١.

(رسوم المهدى) فى الخطبة، والطراز، دليلاً على قوة الطبقات الموحدية المشار إليها سابقاً. (٢٥)

ضعف الموحدين

قدمنا أن عبد المؤمن أراد تحويل الدولة الموحدية إلى دولة مؤمنية بتعيينه أحد أبنائه ولياً للعهد، لكن خلفه أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لم يستتب له الأمر من الناحية الدستورية، إلا بعد عدة سنوات مضت يحاول فيها أتباعه وأنصاره الحصول على بيعة كبار شيوخ الموحدين.

وجاء المنصور بعد يوسف بن عبد المؤمن، فيمثل عهده العهد الذهبى للموحدين فى كل من المغرب والأندلس، بسبب سيطرته القوية على المغرب الكبير، وانتظام الإدارة، وإصلاحاته المتعددة وانتصاراته الذائعة ضد أعداء الدولة.

لكن الضعف بدأ يدب بوضوح فى جسم الدولة الموحدية منذ عهد الناصر بن المنصور (٥٩٥هـ- ٦١٠هـ) وشهدت الدولة الموحدية بداية النهاية، فقد زادت الثورات عدداً وحدة عما كانت عليه من قبل، فأنهكت قوة الموحدين، ومن أسباب الضعف أيضاً الهزائم العسكرية المتكررة فى الأندلس والتى بدأت بالهزيمة الساحقة فى العقاب سنة ٦٠٩هـ، تلتها هزيمة أخرى فى غرب الأندلس، وهى هزيمة قصر أبى دانس سنة ٦١٣هـ.(٢٦)

٢٥- انظر ابن أبى زرع: المرجع السابق ص ٢٥٥

٢٦- انظر تفاصيل هاتين المعركتين فى السلاوى: الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٦-٢٠٠، ٢٠٣

ومن أسباب الهزيمة، ضعف مركز الخلافة وسيطرة أقارب الخليفة عليه، وتعيين خلفاء صغار السن، والتنازع الذى دار حول هذا المنصب، ذلك النزاع الذى أدى إلى حدوث انقسام فى الأسرة الحاكمة وظهور أكثر من خليفة فى وقت واحد، كما حدث فى عهد المأمون وابنه الرشيد، عندما عاصر المعتصم بن الناصر عصر الأول، وجزءاً من عصر الثانى إلى أن مات المعتصم سنة ٦٣٣هـ، بما فى هذا النزاع من صراع عسكرى استنفذ جزءاً من طاقات الدولة قبيل أواخر عهدها.

ونتيجة لضعف الخلفاء والإدارة وكثرة الثورات، ظهر عامل ضعف جديد، وهو انفصال أجزاء من المغرب عن جسم دولة الموحدين، إذ شهد أواخر الثلث الأول من القرن السابع الهجرى انفصال إفريقية تحت حكم بنى حفص، وانفصال معظم المغرب الأوسط تحت حكم بنى زيان، ثم ظهر خطر دولة ناشئة ثالثة فى المغرب الأقصى هى دولة بنى مرين، التى ظلت تنمو حتى تمكنت من القضاء على الموحدين وقتل الخليفة أبى دبوس سنة ٦٦٨هـ، وتسقط الدولة الموحدية سنة ٦٦٨هـ[٢٧] ويقوم على أنقاضها ثلاث دول، أولاها من ناحية الشرق الدولة الحفصية ، وثانى هذه الدول القائمة على أنقاض الموحدين الدولة الزيانية أو دولة بنى عبد الواد، فى المغرب الأوسط، والدولة الثالثة فى المغرب الأقصى وهى الدولة المرينية، التى تمكنت- كما تقدم- من هزيمة الموحدين، وقتل آخر خلفائها والقضاء عليها.

٢٧- قتل الواثق بالله أبو دبوس منسلخ ذى الحجة ٦٦٧هـ. ويدخل المرينيون مراكش ٩ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (ابن أبى زرع المرجع السابق ص ٢٦١، ٢٧٧).

الفصل الرابع

الدول القائمة على أنقاض الموحدين

الدولة الحفصية، والدولة الزيانية، والدولة المرينية

الفصل الرابع

الدول القائمة على أنقاض الموحدين

كانت الدولة الموحدة هى آخر الدول الكبرى التى امتد سلطانها على المغرب كله، أو على جزء كبير منه، ولم تشهد المنطقة دولة كبرى مثلها حتى الآن .

وفى أوئل القرن السابع الهجرى ، ومع بداية هرم الدولة الموحدية بدأ فى الظهور فى المنطقة ، ظاهرة قيام أسر حاكمة أو دويلات ، إما بموافقة الدولة الموحدية نفسها وإما نتيجة لعوامل التدهور والضعف ، وظهور تكتلات قبلية كبيرة.

والدول التى قامت فى هذه الفترة أعنى من بدايات القرن السابع الهجرى إلى منتصفه تقريباً، هى الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى، والدولة الزيانية (أو دولة بنى عبد الواد) فى المغرب الأوسط ، والدولة المرينية فى المغرب الأقصى ، بدأ أصحاب الدولة الأولى منها كولاة للموحدين فى إفريقية ،ثم سرعان ما أحسوا بقوتهم ، فأعلنوا انفصالهم فى كيان سياسى مستقل ، وبدأت الدولتان الأخريان كتجمعات قبلية، كل فى منطقته، لكن بنى مرين كانوا أكثر تنظيماً وتوحداً وقوة ، فمثلوا كياناً سياسياً متحداً ، فى حين لم تنجح الدولة الزيانية فى الابتعاد التام عن الشكل القبلى وظلت الخلافات القبلية فيها ، بالإضافة إلى عوامل أخرى ، عائقاً لها عن ظهورها بمظهر

مماثل للقوتين المجاورتين لها لدولة الحفصية شرقيها، والمرينية غربيها وقد استمرت هذه الدول إلى القرن العاشر الهجرى ووقعت خلالها إما تحت النفوذ العثمانى ، وإما تحت الاحتلال الاسبانى وفيما يلى كلمة موجزة عن الدولة الحفصية.

الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى(١)

تنسب هذه الدولة إلى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، أحد عشرة المهدى ابن تومرت الذين مر ذكرهم ، وكانت له مكانة كبرى عند ابن تومرت كما كانت له مكانة مماثلة فى دولة عبد المؤمن بن على، وظل لأبنائه مثل هذه المكانة فى الدولة الموحدية بعد ذلك .

وعندما تولى الناصر الموحدى وجد أن منطقة المغرب الأدنى كثيرة المشاكل، لبعدها عن مركز الدولة فى المغرب الأقصى ، فواصل إرسال الجيوش إليها لتمهيدها ، ثم اضطر للتوجه إليها بنفسه مع أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ولما هدأها ومهدها ،وأقام بها سنة ، رأى ضرورة إبقاء أحد رجال الدولة المهمين ، من ذوى الخبرة ، ومن أهل الثقة ، فى الوقت نفسه ، فلم يجد أحداً أقدر على ذلك من أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، فطلب إليه البقاء فى المغرب الأدنى لحفظه وحمايته ، فأبى وامتنع، لأنه بذلك سيبتعد عن مركز الدولة، وموقع الأهمية فيها، باعتباره أحد أهم مشيخة

١- من المصادر الرئيسة للدولة الحفصية : العبر لابن خلدون الجزء السادس ، والأدلة البيئة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع ، والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن القنفذ ، وتاريخ الدولتين الموحدين والحفصية للزركشى ، وغيرها .

الموحدين فى ذلك الوقت ، فألح عليه الخليفة الناصر ، وأخيراً اضطر أبو محمد إلى الموافقة بعد شروط اشترطها على الناصر ، بادر الناصر إلى الموافقة عليها جميعاً(٢) وهكذا تولى أبومحمد عبد الواحد بن أبى حفص ولاية إفريقية ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٦٠٣واستمر عبد الواحد فى إفريقية حوالى خمسة عشر عاماً (رغم اشتراطه على الناصر ألا يمكث أكثر من ثلاثة أعوام) أظهر فيها مزيداً من المهارة والكفاية ، إلى أن توفى أول أيام سنة ٦١٨هـ بتونس .

لقد أوجد عبد الواحد البذرة الحفصية فى إفريقية ، ثم جاء بعده مؤسس الدولة الحفصية ، وهو ابنه أبو زكريا يحيى وذلك فى رجب سنة ٦٢٥هـ والياً على الإقليم من قبل الموحدين لكنه سرعان ما مال إلى الاستقلال ، واستغل فرصة الخلاف الداخلى فى الأسرة المؤمنية فى مراكش ، وتصارع فردين منها هما المأمون ، ويحيى بن الناصر، فوجد خليفتان فى وقت واحد ، فأسرع أبو زكريا يحيى بإسقاط بيعة المأمون ، وبويع لأبى زكريا فى تونس أميراً على إفريقية سنة ٦٢٧ ثم تكررت هذه البيعة مع تأكد قوته وسيطرته على الإقليم.

٢- من أهم هذه الشروط ، التى اشترطها عبد الواحد بن أبى حفص على الناصر الموحدى والتى يظهر فيها علو مكانة عبد الواحد ، أن يختار من رجال الموحدين من يجلس معه ويكون عوناً له فى جميع ضرورياته ، وألا يتعقب عليه فى أموره فى تولية ولا عزل"

ومد أبو زكريا سلطانه إلى بعض بلدان المغرب الأوسط فأخذ قسنطينة سنة ٦٢٨هـ، فأسرع أخوه والي بجاية بالانضمام إليه ، واشتهرت الدولة الحفصية ، وجاءته البيعات من جهات متعددة ، واستغاثت به بلنسية الأندلسية سنة ٦٣٦هـ (٣) واستولى أبو زكريا على الجزائر في هذه السنة أيضاً ، وافتتح تلمسان سنة ٦٣٩هـ ، وعين عليها صاحبها يغمراسن بن زيان .

وقوى أمر أبي زكريا ، وشجعه بعض الشعراء على التلقب بأمير المؤمنين (لقب الخلافة) (٤) لكنه رفض مكتفياً بلقب (الأمير) تأدباً مع خلفاء الدولة الموحدية الذين لم يفقدوا، وقتها، كامل قوتهم.

وهكذا أنشأ الأمير أبو زكريا يحيى للحفصيين دولة في المغرب الأدنى ، ضم إليها بعض مدن من المغرب الأوسط ، كما هيمن على بقية ممتلكات بني عبد الواد في المغرب الأوسط ، حيث دان بنو عبد الواد بالطاعة للحفصيين وخطبوا لهم ، وتوفي الأمير أبو زكريا أول أمراء الدولة في سنة ٦٤٧هـ فكانت مدة إمارته حوالي عشرين سنة (غير الفترة التي قضاها قبلها والياً على الإقليم من قبل الموحدين).

٣- وفد ابن الأبار إلى أبي زكربا مستغيثاً به من تطاول النصارى على بلنسية وأنشده قصيدة طويلة أولها

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

فاعد العدة للمعاونة، لكن النصارى سبقوه إلى احتلالها

٤- قال شاعره :

ألاصل بالأمير المؤمنينا   فأنت بها أحق العالمينا

والجدير بالذكر هنا أن بعض مؤرخي الدولة الحفصية من المعاصرين لأوائل عهدها ، لم يظهر نشأة الدولة على أنه انفصال عن الدولة الموحدية، بل على أنه اقتسام لحق كان لبني حفص من قديم، نالوه وقتها، فبينوا أن الكلمة الموحدية انقسمت منذ إمارة أبى زكريا قسمين: مؤمنية (فى أبناء عبد المؤمن بن على) وحفصية (فى اولاد أبى حفص عمر الهنتاتى)(٥).

ومن منظور التطور السياسى للمغرب، خطا محمد بن أبى زكريا خطوة أخرى فى سبيل توطيد الدولة وتوسيع حدودها ، وتطوير شكل رئاستها ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧هـ، ووصلته عدة بيعات فى المغرب الأقصى ، كما يشير مؤرخو الدولة إلى ورود بيعة أهل مكة ، وهنا يطور محمد بن أبى زكريا شكل الحكم من الإمارة إلى الخلافة وتلقب بالمستنصر : (وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين لذى الحجة من سنة خمسين وستمائة رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الأمير قصوراً فسمى بأمير المؤمنين ، وأمر ان يذكر ذلك فى الخطبة ويطبع فى الذهب وفى ذلك اليوم تلقب بالمستنصر)(٦). وتوفى المستنصر بعد أن تولى ثمانية وعشرين عاماً ونصفاً تقريباً ، ومنها حوالى ستة وعشرين عاماً تلقب فيها بلقب خليفة.

٥- انظر ابن القنفذ: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٨ .

٦- انظر الزركشى :تاريخ الدولتين ص ٢٩.

ومن الأحداث المهمة التى وقعت فى عهد المستنصر الحفصى، مقدم حملة صليبية إلى تونس ، يقودها الملك الفرنسى لويس التاسع ، تلك الحملة التى اشتهرت باسم الحملة الصليبية الثامنة (مكملة سبع الحملات الكبرى التى وجهها الصليبيون ضد المشرق الاسلامى) . وقد اختلف المؤرخون حول سبب هذه الحملة من بين قائل إن بعض التجار الفرنسيين زعم أن أحد رجال الدولة الحفصية اقترض منهم ثلاثمائة ألف دينار، فأبى المستنصر أن يصدقهم ، وردهم ،أو أن حديثاً جرى فى حضرة المستنصر جاء ذكر الفرنسيين فيه ، فقال "هم الذين أسر هؤلاء طاغيتهم ثم أطلقوه، يشير إلى الأتراك الذين بين يديه(٧) ". هذا السبب أو ذاك إنما هو أسباب مباشرة واهية ، والحقيقة التى يمكن استخلاصها من حوادث التاريخ، ومن شخصية لويس المتعصبة جداً دينياً ، ومن الحشود الأوربية التى استنفرت وحشدت ، ومن الإمكانات المادية المقدمة ، تؤكد أن هذه الحملة هى استمرار لشن حملات صليبية على المغرب، تستهدف مد النفوذ الأوربى إلى هذه المنطقة.

ويؤرخ لهذه الحملة بسنة ٦٦٨هـ ،أى بعد حملة لويس التاسع على دمياط (٦٤٧هـ) بثنتين وعشرين سنة.

وقد تمكن الصليبيون من النزول على شواطئ تونس فى ذى القعدة بالقرب من قرطاجنة القديمة، وتحصنوا بها ، ووقف جند الحفصيين إزاءهم، ولم يتمكن الصليبيون من دخول تونس ، كما لم يتمكن الحفصيون من القضاء عليهم، أو طردهم، ثم أصاب الصليبيين وباء الطاعون ،ومات لويس التاسع فى المحرم سنة ٦٦٩هـ، وجرت

٧- انظر ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية ص ٦٥.

المفاوضات للصلح وتم الاتفاق على جلاء الصليبيين في مقابل أن يأخذوا ١١١٠ قنطار فضة خالصة ، وكان نزولهم على تونس سبباً في إتلاف الأموال التي تركها الأمير أبو زكريا.

ثم مرت الدولة الحفصية بعد المستنصر (٦٧٥هـ) بفترة ليست بالقصيرة ترددت فيها بين القوة والضعف ، فظهر النزاع والاضطراب داخل الأسرة الحاكمة ، وتعدى بعضهم على بعض بالقتل أو بالخلع، وظهر من ادعى أنه من الأسرة، واستولى على الحكم حوالي سنة ونصف (فسمي بالدعى) ، واختلفت الدولة بين الانقسام والعودة إلى الوحدة ، حيث انقسمت الدولة قسمين أولهما شرقي، ضم الممتلكات الإفريقية بالمغرب الأدنى، وثانيهما غربي، ضم ممتلكات الدولة في المغرب الأوسط، واستغل بنو مرين الداخلين في طاعة الحفصيين هذا الانقسام وهذا الضعف، فدخلوا تونس مسيطرين على الدولة الحفصية ، ودخلت الجيوش المرينية تونس بعد أن قبضوا على الأمير أبي حفص عمر وقتلوه في جمادى الاولى سنة ٧٤٨هـ(٨)، ودخل أبو الحسن المريني تونس فبايعه في يوم واحد خمسون من الأسر الحاكمة الحفصية والزيانية وبعض الأمراء الأندلسيين. ثم اضطر أبو الحسن للعودة إلى مراكش بعد أن بلغه خبر استيلاء أبيه على السلطة هناك ، وترك أبو الحسن ولده الفضل في تونس ، فانتهز الأمير الحفصي أبو العباس الفضل الفرصة ، وأخرج بني مرين منها في آخر ذي القعدة سنة ٧٥٠هـ، فكانت مدة السيطرة

٨- انظر الوزير: الحلل السندسية جـ١ ق٤ ص١١٠٤-١١٠٧.

المرينية على ممتلكات الدولة الحفصية حوالى عامين ونصف، ثم مرت الدولة بفترة من القوة بدات فى عهد أحمد بن المستنصر (٧٧٢-٧٩٦) ثم ولده أبى فارس عبد العزيز (٧٩٦-٨٣٣) ثم ولده أبى عبد الله محمد المنتصر (٨٣٣-٨٣٩) ثم ولده أبى عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣) وتمثل هذه الحقبة فترة القوة الثانية والأخيرة فى الدولة حيث آل أمر الدولة بعدها إلى الضعف فالسقوط. ويمثل عهد أبى فارس عبد العزيز وحفيده أبى عمرو عثمان واسطة عقد الدولة الحفصية فالأول :"واسطة بنى أبى حفص ، وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر فى خلافتهم النقص، والثانى هو "ختام الدولة الحفصية ، ونظام المحاسن الفاخرة فى البلاد الإفريقية "، واستمرت الدولة بعد هذا فترة قصيرة بقوة الدفعة ، إلى أن انتهى عهد الأمير أبى عبد الله محمد الحسن حفيد أبى عمرو عثمان سنة ٩٣٢هـ، ومع هذا فقد شهد عهده عدة متغيرات خطيرة، فقد بدأ عهده بداية حسنة، ثم حدث اضطراب سياسى ، وظهرت قوة العثمانيين الأتراك ، فأخذوا منه قسنطينة، وتمكن خير الدين من أخذ تونس، ففر منها الحسن، وفتح على مدينة تونس "الباب الذى أعجز سده ،وكان السبب للقضاء الذى لم يمكن لهم رده "،إذ لجأ الحسن -شأن فترات الضعف فى التاريخ الإسلامى- إلى النصارى فاستغاث بالأسبان المتلهفين والمتوثبين لأخذ الإقليم ، فمكنهم من حصن حلق الواد ، وغلظ أمر الأسبان حتى شاركوا الحسن فى إدارة الدولة ، حيث شاركه فى ذلك خوان جاكمو قائد جيش النصارى ، فاضطر أحمد بن الحسن إلى الثورة على أبيه ، فعزله وسمل عينيه ، وأخذ يحاول إصلاح ما خرج

عن حد الإصلاح ، "وأحمد هذا لو سلم من ترادف المحن ، لم يرض بما رضي به غيره ، ولما التفت لما يقوم به من مصالح البلاد وجد الخزائن خالية لما كان أتلفها أبوه الحسن " فترادف على أحمد بن الحسن الوجود النصراني الاسباني في البلاد ، وقلة الأموال ، وعيث الأعراب ، وصراع العثمانيين ولما وصل إليه العثمانيون سنة ٩٧٧هـ رأى أنه لا قبل له بهم ، فخرج من القصبة بأمواله فأخذها منه الأعراب ، فلم يجد ملجأ إلا الحصن الذى بناه الأسبان في حلق الوادى " ودق باب الحصار (الحصن) ليلاً ، فلما عرفوه رثوا له وقبلوه".

ووقع أحمد فيما وقع فيه أبوه وارتمى فى أحضان الأسبان وطلب منهم أسطولاً يحميه ، لكنهم اشترطوا على أحمد أن يوقع على اتفاق بمقاسمة البلاد مالاً وحكماً ، فوافق على مقاسمة الأموال فقط دون مقاسمة الحكم ، فرفض الأسبان فقال له القائد الأسباني :" فإن قبلت وإلا عندى تحت يدى من يقبل الشروط وهو أخوك محمد " فأفاق أحمد ورفع يده عن الأسر ، واتجه إلى صقلية ، وبقى هنالك إلى أن مات ولما تولى محمد بن الحسن ، قسمت المدينة قسمين أحدهما للمسلمين والآخر للنصارى ، وارتكب الأسبان عدة فظائع ،" ولكن أهل باب السويقة انحازوا إلى ناحية ، ومنعوا أنفسهم من الإهانه ، وأما أهل باب الجزيرة والمدينة كانوا تحت رمية المدافع ، فلم يجدوا بداً من المساعدة ".

وقد تمكن الاسبان من طرد الأتراك وسكن قبطان النصارى بالقصبة مع الأمير محمد يجلسان معاً فى السقيفة للحكم. وقوى أمر الاسبان فى تونس

وضاق الأمر بحيدر باشا التركى بالقيروان " وتحركت عند حيدر باشا الحرارة الإيمانية ورأى الإقامة فى حياة بلا جهاد ، مما لا يرتضى عند الله ولا عند العباد ، فتحرك بمن معه لتونس ونزلوها "قوافاهم على حصار تونس بمدد بحرى عثمانى قاده سنان باشا سر دار العسكر وقلج على قبطان ، فتمكنوا من تونس وطردوا الاسبان سنة ٩٨١، ولم يلبث فى السنة التالية أن أعلنت نهاية الدولة الحفصية التى عاشت مدة طويلة وصلت حوالى ثلاثة قرون ونصف القرن.

دولة بنى عبد الواد
(الدولة الزيانية)

ينسب بنو زيان أصحاب الدولة الزيانية إلى بنى عبد الواد، إحدى القبائل الزناتية التى كان لها انتشار واسع بالمغرب الأوسط، وهم إخوة بنى توجين وبنى مصاب، وهم من بنى يادين جميعاً، فهم زناتيون، وتفترق بنو عبد الواد إلى بطون كثيرة أظهرها ستة، وكانت رئاستهم فى بنى القاسم بسبب شدة شوكتهم، وتقويهم بزعمهم أنهم من أولاد القاسم بن إدريس، ويظهر من سياق حديث ابن خلدون عدم تقبله لهذا النسب، من قوله: "وربما قالوا فى هذا القاسم إنه ابن محمد بن إدريس، أو ابن محمد بن عبد الله، أو ابن محمد بن القاسم، وكلهم من أعقاب إدريس، زعماً لا مستند له، إلا اتفاق بنى القاسم عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة هذه الأنساب، والله أعلم بصحة ذلك"(٩) ومن هنا فلا يعول كثيراً على من قال بنسبتهم إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد عاشت قبيلة بنى عبد الواد فى القرن السابع فى تقلبات سياسية حادة فى المنطقة، واختاروا أن يساندوا الموحدين ضد مناوئيهم أول الأمر، ومن هنا كافأهم الموحدون بعدة إقطاعات واسعة بالمغرب الأوسط.

٩- انظر ابن خلدون: العبر جـ٧ ص٧٢، وكذا ص ٧٧،٥٨

وأحس بنو عبد الواد بما وصل إليه الموحدون من ضعف في النصف الأول من القرن السابع الهجرى، والتفتوا كذلك إلى بداية ظهور بعض التكتلات فى المغربين الأدنى والأقصى، حيث ظهر النفوذ الحفصى ولاة أول أمرهم، ثم مستقلين بالمغرب الأدنى.

كما التكتل المرينى بالمغرب الأقصى ضد الموحدين فتطلع بنو عبد الواد أن يكون لهم حظ من استقلال.

وتحرك بنو عبد الواد محاولين لم قواهم وإيجاد نوع من التكتل القبلى، فآلت رئاستهم إلى عدد من رجالهم، من أهمهم جابر بن يوسف بن محمد، ومالوا إلى تلمسان، غير أن نفوذهم السياسى ازداد وضوحاً بتولى يغمراسن ابن زيان(١٠) رئاستهم سنة ٦٣٣هـ، فحرص على تجميع القوى، وزيادة تحالف قبيلته مع قبيلة زغبة العربية، ويعتبر يغمراسن من جانب آخر- مؤسساً لنظم الزيانيين ومؤسسات دولتهم الوليدة، فقد "فرض العطاء، واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث فى الأعمال، ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسى"،(١١) وتعد ولاية يغمراسن ولاية استكفاء، إذ إنه عطل كل نفوذ موحدى فى منطقته، دون أن يقطع الخطبة للخليفة الموحدى،" ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على المنابر من رسوم دولتهم وألقاب

١٠- مثل التنسى، صاحب الدر والعقيان فى شرف بنى زيان (مخطوط) ورقة رقم٧ .

١١- انظر ابن خلدون المرجع السابق ص٦٢

ملكهم إلا الدعاء على المنابر للخليفة بمراكش، وتقلد العهد من يده، تأنيساً للكافة، ومرضاة للأكفاء من قومه"(١٢)

وكان يغمراسن يواجه عدة قوى، أوائل دولته، منها قوة الموحدين، والحفصيين، وتجمع بنى مرين، وتجمع بنى توجين ومغراوة وغيرهما من القبائل المنافسة له فى المغرب الأوسط.(١٣) وكان على يغمراسن أن يوجد لنفسه ولقومه خلال هذا الزحام، مكاناً، ومكانة وبعد نجاح بنى حفص فى دخول تلمسان، وفرض سيطرتهم عليها، يضطر يغمراسن إلى تحويل طاعته من الموحدين إلى الحفصيين يعرضه لغضب الموحدين، وإلى خروج السعيد الموحدى بنفسه لقتاله، غير أن السعيد يهزم ويقتل فى هذه المعركة.(١٤) فتستمر طاعة بنى زيان للحفصيين إلى آخر القرن السابع الهجرى.

ويتأكد ظهور شكل دولة بنى زيان فى عهد أبى حمو موسى بن عثمان ابن يغمراسن، الذى تولى أواخر شوال سنة ٧٠٦هـ، فهو- حسب تعبير ابن خلدون- "أول ملوك زناتة رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وقلب لهم مجن بأسه، حتى ذلوا لعز ملكه، وتأدبوا بآداب السلطان، كما يؤكد ابن خلدون هذا القول بما سمعه من عريف بن يحيى، شيخ قبيلة سويد الزغبية الهلالية، قال: "هو معلم السياسة الملوكية لزناتة، وإنما كانوا رؤساء بادية، حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحد حدودها، وهذب مراسمهما، ونقل عن ذلك أمثاله وأنظاره، فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه"(١٥)

١٢- المرجع السابق ص٧٩.

١٣- انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد جـ١ ص١١٥.

١٤- انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ٢٥٧

١٥- العبر جـ٧ ص٩٨،٩٩.

وكان الصراع الدائم للدولة الزيانية ضد بنى حفص فى الشرق، وبنى مرين فى الغرب. وضد قبائل بنى توجين ومغراوة فى المغرب الأوسط وغلب على بنى حفص مد سلطانهم على بنى زيان، وإن لم يسلموا من عدة غارات قام بها بنو زيان ضد ممتلكات الحفصيين الغربية فى بجاية وقسنطينة، بل ضد تونس نفسها أحياناً، كما تمكن بنو مرين من سلطانهم على المغرب الأوسط أكثر من مرة وهم إن كانوا أخفقوا فى أخذ تلمسان أوائل القرن الثامن بعد الحصار الطويل الصعب ضدها، إلا أنهم نجحوا فى أخذها سنة ٧٣٧هـ إلى سنة ٧٤٩هـ(١٦)

أقبلت قوات اسبانيا أوائل القرن العاشر الميلادى تحتل موانى المغرب الأوسط، فأخذت وهران سنة ٩١١هـ، وأخذت بجاية وتدلس، وشرشال سنة ٩١٥هـ، وضعف الأمراء الزيانيون، ودفعوا أموالاً قررتها عليهم إسبانيا، ولما حاولت بعض القوى الزيانية الاتصال بالعثمانيين، نشب صراع فى هذه المنطقة، بينهم وبين الاسبان، ولما لم يتمكن العثمانيون من تمام فرض سيطرتهم على المنطقة، أوسع هذا المجال لقوة سياسية جديدة هى قوة الأشراف السعديين، التى نجحت فى أخذ تلمسان سنة ٩٥٧، لكن الأتراك يطردونهم، ثم ينهون الدولة الزيانية سنة ٩٦٢هـ بعد خلعهم آخر أمراء بنى زيان: الحسن بن عبد الله.(١٧) ثم فى سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧٦٠هـ(١٨)

وهكذا عانت دولة بنى زيان من عدة أمور أهمها طمع جيرانها فيها، والخلافات القبلية الظاهرة والمستمرة فى المغرب الأوسط، وزاد على ذلك

١٦- انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد ص١٤١، ١٤٢

١٧- انظر الجيلالى: تاريخ الجزائر العام جـ، ص٢٢١-٢٢٩.

١٨- انظر ابن خلدون: العبر جـ٧ ص١٢٠-١٢٢

وجود عدة مشكلات داخل الأسرة الزيانية نفسها[19]، ويبدو أن دولة بني زيان لم تنجح تماماً في القضاء على النزعة القبلية في المغرب الأوسط، مجال ملكهم، كما ظهر عامل أخر خطير آخر دولة بني زيان، ساعد- بالإضافة إلى العوامل السابقة- في القضاء على الدولة الزيانية، أعني تطلع الاسبان إلى هذه المنطقة، فقد أقبلت قوات اسبانيا أوائل القرن العاشر الميلادي تحتل موانى المغرب الأوسط، فأخذت وهران سنة ٩١١هـ، وأخذت بجاية وتدلس، وشرشال سنة ٩١٥هـ، وضعف الأمراء الزيانيون، وجمعوا أموالاً قررتها عليهم إسبانيا، ولما حاولت بعض القوى الزيانية الاتصال بالعثمانيين، نشب صراع في هذه المنطقة بينهم وبين الإسبان، ولما لم يتمكن العثمانيون من تمام فرض سيطرتهم على المنطقة ، أوسع هذا المجال لقوة سياسية جديدة هي قوة الأشراف السعديين، التي نجحت في أخذ تلمسان سنة ٩٥٧ ، لكن الأتراك يطردونهم، ثم ينهون الدولة الزيانية سنة ٩٦٢هـ بعد خلعهم آخر أمراء بني زيان، الحسن بن عبد الله.[20]

١٩- مثل صراع أبي تاشفين الأول ضد أبيه أبي حمو موسى (٧٠٧-٧١٨) وأبي تاشفين الثاني ضد أبيه أبي حمو موسى وأبي تاشفين الثاني ضد أبيه أبي حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١)، وقتل يوسف بن موسى الثاني لأبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني، ليقتله بدوره أخوه أبو زيان.

٢٠- انظر الجيلالي: تاريخ الجزائر العام جـ٢ ص٢٢١-٢٢٩.

ثبت حكام الدولة الزيانية

١- يغمراسن بن زيان	٦٣٣هـ
٢- عثمان بن يغمراسن	٦٨١
٣- أبو زيان محمد (الأول) بن عثمان	٧٠٣
٤- أبو حمو موسى (الأول) بن عثمان	٧٠٧
٥- أبو تاشفين عبد الرحمن (الأول) بن موسى	٧١٨
٦- عثمان (الثانى) بن عبد الرحمن	٧٤٩-٧٥٣
[فترة النفوذ المرينى	٧٥٣-٧٦٠]
٧- أبو حمو موسى (الثانى) بن يوسف	٧٦٠ هـ
٨- أبو تاشفين عبد الرحمن الثانى بن موسى (الثانى)	٧٩١
٩- يوسف (الأول) بن عبد الرحمن	٧٩٥
١٠- يوسف (الثانى) بن موسى	٧٩٥
١١- أبو زيان محمد (الثانى) بن موسى	٧٩٦
١٢- أبو محمد عبد الله (الأول) بن موسى	٨٠١
١٣- أبو عبد الله محمد (الثالث) بن موسى	٨٠٤
١٤- عبد الرحمن (الثالث) بن محمد (الثالث)	٨١٣
١٥- السعيد بن موسى الثانى	٨١٤
١٦- أبو مالك عبد الواحد بن موسى	٨١٤
	[ثم من ٨٣١-٨٣٣]
١٧- محمد (الرابع) بن عبد الرحمن (الثانى)	٨٢٧-٨٣١
	[ثم من ٨٣٣-٨٣٤]

١٨- أبو العباس أحمد بن موسى الثانى	٨٣٤
١٩- محمد (الخامس) بن محمد	٨٦٦
٢٠- تاشفين بن محمد الخامس	٨٩٠
٢١- محمد (السادس) بن محمد الخامس	٨٩٠
٢٢- محمد (السابع) بن محمد (السادس)	٩٠٢
٢٣- أحمد (الثانى) بن محمد (السادس)	٩٠٩
	[ثم من ٩٢٣-٩٢٤]
٢٤- موسى (الثالث) بن محمد (الخامس)	٩٠٩
	[ثم من ٩٢٤-٩٣٤]
٢٥- عبد الله (الثانى) بن محمد الخامس	٩٣٤
٢٦- محمد (الثامن)	٩٤٧-٩٤٩
	[ثم ٩٥٠]
٢٧- أحمد (الثالث)	٩٤٩
	[ثم ٩٥٠-٩٥٧]
٢٨- الحسن بن عبد الله الثانى	٩٥٧

[وقوع الدولة بعضها تحت الاحتلال الأسبانى، ثم سقوط الدولة وفرض العثمانيين سيطرتهم على المغرب الأوسط سنة ٩٦٢هـ]

الدولة المرينية

بنو مرين، مثل بنى عبد الواد قبلهم، فخذ من زناتة، كثير العدد، قوى الشوكة، اتخذوا مما يلى تلمسان غرباً إلى المغرب الأقصى مواطن لهم [٢١]، وقد استغل بنو مرين بدورهم مرحلة الضعف التى مر بها الموحدون أواخر عهد الناصر الموحدى، فبدأوا يتكتلون، وبدأو يطمعون أن يوجد لهم مكان على الخريطة السياسية.

ومع قرابة بنى مرين لبنى عبد الواد إلا أنه كثرت الاحتكاكات بين القبيلين، وأوقع بنو عبد الواد سنة ٥٤٠هـ هزيمة شديدة ببنى مرين، واضطروهم إلى الدخول إلى الصحراء، وإن لم يمنعهم هذا من المشاركة فى غزوة الأرك لم ندبهم الموحدون للجهاد فى الأندلس، وقادهم محيو إلى سنة ٥٩١هـ ثم عبد الحق بن محيو، واستمر النزاع فى عهده بين قبيله وقبيلة بنى عبد الواد، وتنافس القبيلان على سجلماسة، فكانت من نصيب بنى مرين أولاً وتمكنوا من تعيين عمالاً عليها[٢٢].

٢١- انظر بن خلدون: العبر جـ٧ ص١٦٧

٢٢- المرجع السابق.

ولما قوى أمر بنى مرين فى الصحراء، وضعف أمر الموحدين، زحف بنو مرين إلى داخل البلاد، وأخذوا يفرضون نفوذهم على أجزاء من المغرب الأقصى، إلى أن تمكنوا من الانتصار على الموحدين فى عدة لقاءات عسكرية، وانتصروا على تجمع عربى بقيادة قبيلة رياح، حتى أذعنوا بالطاعة لبنى مرين، وبدأت قبائل البربر تذعن لهم بطاعتهم قبيلة بعد أخرى، لكن لم ينج بنو مرين من بعض هزائم ألحقها بهم الموحدون، أشهرها هزيمتهم سنة ٦٤٢هـ، والتى أدت إلى قتل رئيسهم محمد بن عبد الحق، فرأس بنى مرين بعده أبو بكر بن عبد الحق، الذى تمكن من السيطرة على مدينة مكناسة، ورباط تازة سنة ٦٤٣هـ، وفاس سنة ٥٤٦هـ(٢٣)، ثم استعاد بنو مرين فاس مرة أخرى سنة ٦٤٨هـ، بعد خروجها عن طاعتهم، ثم أخذوا سلا سنة ٦٤٩هـ، ثم سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٥هـ (وإن كانت سجلماسة ستخرج عن الطاعة إلى أن يستعيدها المرينيون سنة ٦٧٣هـ) (٢٤)

وبدأ التجمع السياسى المرينى يخطو خطوات واسعة تجاه شكل الدولة، وكان عهد يعقوب بن عبد الحق الذى بدأ من سنة ٦٥٦هـ هو البداية الحقيقية لظهور الدولة المرينية، وفى عهده ظهرت المؤسسات وعين العمال من حجاب وكتاب ووزراء وقضاة، واستكمل يعقوب فرض سلطانه على سائر بلاد المغرب الأقصى، إلى أن تمكن من دخول مراكش إلى سنة ٦٦٨هـ، وقتل آخر خلفاء الموحدين، منهياً بذلك الدولة الموحدية، وارثاً ملكها فى المغرب الأقصى.

---

٢٣ - انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص٢٨٩-٢٩٣.

٢٤- المرجع السابق ص ٢٩٥-٢٩٦.

وهكذا ظهر إلى الوجود السياسى دولة فتية، حاولت أن ترث ملك الموحدين فى المغرب الأوسط، والمغرب الأدنى، وأن تقوم بدور الحامى للأندلس، وإن لم تنجح فى ذلك نجاحاً واضحاً أو متواصلاً، وقد مر أن الدولة المرينية تمكنت مرتين فى فرض سلطانها على المغرب كله، ولكن لفترة قصيرة لبضع سنوات عاد الأمر بعدها إلى التفكك إلى الوحدات الثلاثة: بنى حفص بالمغرب الأدنى، وبنى زيان بالمغرب الأوسط وبنى مرين فى المغرب الأقصى. ولم يكتب للمغرب بعد ذلك أن يحكم بدولة واحدة، مثلما حكمته دولة الموحدين من قبل، فآل أمره إلى التفكك بعد الوحدة.

أهم المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع

أ- المصادر والمراجع العربية

١- ابن الأبار : الحلة السيراء جـ١،جـ٢ حققه وعلق حواشيه د.حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٥.

٢- دكتور إبراهيم العدوى:

- الأمويون والبيزنطيون البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، ط٢، القاهرة ١٩٦٣

- بلاد الجزائر.

- موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى، سلسلة أعلام العرب ١٩٦٧

٣- ابن أبى دينار: المونس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام المكتبة، العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٧.

٤- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣.

٥-أبو العرب: طبقات علماء إفريقية.

٦- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٢،٣،٤،٥،٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٧(والجزء الثالث من طبعة دار صادر).

٢٥- **الحموى (ياقوت):** معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.

٢٦- **ابن الخطيب:**

-أعمال الأعلام، القسم الثالث، نشر د. أحمد مختار العبادى، ومحمد إبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، سنة ١٩٦٤.

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، تحقيق د. أحمد مختار العبادى، الاسكندرية ١٩٥٨.

٢٧- **ابن خلدون:** العبر، وديوان المبتدأ والخبر... جـ١،جـ٢، جـ٤ (طبعة بولاق)، جـ٦ (طبعة بولاق، وطبعة بيروت أيضاً)،جـ٧.

٢٨- **الدباغ وابن ناجى:** معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس ١٣٢٠هـ.

٢٩- **ابن رشد :** بداية المجتهد ونهاية المقتصد (جزءان) راجعه وصححه عبد الحليم محمد عبد الحليم، وعبد الرحمن حسن محمود. القاهرة (بدون تاريخ).

٣٠- **الزركشى :** تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

٣١- **دكتور سعد زغلول عبد الحميد:**

-تاريخ المغرب العربى من الفتح الى بداية عصور الاستقلال منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٩.

- تـاريخ دول الأغالبـة والرسـتميين وبنـى مـدرار والأدارسـة حتى قيام الفاطميين (٢)، منشـأة المعـارف الاسكندرية ١٩٧٩.

- تـاريخ الفاطميين وبنـى زيـرى(٣)

٣٢- السلاوى: الاستقصا فـى أخبـار المغـرب الأقصـى، تحقيـق جعفـر النـاصرى، ومحمـد النـاصرى، دار الكتـاب الـدار البيضـاء، ١٩٥٤(وطبعـة مصـر أيضـاً) .

٣٣- دكتـور السـيد عبـد العزيـز سـالم: تـاريخ المغـرب فـى العصـر الإسلامى ، مؤسسـة شباب الجامعـة.

٣٤- الشماخى: السير ، تحقيق أحمد بن سعود السـياب، جـ٢ سـلطنة عمـان.

٣٥- ابـن الشـماع : الأدلـة البينـة النورانيـة علـى مفـاخر الدولـة الحفصيـة. تونـس، لجنـة الطلبـة للنشـر والتعريـب.

٣٦- الطـبرى: تـاريخ الرسـل والملـوك (تحقيـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم) ط٣ دار المعـرف.

٣٧ - ابن الصغير: أخبـار الأئمـة الرسـتميين، ١٩٠٧.

٣٨- ابـن عـذارى: البيـان المغـرب فـى أخبـار الأندلـس والمغـرب، جـ١،٢، تحقيـق ومراجعـة كـولان وبروفنسـال، الطبعـة الثالثـة، بيروت ١٩٨٣، وجـ٤ تحقيـق د. إحسـان عبـاس ، وجـ٤ طبعـة تطـوان ١٩٥٦.

٣٩- ابن القنفذ : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨.

٤٠- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة .

٤١- لوبون: حضارة العرب.

٤٢- المالكى: رياض النفوس جـ١، نشرة د. حسين مؤنس.

٤٣- دكتور محمد حلمى محمد أحمد:

- الخلافة والدولة فى العصر الأموى.

- الخلافة والدولة فى العصر العباسى

٤٤- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (قسمان) ط١ ١٩٦٤.

٤٥- محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير جـ ١ ، ٣ .

٤٦-دكتور محمد عيسى الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى،

٤٧- دكتور محمود إسماعيل: الأدارسة، الطبعة الأولى ١٩٩١ .

٤٨- المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، ط١، القاهرة ١٩٤٩.

٤٩- مرسيه: مادة رباط فى دائرة المعارف الإسلامية.

٥٠- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثالثة (مكتبة مدبولى)

٥١- المقريزى:

- اتعاظ الحنفا جـ١، تحقيق د. جمال الشيال.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان).

٥٢- المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

٥٣- النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب،

- جـ٢٤، تحقيق د. حسين نصار

- جـ٢٨، تحقيق د. محمد أمين، ود. محمد حلمى محمد أحمد.

٥٤- الوزير السراج: الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، جـ١ (٤ أقسام)، تحقيق محمد الحبيب هيلة، تونس ١٩٧٠.

٥٥- يحيى بن خلدون: بغيت الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد الواد، ومجلدان، نشرة الفرد بل الجزائر ١٩٠٣، ١٩١٠.

٥٦- اليعقوبى: صفة المغرب (المأخوذ من كتاب البلدان)، ليدن، بدون تاريخ.

ب- المراجع الأجنبيــة

57- **Brunchvig, R.**

-La Berbrie Orientale Sous Les Hafsides, Des Origines A La Fin Du XVe Siecle, Deux Tomes, Paris, 1947.

58- **Fage:** J.D. An Introduction to the History of West Africa. Cambridge 1965.

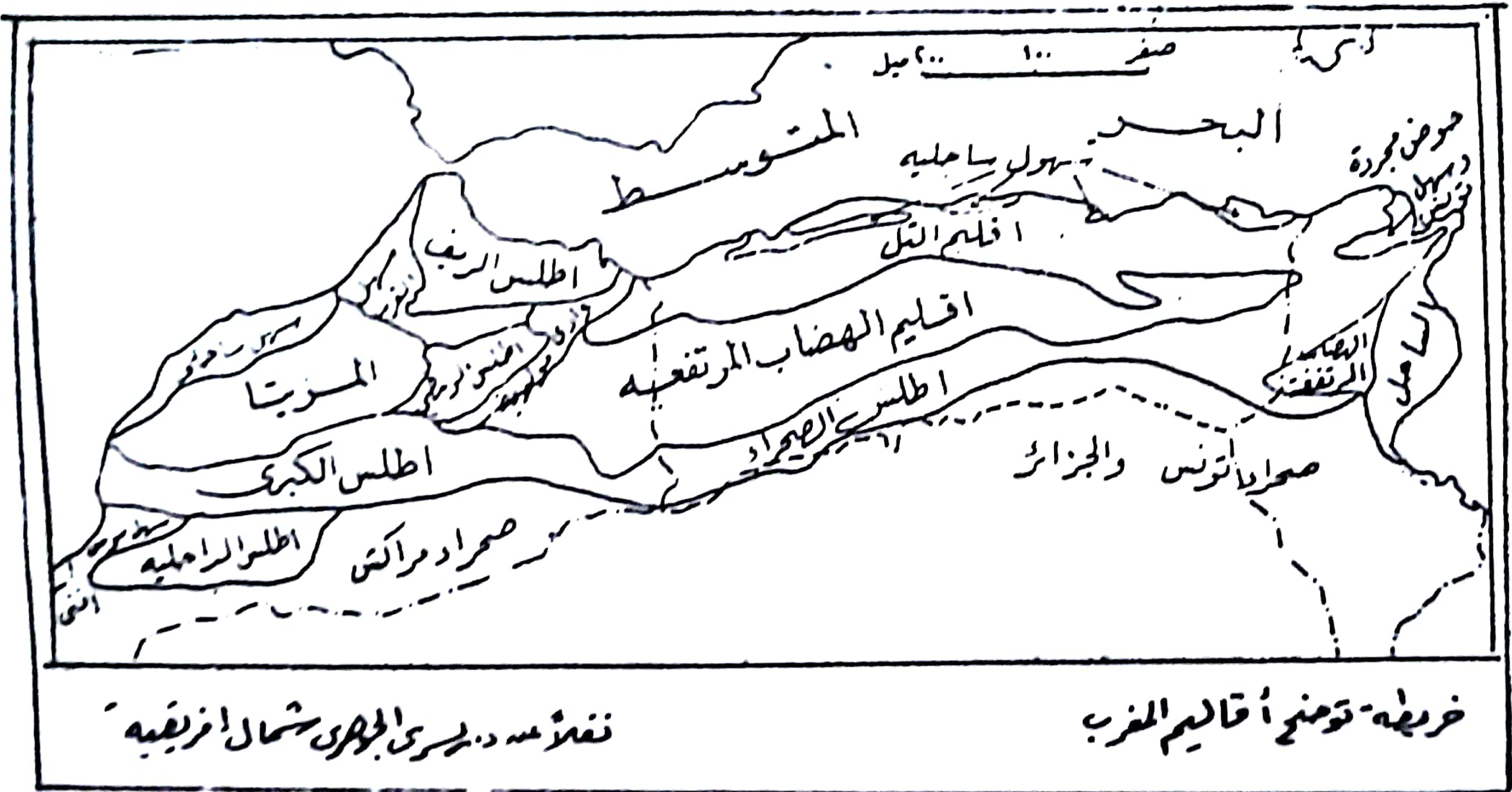
59- **Hopkins:** Medieval Muslim Government in Berbry until the Six centurey of the Higra. London 1958

60- **Jakson:** (G.A.) Algiers, Being a Complete Picture of the Berbry state. London.

61- **Marcais:** La Berbrie Musulman et L'orient an Moyen Age paris 1946.

62- **Scott (S.P)** Moorish Empire 2v. London 1904.

الخرائط



البحر المتوسط
صفر ١٠٠ ٢٠٠ ميل
حوض مجردة
سهول ساحليه
اقليم التل
اطلس الريف
اقليم الهضاب المرتفعه
الميزيتا
اطلس الكبرى
اطلس الصحراء
الهضاب المرتفعة
الساحل
صحراء تونس والجزائر
صحراء مراكش
اطلس الداخليه
خريطة توضح أقاليم المغرب
نقلاً عن د. يسرى الجوهرى "شمال افريقيه"

خريطة رقم ١

البحر المتوسط

المحيط الأطلسي

المغرب الأوسط

المغرب الأقصى

إفريقية

الصحراء الكبرى

بلاد السودان

درعة

سجلماسة

مراكش

تاهرت

تلمسان

فاس

الجزائر

بجاية

قسنطينة

تونس

القيروان

سوسة

المهدية

سبيطلة

جربة

طرابلس

جبل نفوسة

غدامس

بلاد الجريد

ودان

زويلة

برقة

صقلية

خريطة توضح أقسام المغرب المعروفة
وأشهر المدن والحواضر

-٢-

الأندلس

المتوسط

المحيط الأطلسي

الدولة الإدريسية

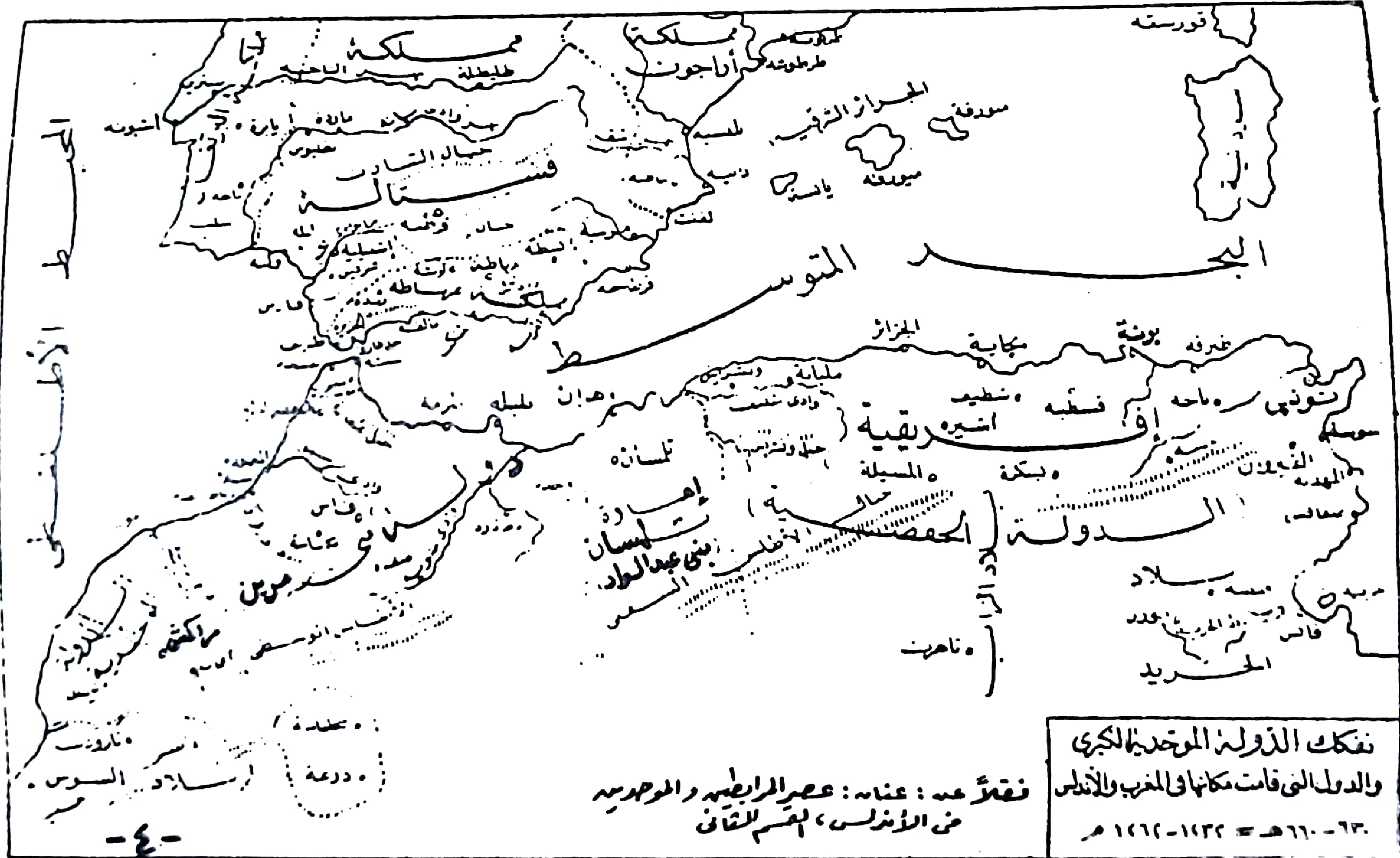
دولة بني مدرار

الدولة الرستمية

الصحراء الكبرى

الدول البربرية الصغرى
-٣-

نقلاً عن د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية
(مقدمات البناء السياسي للمغرب العربي)



نقلاً عن: عنان: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، القسم الثاني

تفكك الدولة الموحدية الكبرى والدول التي قامت مكانها في المغرب والأندلس
٦٣٠ - ٦٦٠ هـ = ١٢٣٢ - ١٢٦٢ م